



41

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت

الشعر في السودان

تأليف
د. عبده بدوي



سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت

صدرت السلسلة في يناير 1978 بإشراف أحمد مشاري العدواني 1923 ـ 1990

41

الشعر في السودان

تأليف

د. عبده بدوي



المحتوى

المحتوى
المحتوى
المحتوى

المحتوى

تقدمه

من قديم والجزيرة العربية تفيض على جيرانها بمدد إنساني غزير، ولقد كان نصيب الحبشة، والنيل الأزرق، وعطبرة، والسواحل الشرقية بصفة عامة وافرا ومتتابعا، وقد ساعد على هذا ضيق البحر الأحمر في المكان المسمى «باب المندب» بحيث أصبح يحرض الناس على العبور وحين جاء الإسلام ساعد على أن تكون هذه المساحة المائية جسرا ثابتا لا يمتنع على الكثيرين، فإذا أضفنا إلى هذا الرافد الشرقي رافدين آخرين في الشمال والغرب أدركنا أنه لم يكن هناك مناص من عملية «التعريب» ولقد تم التعريب بالفعل حين تكونت مجموعتان كبيرتان أولهما : المجموعة الجعلية والكواهلية وتمثل عرب الشمال، وثانيتهما المجموعة الجهينية وتمثل عرب الجنوب في الجزيرة العربية..

لقد زاحمت هذه القوى العربية الجديدة مملكة «المقرة» الشمالية، ومملكة «علوة» الجنوبية، بحيث لم يمض وقت طويل إلا وتم ارتفاع الراية العربية فوق هاتين المملكتين بيد الحلف الذي تم بين «الفونج» و«العبدلاب»، وقد تعلقت الأبصار-والقلوب- بهذه الراية لأنها ارتفعت في فترة كانت من أقسى الفترات التي مرت على القوى الإسلامية، ففي عام 897 هـ /1492 م سقطت أسبانيا بسقوط غرناطة، وفي عام 922 هـ /1517 م احتل الأتراك مصر، وفي الوقت نفسه كان العراق مازال يعاني من عملية تخريبية نزلت به، وكانت بلاد الشام قد وقعت هي

الأخرى في قبضة العثمانيين، وكان المغرب قد فقد بريقه، أما المسلمون في الحبشة فبعد أن ارتفعت رايتهم في حماسة وضعوها في ذل.. وأصبحوا مغلوبين على أمرهم !

في هذه العتمة الحقيقية ظهرت ثلاث دول فتية في السودان هي ممالك: الفونج، والفور وتقلى، وقد أسهمت هذه الدول إسهاما رائعا في نشر الإسلام واللغة العربية، فقد ارتفعت مآذنهم، وتحسنت لغتهم، وكان اهتمامهم واضحا باستقدام العلماء وإغرائهم بالبقاء، وكان اهتمامهم بنفس الدرجة باستقدام جيل من الصوفية، مما تولد عنه جيل جديد هو جيل «العالم المتصوف»، وقد كان من المناظر المألوفة هناك أن تحاط زاوية الشيخ بالدواب، وان يملأ المدخل-كما قيل-ببغال الفونج والعرب، بل لقد كان المسئولون في دولة الفونج مثلا يخرجون في حملات منظمة لأسر مجاميع من الناس بقصد تعليمهم، فإذا أتمت عملية التعليم أطلقوهم لينشروا ما تعلموه بين قبائلهم.. كما أنهم كانوا يلاحقون العلماء الساطعين في أكثر من بلد عربي بالهدايا، وبالدعوات للحضور.

وقد ترتب على هذا مد الإسلام على مساحات كبيرة من الأرض ومن النفوس، وترتب عليه الوصول باللغة إلى درجة عالية من الإتقان، وللحقيقة يمكن القول بأن في عربية السودان جزالة وشدة أسر، وجهامة في القالب تذكرنا بما هو موجود أحيانا داخل المعجمات، ثم إن عامية السودان تعتبر من أفصح العاميات في العالم العربي، فالدخيل فيها قليل بسبب عزلة السودان، وانطواء كثير من السودانيين، وهي تقرب-كما يؤكد الدكتور عبد الله الطيب-من لهجة بني أسد في الجاهلية، ومن هنا يقول الأستاذ حسن نجيلة[1] في كتابه ذكرياتي في البادية «.. إذا أتيح لك الاستماع إلى بعض هذه الألفاظ، أو رأيتهم يبدلون الحروف على غير ما تعهد، فلا تعجل عليهم باللوم، وإنما اتهم نفسك بالعجمة أولا، وعد إلى كتب اللغة واستفتها تنبئك باليقين» ولهذا رأينا البعض-كالشاعر صلاح أحمد إبراهيم-يكتب تحت عنوان «نحن عرب العرب» ويقول: إن شعره خشن كالخيش، ويرى أن تلك الخشونة هي الجزالة التي ظلت تميز الذوق السوداني حتى اليوم،

(1) ذكرياتي في البادية ص 221 وراجع مثلا خصائص العربية في السودان في كتابنا الشعر الحديث في السودان ص 91 وما بعدها.

وبصفة عامة فهم يستعملون مثلا الأضاة بدلا من الغدير، والبطحا للمكان المتسع، والبرمة للجرة من الخزف، والقلوص للجمل الصغير، والتلتلة للحركة بعنف، والجداية للظبي، والحوار للتلميذ، و الزول للإنسان، والسرحان للفجر، والكراع للرجل.. . الخ.. حتى أن الدكتور طه حسين حين أخذ على الدكتور عبد الله الطيب ورود هذه الكلمات الفصيحة الخشنة في شعره، رد عليه بأن هذه الكلمات-وأمثالها-من المتداول في السودان، وأنها كما تمثل جزالة لغته تمثل جزالة قومه. وبصفة عامة فقد أعطى الناس لغة-وشعرا-شبيها بهم، في إطار ما يطلق عليه اسم العربية في السودان.

وابتداء فقد كان بينهم وبين القصيدة العربية «كمال الاتصال» للتشابه في المؤثرات-الجغرافيا والتاريخ-والاعتماد على تقاليد الكلمة المسموعة عن طريق الإلقاء والغناء، والترنيم، بالإضافة إلى بعض الوراثات الأفريقية التي مازالت عميقة الجذور في النفوس، فإذا كان السودان القديم مثلا قد عرف فكرة «القربان البشري» بمعنى التضحية بالملوك للمصلحة العليا، فإننا نجد بعد ذلك في «سنار» عاصمة الفونج أن اخوة الأمير الذي يصعد إلى العرش كانوا يقتلون جميعا خوفا من الفتنة، وفي «فاز وغلى» كانوا يشنقون الملك حين يمرض مرضا يحول دون قيامه بواجبه ولو ليوم واحد، وقد كان «الشلك»-وهم من أكثر القبائل التي اختلط بها العرب-يتخلصون من «الرث»، إذا مرض.. ولعل هذا يذكر بالموت الدرامي الذي يوجد عند السودانيين حين يحيط بهم الخطر فهم يرفضون الفرار ويجلسون على «فروة» استعدادا للموت، وقد بلغ هذا النوع من الموت قمته الحزينة فيما نعرف من موت الخليفة عبد الله التعايشي !

ومن عملية المزج الشديد بين العروبة والزنوجة ولد خط روحي حفر عميقا-ومازال-في النفسية السودانية وهو عالم التصوف، وقد اختلطت فيه الظواهر الإسلامية بظواهر«العرافة» و«الكجور» وتولد عنها-تحت ضغط المؤثرات الأفريقية-الانصراف عن الذات الآلهية إلى الذات المحمدية، وما يسمى بقضية النور المحمدي السائر في العصور ثم كان التحول إلى حد ما إلى «الذات المهدية» ثم كان الانشطار حول شخصيتين يمثلان المهدية والميرغنية وهما السيدان عبد الرحمن المهدي وعلي الميرغني، بالإضافة إلى شخصيات أخرى صوفية ثانوية.. المهم أن الصوفية تدخل في نسيج

المجتمع السوداني، وأنه كان لها-ومازال-زي، وشعائر وايماءات خاصة«على قدر كبير من التركيز الدرامي»، في ضوء ما يسمى «بتسليك القوم»[2].

وقد قرب هذا شعرهم إلى حد ما من البسط القصصي، وجعله يعتمد على «الموسيقا» اكثر من اعتماده على «الصورة»، فهو في أكثر مراحله قد اعتمد على «السماع» وعلى «الترنيم» وسواء أشق هذا التراث طريقه على أمواج الفصحى أو العامية، فإننا نرى أن أثره عميق في بنية القصيدة العربية في السودان، فكثير من البحور التي يتردد من خلالها الشعر السوداني هي البحور المستعملة عند الصوفية كالرمل، والهزج، والخبب، وبخاصة عند هؤلاء الذين لهم صلة عميقة بالصوفية كالتجاني يوسف بشير، والناصر قريب الله، ثم أن عندهم القافية التي تصلح للترنم، والتي تلتزم ما لا يلزم، وما أكثر ظاهرة «التكرار» في شعرهم، كما أننا لا نعدم القصائد التي تتوافق مع الطبول والأصوات المنشدة، والتي تكاد تتحول إلى موسيقا خالصة، بالإضافة إلى خصائص في الرمز والأسطورة والاقتباس وطريقة التشكيل، وهذا ما يؤكد أن عندهم جانبا من الخصوصية في العديد من القنوات التي سار فيها شعرهم.

إن الشاعر السوداني كما يتمتع بواقع خاص وتراث خاص، يتمتع كذلك بكثير من القلق والشك والخوف والتردد، وكثيرا ما ينعكس هذا على الأداة، فبحوره في الغالب قصيرة ومجزوءة، وتفعيلاته قافزة،وصوره مجتمعة حول بؤرة واحدة نافرة وفي حالة شروع وحركة، ومقاطعه يغلب عليها النبر الحاد، ثم انه يتعرض للجليل أكثر مما يتعرض للجميل، ويقترب من لغة الحياة لشدة انفعاله وقلة ترويه، فهو-وبخاصة في المرحلة الأخيرة-يعبر أجمل تعبير عن هذا الشيء الذي يمكن أن يطلق عليه اسم «الواقعية العربية» والتي عبر عنها من قبل الآمدي بقوله: إنها الطريقة التي يخبر

---

(2) في الطريقة القادرية مثلا يجلس المريد قبالة الشيخ بحيث تتلاصق الركب، وتوضع اليد اليمنى في اليمنى بعد صلاة ركعتين وقراءة الفاتحة، ثم يكون هناك دعاء وترديد كلمة التوحيد ثلاث مرات، وطريقتها أن تؤخذ كلمة «لا» من طرفه الأيمن مارا بها إلى المريد إلى جبهته في كلمة «اله» ثم يفرغ كلمة «إلا الله» في طرفه الأيسر، مغمضا عينيه، ثم يوصي بالعديد من الوصايا،وقد كان بعضهم ينصب خباء على هيئة مسرح ووراءه مجموعة من الكباش، ثم يطلب الراغب في دخول «الطريق» فإذا دخل خلطه بالكباش، ثم يقوم الشيخ بذبح كبش، وحين يسيل الدم يتوهم الناس أنه ذبح المريد.

فيها «بالشيء على ما هو عليه !»

وفي ضوء هذا رأيناه يقدم الحياة من حوله-في الغالب-بلا حذلقة، ولا تهويم، ثم انه لا يقدم شخصية الشاعر بالقدر الذي يقدم به شخصية السودان «على ما هو عليه» ومن ثم سنقابل حشدا من الصور الشعبية، ومن الموسيقا المحلية، ذلك لأن الشاعر يعتبرها نفسه، ومن ثم يشد عليها بقبضته وبأحاسيسه، وبخاصة حين يتوهم أن هناك ما يمس كرامته أو لونه.. في الداخل أو في الخارج، ومن هنا يمكن القول بأن الشاعر السوداني يحمل السودان داخله مرتين لا مرة واحدة، مرة لأنه سوداني، ومرة لأنه سلاح في وجه أشياء يتوهم أنها ضده ! فهو إلى حد ما في حالة انفعال، ومن الانفعال يتولد الإلهام، وعن طريقه تتحرك الصور الملونة، ويصدح الإيقاع المتأرجح لا الثابت.. بل إن هذا الإيقاع قد يدفع إلى الرقص، وما أكثر الشعر السوداني الذي يدفع إلى الرقص في «حلقة الذكر» أو حلقة الحياة، المهم أن الشعر في كثير من المواقف تنبثق منه طاقة سحرية، تحول الأحداث إلى صور، وتنقل الصور من عالم التشابه إلى عالم الرمز، ومن عالم المجاز-الذي له دلالة فكرية-إلى عالم الأسطورة-ومن المعروف أن الدلالة في الأسطورة دلالة معاشه، قبل أي شيء آخر-هذا بالإضافة إلى أنهم تكلموا وراء كثير من الأقنعة.

المهم أن هذا الجانب الصوفي القائم على الثبات، والمركز على التوحد مع الكون يتقاطع في جدلية حية مع عالم الواقع، ويعطي هذا الشيء المسمى «بالروح المبدع»، وفي الوقت نفسه يعطي «لمسة التفرد» في مسيرة الشعر العربي، ذلك لأنه لم يحدث في بلد عربي هذا الحوار الحي الذي وجدناه بين الزنوجة والعروبة في السودان، ومع أنهم غير غاضبين على عملية التمازج هذه إلا أنهم يعونها بحرارة.. بل وبصخب ! ذلك لأنهم بهذا النوع من المواقف يحسون بأنهم يدافعون عن أنفسهم، والملاحظ أنهم لا ينخدعون عن أنفسهم وعن طبيعة بلادهم، ذلك إنهم يقولون إننا قوم شدة كجبالنا وقوم كرب كالصحراء من حولنا.. ولأنهم أهل البساطة والصرامة معا.

ولما كانوا في الوقت نفسه على وعي بالثقافة في الخارج، فقد رأيناهم في الفترة الوجدانية شديدي الاتصال بالثقافة الرومانتيكية في الغرب،

وبالثقافة الواقعية في الشرق.. ومن هنا يكونون قد أفادوا من ثلاث ثقافات كبيرة هي ثقافة الزنوجة والعروبة، بالإضافة إلى الثقافة الإنسانية، وهذه «تركيبة» نادرة في العالم العربي، لأنها ثلاثية الأبعاد.

وأخيرا فإنني-بالإضافة إلى موضوعية الدراسة-أرى جدوى دراسة كل شعب من خلال فنه الأول، فإذا كان لكل حضارة فنها الأول، فانه لا خلاف حول أن الشعر هو الفن الأول للحضارة العربية، ثم أنني من الذين يقولون أن الشاعر لا يكذب، حتى وان بدا شعره متناقضا مع الحياة، ذلك لأنه-في الحقيقة-يعبر بصدق عن روح هذه الحياة، ومن ثم رأيت أن أتحدث عن روح شعب منعزل إلى حد ما بحكم وضعه الجغرافي والتاريخي، ولكنه يضرب في صميم الأرومة العربية ! وفي صميم العملية الإبداعية.

.. ثم أن الملاحظ بصفة عامة أن كثيرا من الشعراء العرب لا يبدءون مما يرون ولكن من تاريخ ما يرون، وفي ضؤ هذا نحس أن هناك روحا ما سائدا بينهم، قد يكون هذا الروح هو روح الأمة، أو العنصر القادر على التجول فيها.. وعلى كل فالشاعر العظيم هو الذي «يعي» هذه الروح، وهو الذي يحولها إلى نبض في شعره، المهم أن يمتاح الشاعر-بصدق وذكاء-من الحياة ومن الفن، وأن يوسع-ما استطاع-مساحة الشعر.

وإذا كان لي أن أطلب من القارئ شيئا، فان هذا الشيء هو أن يقرأ هوامش الكتاب، فوضعها لا يقلل من أهميتها، بل أن في الكثير منا مفاتيح لهذا الكتاب.

ولن أنسى هنا شكر تلميذي-في جامعة أم درمان-الأستاذ أحمد محمد البدوي فقد زودني بثلاث وثائق من خط التجاني يوسف بشير، وشكر الصديق الدكتور محمد عبد الحي الذي كتب لي رسالة وضعتها في الخاتمة لأهميتها بالنسبة للشعر السوداني.. ومن قبل شكر الدكتور إحسان عباس الذي أفدت من ملاحظاته.

والله يوفقنا لخدمة أمتنا العربية.

«الدكتور عبده بدوي»

1980/6/27


الباب الأول

١ عروبة السودان

١ - العروبة قبل الإسلام:

وصل تدافع العرب من زمن قديم إلى السودان، فقد كان الطريق البحري الجنوبي تحت سيادة العرب حتى القرن الأول المسيحي، وقد كان العرب يعملون موردين لمحاصيل هذه المناطق، وقد استمر تدافعهم إلى عهد يرجع إلى ما قبل المسيحية، بل والموسوية، وهناك ما يثبت الصلات التي كانت بين حمير وبلاد النوبة في عصر ما قبل الإسلام، وهناك رواية عربية تذكر أن أحد ملوك حمير قد جهز حملة إلى «البجة» للحصول على المعادن، ثم إن بلاد البجة عرفت هجرة الحضارة قبل الإسلام، فقد استقروا عند «العتباري» وتلال «سنكات» وكان أن تحولوا من الوثنية إلى المسيحية، كما أن «الأنباط» عرفوا السودان قبل الإسلام، وقد احتفظت بعض الأماكن في هذه المناطق بأسماء عربية قديمة كنجران التي كانت الاسم القديم لمملكة «بلو» في شرق السودان، ولعل «سوبا» محرفة عن «سبأ» خاصة وأن هناك تشابها في نظام تولي الملك وفي طقوس العبادة بين «سوبا» السودانية، و«سبأ» العربية، فهجرة اليمنيين ما كانت لتقف عند الحبشة وإنما كانت تتخطاها غربا[١].. ومهما يكن من شيء

فبمرور الزمن صبت ثلاثة أنهار بشرية في السودان الشمالي عن طريق الشرق والشمال والغرب، ومن ثم كان تشكيل البلاد من مجموعتين عربيتين كبيرتين هما: 1- المجموعة الجعلية والكواهلة وتمثل العدنانيين من عرب الشمال في الجزيرة العربية 2- المجموعة الجهنية وتمثل القحطانيين من عرب الجنوب في الجزيرة العربية.

وقد ظلت عملية التقاطر العربي-قبل الإسلام وبعده-حتى تمكنت من إقامة حجاب حاجز بين مملكة «علوة» الجنوبية، ومملكة «المقرة» الشمالية، ثم كان تداعي هذا العالم المسيحي حين تلاقت القوة العربية، وبخاصة هذا الالتقاء الذي كان بين «عبد الله جماع» شيخ العبدلان، وبين «عمارة دونقس من الفونج» وهكذا لم يكد ينتهي القرن السادس عشر حتى كان وادي النيل من شلالات «حنك» إلى نهر «الرهد» قد خضع لهذه القوة الجديدة.. وحقا لقد كان لميلاد السودان العربي صدى انتصار بين جميع المسلمين في كل العالم، ذلك لأنه ولد بين حقبتين من أقسى الحقب على الإسلام، ففي عام (897 هـ-1492 م) سقطت أسبانيا العربية بسقوط غرناطة، وقامت عملية رهيبة لطرد العرب، وطمس حضارتهم، وفي عام (922هـ 1517 م) وقعت مصر فريسة في يد الأتراك العثمانيين، أضف إلى ذلك أن العراق كان ما زال يعاني من عملية تخريبية، وأن الشام تسلمتها القوة العثمانية من مصر، وأن المغرب كان قد فقد بريقه، وأن المسلمين في الحبشة كانوا قد غلبوا على أمرهم كذلك[2].

المهم أن الله فتح على المسلمين بثلاث ممالك إسلامية في السودان هي: مملكة الفونج، ومملكة الغور، ومملكة تقلى، وقد كان لها دور كبير في تعريب ونشر الإسلام على مناطق شاسعة في القارة الأفريقية، بل وفي وجود خصائص للعربية هناك[3]، المهم أن هذا العالم قد تشكل باسم الإسلام، وباسم القبلية في آن واحد، وقد أصبح في الوقت نفسه منطقة جذب إسلامي-نظرا للحاضر السيئ للمسلمين في هذه الفترة، ومن ثم كانت الهجرات والإغراء بها إلى هذا العالم، وبخاصة إلى «سنار»، ذلك لأنهم كانوا يقطعون العلماء والمتصوفة بمجرد وصولهم، وكانوا ينظرون إليهم نظرة مليئة بالتقدير، وكانوا يدفعون بدعواتهم الصالحة الأعداء[4]، وقد ظهر بفضل هذه الهجرات، وبمحاولتهم الاتصال بعلماء الأزهر شعر كثير

أخذ يتأكد حتى استقام على عوده، ومع أنه ارتبط بالطبقة الحاكمة مدحا ورثاء إلا أنه وقف عند نظم العلوم، وظهرت فيه نفحات صوفية، وتأثر واضح بالإسلام.. وببعض جوانب من التراث، وبخاصة تلك الجوانب القليلة التي كانت تعاصرهم أو تسبقهم قليلا، ثم كانت المسيرة فيما تلا ذلك من فترات.

2- السودان في التراث العربي:

التفاتات المؤرخين والجغرافيين العرب كثيرة بالنسبة للسودان، ولعل الواقدي في كتاب فتوح مصر والإسكندرية (ت 207 هـ-823 م) أول من يقابلنا في هذا المجال، فهناك رواية حول أنه لما أخبرت الجواسيس الملكة أرمانوسة بمسيرة عمرو بن العاص إلى مصر كتبت إلى أبيها المقوقس بعزمها على الحرب، وطلبت منه النجدة «وقالت للرسول: أسرع وعد بالجواب سريعا» فلما استشار المقوقس خاصته أشاروا عليه بطلب النجدة من ملك البجة وملك النوبة بصفة خاصة، فلما انتصر العرب، دخل بطلوس Batlos القائد البيزنطي في البهنسا بصعيد مصر المعركة، وكان أن جمع وجوه القوم وقال فيما قال «.. وهؤلاء العرب طماعة، وقد طمعوا فينا وأتوا إلينا يريدون أن يملكوا بلادنا ويخرجونا من أرضنا، كما طمعوا في ملك الشام» ولكنه هزم وبخاصة بعد أن خذله ملك البجة وملك النوبة.. ويجيء دور ابن عبد الحكم (257 هـ-871 م) في فتوح مصر والمغرب فيذكر أن عمرو بن العاص دفع بنافع بن عبدا لقيس الفهري إلى النوبة، فلما عزل عمرو وتولى الأمر عبد الله بن أبي سرح غزا «الأساود وهم النوبة» سنة إحدى وثلاثين، وقد أظهر النوبيون مهارة في النبالة، وكان أن أصيبت أعين بعض المسلمين، ومن هنا شهدوا لأعدائهم وسموهم «رماة الحدق»، وقد ذكر البلاذري أن الأعين المفقوءة كان عددها مائة وخمسين عينا، وهي تلك الموقعة التي قال فيها الشاعر:

لم ترعيني مثل يوم دملقه[5]
والخيل تعدو والدروع مثقلة
ترى الحماة حولها مجدله
كأنه أرواح الجميع مهمله

وعلى كل فقد هادنهم عبد الله بن سعد «إذا لم يطقهم»

وقد ذكر الطبري (310 هـ-932 م) في تاريخ الرسل والملوك أن أهل مصر نصحوا بعدم التعرض لهم، وهو يسميهم «النوب».

وقد تعرض اليعقوبي لهم (284 هـ-897 م) في كتاب البلدان وكانت وقفته الطويلة عند البجة، وقد ذكر د. مصطفى محمد سعد أن أهم ما تضمنته النصوص العربية القديمة الإشارة إلى أمرين هامين هما كثرة مناجم الذهب والزمرد في أوطان البجة، وهجرة كثير من القبائل العربية إلى أوطان البجة والعمل في مناجمها، وإذا كانت مثل هذه العلاقة-على نحو ما نعرف من قبيلة بلى-معروفة قبل الإسلام، فان هذه الهجرات كثرت بعد الإسلام، وبخاصة حين اهتم المجتمع العربي بالمعادن والجواهر النفيسة[6].

.. والجدير بالذكر أن هناك إشارة في معجم البلدان ص 363 تشير إلى أن ملوك النوبة كانوا يزعمون أنهم من حمير ولقب ملكهم كابيل-يؤكد هذا كذلك ابن خرداذبة في المسالك والممالك [7]، والمسعودي في كتاب التنبيه والأشراف-كما أن إشارات المسعودي واضحة في أن كثيرا من بني أمية في محنتهم-بالإضافة إلى شيعتهم من أهل خرسان-قد دخلوا أرض النوبة وتوسطوا أرض البجة، وهناك قصة تدور حول أن المهدي سأل محمد بن مروان عما جرى بينه وبين ملك النوبة فقال: لما التقينا أبا مسلم وانهزمنا وتشتت جمعنا، وقعت أنا بأرض النوبة، فأحببت أن يمكنني ملكهم من المقام عنده زمانا، فجاءني زائرا، وهو رجل طويل أسود اللون، فخرجت إليه من قبتي وسألته أن يدخلها، فأبى أن يجلس إلا خارج القبة على التراب، فسألته عن ذلك فقال: أن الله تعالى أعطاني الملك فحق علي أن أقابله بالتواضع، ثم قال لي: ما بالكم تشربون النبيذ وأنها محرمة في ملتكم، قلت: نحن ما نفعل ذلك وإنما يفعله بعض فساق أهل ملتنا، فقال: كيف لبست الديباج ولبسه حرام في ملتكم، قلت: إن الملوك الذين كانوا قبلنا وهم الأكاسرة، كانوا يلبسون الديباج، فتشبهنا بهم لئلا تنقص هيبتنا في عين الرعايا، فقال: كيف تستحلون أخذ مال الرعايا من غير استحقاق ؟ قلت: هذا شيء لا نفعله نحن ولا نرضى به، وإنما يفعله بعض عمالنا السوء، فأطرق وجعل يردد مع نفسه: يفعله بعض عمالنا السوء ثم رفع رأسه وقال: إن لله تعالى فيكم نقمة ما بلغت غايتها، اخرج من أرضي حتى

لا يدركني شؤمك[8].

... وبصفة عامة فقد تعرضوا للدول المسيحية الثلاث التي قامت في هذه. الرقعة، وكيف انهارت وانعقد اللواء للإسلام، وكيف كانت طبيعة العلاقات سلما وحربا على رقعة كبيرة من التاريخ، ويلاحظ بصفة عامة أنهم تناولوا السودان [9] بشيء من الاستخفاف والتطرف وعدم الإنصاف [10]، وقد أنصف ابن حوقل (ت 350 هـ-961 م) في كتاب صورة الأرض النوبة وسخر من البجة، أما أبو الفدا (ت 732 هـ-1331م) فيشمل الجميع بالسخرية بعد أن ينقل أن لهم خصالا عشرا هي: تفلفل الشعر، وخفة اللحي، وانتشار المنخرين، وغلظ الشفتين، وتحدد الأسنان، ونتن الجلد، وسواد اللون، وتشقق اليدين والرجلين، وطول الذكر، وكثرة الطرب.. ومع أن هذه الصفات لا تنطبق تماما على النوبة والبجة إلا أنه يضعهما داخل هذه الدائرة وقد كان الإدريسي (ت 560هـ-1165 م) أكثر دقة حين قال في كتابه «صفة المغرب وأرض السودان ومصر والسودان» فقد قال: جميع بلاد أرض النوبة في نسائهم الجمال، وكمال المحاسن، وشفاههم رقاق، وأفواههم صغار، ومباسمهم بيض، وشعورهم سبطة.. الخ مع ملاحظة أنه يخرج من هذه المحاسن البجة.. وهذا يذكرنا بما قاله عنهم ابن جبير (614 هـ-1217م) في تذكرة بالإخبار عن أتفاقات الأسفار، فقد قال فيما قال: وهذه الفرقة من السودان فرقة أضل من الأنعام سبيلا، وأقل عقولا، لا دين لهم سوى كلمة التوحيد التي ينطقون بها إظهارا للإسلام، ووراء ذلك من مذاهبهم الفاسدة وسيرهم مالا يرضي ولا يحل!

ثم يتوالى حديث المؤرخين المسلمين وهو يدور في الغالب حول الصراع بين الخلفاء وبينهم حين كانوا مثلا يقتصرون في أداء «الخمس» لعمال مصر، على نحو ما يذكره ابن الأثير (ت 630 هـ-1232م) في الكامل في التاريخ، وقد أمر بقتالهم المتوكل، فلما تغلبوا على من أرسل إليهم أمسك عنهم «فطمعوا وزاد شرهم»، ولكنه ألح على قتالهم حتى طلب ملكهم «علي بابا» الأمان وأداء الخراج، و يقال انه كان معه صنم من حجارة كهيئة الصبي يسجد له.

أما أبو شامه في كتاب الروضتين في أخبار الدولتين فيتعرض لوقعة السودان بين القصرين ومنه نعرف أنه أصبح لهم. ثقل في مصر، وكيف

أمر صلاح الدين بنفيهم، وقد استبشر الشاعر العماد وكتب قصيدة معبرا عن فرحه بهذا النفي مفتتحها:

بـــالمـلــــك الـــنـــاصـــر اشـــتـــنـــارت
فـــي عـــصـــرنـــا أوجـــه الـــفـــضـــائـــل

ثم يعرض لمن يسميهم «السودان والعبيد من بلاد النوبة» وكيف خرجوا في أمم عظيمة قاصدين ملك مصر، وعاثوا في طول الطريق فسادا، وقد تمكنوا من بلاد الصعيد، ثم كيف أنفذ إليهم الملك أخاه شمس الدولة، وكان أن قال أبو الحسن بن الذروي قصيدة طويلة منها

لابـــد لـــلـــنـــوبـــة مـــن نـــوبـــة
تـــرضـــى لـــســـخـــط الـــكـــفـــر ديـــن الإلـــه

ثم يؤرخ ابن ميسر(677 هـ-1288 م) في أخبار مصر كيف أن الأتراك كانت لهم غلبة على الحكم، ولكن أم المستنصر غيرت هذا الميزان-وكانت جارية سوداء استكثرت من العبيد إلى أن صار العبد يحكم حكم المولى.

... وعلى كل فما يحكم الأمر هو الالتزام بالجزية، فحين كانوا يؤدونها كانوا يمدحون[11]، وهذه النبرة موجودة عند المؤرخين الإسلاميين على نحو ما ذكره بيبرس الدوادار (ت 725 هـ-1325 م) في زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، وعلى نحو ما ذكره أبو الفدا (732 هـ-1331 م) في المختصر في أخبار البشر، والدمشقي (ت 739 هـ-1338 م) في نخبة الدهر في عجائب البر والبر[12]، وابن فضل الله العمري (ت 749 هـ-1348 م) في مسالك الأبصار في ممالك الأمصار[13]، وابن أبي الفضائل (ت 759 هـ-1358م) في كتاب النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، وابن بطوطة (ت 779 هـ-1377م) في تحفة النظار في غرائب الأبصار وعجائب الأسفار[14]، وابن الفرات (ت 807 هـ-1405 م) في تاريخ الدول والملوك، ومما كتبه ابن خلدون (ت 808 هـ-1406 م) في العبر وديوان المبتدأ والخبر نعرف واقعة السودان بمصر واستيلاء نور الدين شاه بن أيوب على النوبة وكيف أنه لم يجد في البلاد خرجا، ولا في البلاد بأسرها جباية «وأقواتهم الذرة وهم في شظف من العيش ومعاناة للفتن» بل إننا نحس أنه متعاطف معهم، ومشير-كعادته-إلى أن العرب هم الذين خربوا الحياة هناك[15]، و يلاحظ أن القلقشندي (821 هـ-1418 م) في صبح الأعشى في صناعة الإنشاء

والمقريزي (ت 845 هـ-1445 م) في المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار وابن الوردي 861 هـ-1457 م في كتابه خريدة العجائب وأبو المحاسن (ت 874 هـ-1469 م) في النجوم الزاهرة، وابن أياس (ت 930 هـ-1523) في بدائع الزهور في وقائع الدهور، وأبن عبد السلام (ت 931 هـ-1525 م) في الفيض المديد في أخبار النيل السعيد قد قدموا الكثير عن النوبة والبجة بصفة خاصة.. ومع أن الكتب تنقل عن بعضها، وتحمل لهجة التحامل إلى حد ما عليهم، إلا أن ابن خلدون-كما مر بنا امتداد الرأي له قديم-كان متعاطفا معهم، فقد جعلهم مدنية في مواجهة البداوة.

على أنهم إذا كانوا قد أرخوا لفترة الصراع بينهم وبين من يمثلون الخلافة، فانهم لم ينسوا أن يؤرخوا للفترة المسيحية، وكيف أن الحكام لم يرغموهم على ترك المسيحية، بل لقد كان الولاء للمسيح مصحوبا بالولاء للسلطان على نحو ما نعرف من يمين الولاء للملك شكنده، حين أجلس على الحكم على نحو ما ذكر ابن أبي الفضائل[16]، ومن خلال ما كتبه مثلا أبو صالح الأرمني نعرف أن المسيحية لم تكن على سطح الحياة وإنما كانت ضاربة في الأعماق فقد كان مثلا في مدينة «علوة» أربعمائة كنيسة، وأن كل أهلها كانوا من النصارى اليعاقبة، ومثل هذا يقال عن مدينة دنقلة التي كانت بها أبنية تحاكي «أبنية العراق» أدخل فكرتها رفائيل ملك النوبة إلى آخر اثنتين وتسعين وثلاثمائة[17]،-وبصفة عامة فقد تنصرت الممالك الثلاث (النوبة، المقرة، وعلوة).. وأخيرا كان انحسار المسيحية بسقوط دنقلة عام 1318 م، واعتناق ملوك المقرة الإسلام، وتغلب الفونج على علوة عام 1505م.

2 الشعر في العصر الفونجي (١٥٠٤هـ-١٨٢٠)

دار نقاش طويل حول الطريقة التي كتب بها الشعر في هذه الفترات، فقد أكد البعض على أن الشعر القديم على الساحة السودانية كان بالفصحى، وكان امتدادا للفصحى في جميع مراحلها، وكان هناك من رأي أن هذا الشعر بدأ عاميا للتعبير عن حاجات الحياة-والنفس-من حوله، وأنه قد ارتبط أساسا بالغناء على حد ما نعرف من هذا الغناء المسمى «النميم» والذي يدور أساسا حول حث الإبل وحول التشوق للحبيب، وهذا النوع المسمى «المطرق» لأنه يقترن بصوت طرق عصا، بالإضافة إلى شعر مادحي النبي، والى نوع من الغناء الصوفي الجماعي يسمى «كرير» يشترك فيه الرجال والنساء معا... الخ، المهم أنه بدأ عاميا ثم ارتفع بعد ذلك إلى حالة بين العامية والفصحى، فاقدة إلى حد ما النظام الموسيقي، والأحكام الأعرابي، فالشاعر لم يكن يقود الكلمات وإنما هي التي كانت تقوده وتفرض نفسها على قوانينه[١] وعلى كل فطبقات ودضيف الله مليئة بأنماط كثيرة من هذا الشعر الذي يدور أساسا حول عنصري

المدح والرثاء، وحول بعض التهويمات الصوفية، وحول نظم بعض العلوم، ومن الملاحظ أن كل ما قالوه كان محكوما بدائرة التقليد للشعر القريب من عهدهم وهو ضعيف أساسا، ولما كانوا يسمعونه من الشعر الذي يقال في فترتهم الزمانية وهو ضعيف كذلك، ولهذا جاءت نماذجهم مجرد نظم غث، وان كان يشيع منها في بعض الأحيان عبير شاعري حين يتوكئون على بعض شعراء الصوفية كابن الفارض، على نحو ما نعرف مثلا من شطح موسى بن يعقوب:

سلام على قوم إذا ذكر اسمهم
تهتك أستار إليهم برجفة
تلألأت الأنوار من نحو خالقي
بوقت قيامي أو جلوسي بخلوة
نظرت إلى المحفوظ في كل ساعة
تناهيت عن إظهار حكم الدهية
أمر على الآفاق أنظر ما بدا
فأخبر عن ذكر النواحي الغريبة[2]

وقد يخضعون الشعر لقضية الترنيم والسماع فيتخففون من القافية، و يشبعون الحروف، كقول الشيخ مكي الدقلاشي:

الله لي عدة في كل نائبة
أقول في كل نايبة حسبي الله
يا فارحا بالمعاصي عند خلوته
أما علمت بأن الشاهد الله
إلى متى أنت في لهو وفي لعب
فما مقالك فيما يعلم الله
تب يابن أدم ما دمت في مهل
واستغفر الله إن الغافر الله[3]

وإذا كان أغلب ما قيل كان يدور حول السلطان والطبقة العليا حوله فإننا لا نعدم أنغاما أخرى ترددت حول العلماء، أو قيلت للتنفير من الوقوف بأبواب السلاطين على نحو ما نعرف من قول ينسب إلى فرح ود تكتوك..

يـا واقــفـا عــنــد أبــواب الــســلاطــين
ارفـق بــنــفــســك مــن هــم وتحــزيــن
تــأتــي بــنــفــســك فــي ذل ومــســكــنــة
وكــســر نــفــس وتــخــفــيــض وتــهــويــن
مـن يـطـلـب الخـلـق في جـلـب مـصـلـحـة
أو دفــع ضــر فــهــذا فــي المجــانــين
وكــم يــحــاكــي لمــســجــون يــدوم لــه
وكـم مـن الـسـجـن فـي أيـدي المـسـاجـين
أن كــنــت تــطــلــب عــزا لا فــنــاء لــه
فــلا تــقــف عــنــد أبــواب الــســلاطــين
.. ألا الـزم الـعـلـم والـتـقـوى ومـا نـتـجـت
مــن الــثــمــار تــفــز بــالخــرد الــعــين
خـل المـلـوك بـدنـيـاهـم ومـا جـمـعـوا
وقــم بــديــنــك مــن فــرض ومــســنــون
اســتــغــن بــالــلــه عــن دنــيــا المــلــوك
كـمـا اسـتـغـنـى الملوك بـدنـيـاهـم عـن الـديـن

وبصفة عامة فالمناخ العام الذي يعيش فيه الشاعر هو مناخ القرآن والسنة والتصوف، وقليل من الشعر السابق عليه أو المعاصر له، وأقل القليل من الشعر القديم، وجميعها لا تقدم شعرا متوهجا، وإنما تقدم نظما ضعيفا في الشكل وفي المضمون، ذلك لأن المناخ الثقافي لم يكن يساعد على التوهج، ولأن الشعراء لم يحتلوا مكانة بارزة في هذا العصر، ولأن العربية لم تكن قد رسخت في الحياة وعلى الألسن، وفي «طبقات ودضيف الله» النماذج الكثيرة التي تدعم ما نقول على حد قول شاعر يسمى «أبو النور» في رثاء شيخ يقال له «أبو إدريس»

صــوفــي الــصــفــات فــذاك شــيــخــي
أبـــو إدريـــس الـــورع الـــوجـــول
لا يـــشـــتـــاق لـــلـــذات فـــيـــهـــا
مـــن مـــأكـــول ومـــشـــروب الـــعـــســـول

لمــرضـــاة ربـــه ســـهـــر الــلـــيـــالـــي
أحـــب الجـــوع واكـــتـــســب الـــنـــحـــول
فـــمـــالـــه حـــرفـــة قـــط يـــعـــتـــلـــقـــهـــا
ولا غـــرض لـــشـــيء يـــنـــســبـــول
وقـــد تـــخـــلـــف بـــعـــده الحـــبـــر المـــســـمـــى
بـــدفـــع الـــلـــه مـــن أســـد شـــبـــول

ولعل هذا الأنموذج وغيره يؤكد على ما ذهبنا إليه من أن الشعر في السودان قد نهض من أخلاط العامية، ومن الارتفاع عليها، ومن الجهد في خلق الصورة التي صار عليها.(4)

الحواشي

(*1) راجع تشحيذ الأذهان للتونسي 122, 123، تاريخ الثقافة العربية. د عبد المجيد عابدين ص 175 ودراسة عن الأدب السوداني قبل القرن 19 للدكتور إحسان عباس بمجلة القلم الجديد-العدد 6 شباط 1953- ، تراث الشعر السوداني. عز الدين الأمين 22.

(*2) طبقات ودضيف الله154.

(*3) راجع الطبقات 149 (ط منديل).

(*4) الطبقات ص 15, 16 ط صديق، الشعر الحديث في السودان د. عبده بدوي 96 وما بعدها، تراث الشعر السوداني. عز الدين الأمين 31.

3 الشعر في العصر التركي (١٨٢١م ـ ١٨٨٥م)[1]

استطاع الفتح التركي أن يحرك إلى حد ما العزلة التي كان يحياها السودان، فقد فتح البلاد للسياح والمكتشفين والمبشرين، وشجع على التعليم، ودفع بالبعض إلى الذهاب إلى الأزهر، كما أنه أدخل المطبعة وأقام مصنعا للورق لأول مرة بالبلاد، وفي الوقت نفسه هز الإحساس بالقبيلة، وبالعزلة، وشجع على التحولات السكانية نظرا لقيام بعض المدن التي كان من أهمها مدينة الخرطوم، وفي الوقت نفسه ألغى تجارة الرقيق، وقام بعدد من الإصلاحات.. . وعلى كل فنحن لا نكاد نجد لهذا أثرا في الشعر في أول الأمر، ذلك لأن الحظ الواضح للشعراء كان هو الحظ الديني، فالدين كان هو المناخ الحقيقي الذي يتنفسون فيه، على حد ما نعرف مثلا من الشيخ الأمين الضرير الذي مدح النبي عليه الصلاة والسلام بقصائد منها قصيدة تضمنت كل سور القرآن، وهي القصيدة التي بدأها بقوله:

يا رب صل على من كان فاتحة

بكر الوجود به عمراننا اتصلا

وختمها بقوله:

إخــلاصــه فــلــق الإشــراق إذ وضــحــت

لــلــنــاس أخــلاق هــذا الخــاتم الــرســلا

ثــم يــقــول بــعــد دعــاء طــويــل:

والآل والــصــحــب والأزواج كــلــهــم

وكــل مــتــبــع مــن قــدره كــمــلا

كما أن له منظومة نبوية تمكن قراءتها من البحر الكامل ومن مجزوئه، وهي تبدأ هكذا:

حــمــدا لمــن أبــدى لــنــا ســبــحــانــه

مــن أمــنــا بــهــداه إذ قــد صــانــه

نــســبــا صــريــحــا عــن خــنــى ومــكــانــه

فــي الــقــرب لــم يــدرك رســول ذوثــنــا (2)

وهم يحرصون في قصائد المدح النبوي على البدء بالغزل، أو التشوق إلى أماكن بأعيانها كنجد، وقد يجيء ذكر النبي في آخر قصائد من يمدحون أو يرثون على نحو ما نعرف من شعر أحمد الأزهري وإبراهيم عبد الرافع، وكثيرا ما نرى التأثير القرآني واضحا.. ثم انهم مدحوا الحكام وذكروا مآثرهم على نحو ما هو معروف من قصيدة الشيخ أحمد محمد جداوي في قصيدته التي تقع في ستة وخمسين بيتا والتي مدح بها حكمدار السودان محمد رؤوف باشا، وتبدأ بقوله:

وافــي زمــان الأنــس والــتــبــشــيــر

والــعــز والإقــبــال والــتــيــســيــر

وبــدت بــكــل مــســرة أيــامــنــا

وصــفــت لــيــالــيــنــا مــن الــتــكــديــر

والــروض أيــنــع زهــره إذ نــســمــت

ريــح الــصــبــا فــيــه بــنــشــر عــبــيــر

ثم نراه يمدح محمد رؤوف باشا، ثم يمدح الخديوي توفيق، ثم ينتهي بالصلاة على النبي وآله، ولا ينسى أن يذكر اسمه..

ثــم الــصــلاة عــلــى الــنــبــي وآلــه

الــســائــريــن بــســيــرة المــبــرور

مــا قــالــه الأســوانــي أحــمــد نــاظــمــا
وافـــي زمـــان الأنـــس والـــتـــبـــشـــيـــر

ومثل هذا فعل محمد حسين بركاره حين افتتحت مدرسة بربر عام 1299 هـ-1875 م. وفي شعر هذه الفترة نصل إلى إشارة لها دلالهتا ذلك لأن الشيخ أحمد الأزهري مدح أباه لإخضاعه بعض الجبال في السودان، مؤكدا على أبيه «إسماعيل الولي» الذي قد أذن له الله ورسوله في عملية الخروج، فهو قد فعل ما فعل بتكليف ديني، والقصيدة تدور حول هذا الإذن، وحول الإنكار على الذين يخالفون في ذلك، وقد جاء فيها:

أدر ذكـــر إســـمـــاعـــيـــل بـــين المحـــافـــل
ولـــو هـــازلا وأطـــرب بـــه قـــلـــب غـــافـــل
.. ومـن حـضـرة الـرحـمـن والمـصـطـفـى أتـى
لـــه الإذن حـــتـــى ســـار بـــين المحـــافـــل
وكـــان دلـــيـــل الأذن صـــولـــتـــه الـــتـــي
عـــلـــيـــهـــا ثـــوى فـــي أرض كـــفـــر أســـافـــل
.. ولا تـــعـــتـــبـــر أقـــوال غـــمـــر ومـــنـــكـــر
عـــلـــى أولـــيـــاء الـــلـــه مـــن غـــيـــر طـــائـــل
.. ألـــم تـــر أن الـــلـــه مـــيـــز خـــلـــقـــه
بـــتـــأخـــيـــر مـــفـــضـــول وتـــقـــديم فـــاضـــل؟
فـــقـــال رفـــعـــنـــا بـــعـــضـــكـــم فـــوق فـــاذكـــر
تـــرى رفـــع بـــعـــض فـــوق بـــعـــض المـــقـــابـــل
نـــعـــم درجـــات خـــصـــهـــا الـــلـــه بـــالـــذي
تـــقـــرب بـــالمـــفـــروض ثـــم الـــنـــوافـــل[3]

وبصفة عامة فالمدح يغلب عليه الفتور، والتقريرية، ونظم بعض الأحداث، ولم تسلم شخصية الرسول من هذا في كثير من هذا الشعر، فشخصيته كشخصية أي رئيس عادي، فالشخصية في المدح كانت غائبة، ذلك لأن المقصود كان إظهار مهارة في عملية الشكل، أما المضمون فقد كان رداء فضفاضا-كعادة الشعر القديم-يمكن أن ترتديه أكثر من شخصية[4]، ومن المهارات العقلية أيضا في هذه الفترة قصيدة مادحة للشيخ عبد الله أبي المعالي، فقد كتب بيتا بالحبر الأحمر، وبيتا بالحبر الأزرق، فإذا قرأت

الأحمر كان من مصطلح الحديث، وإن قرأت الأزرق وحده كان في رجال الحديث، وأن جمعت بينهما كان في مدح الشيخ إسماعيل الولي[5].

وقضية المراثي لا تبعد عن هذه الصورة التي رسمت للمدح، فهي تدور غالبا حول شخصية سرعان ما يجردها الشاعر فتصبح كنز الهداية، ومصباح الولاية، والقائم بالليل، وشيخ الشيوخ، وفي الوقت نفسه قد يطلق الشاعر عليه بعض المصطلحات الصوفية كقطب الوقت وصاحب الكشف.

أما الظاهرة الملفتة حقا في هذه الفترة فهي اشتغال شاعر كبير فيها بالثورة العرابية، ذلك أن هذا الشاعر هو الشيخ يحيى السلاوي الذي ما كاد يسمع بها حتى شغل بها، ثم انه أحب أن يعيش داخل هذه الثورة، فكان أن عزم على السفر إلى القاهرة، وحين لم يستجب أحد لما أراد تجاوز مصطفى باشا ياور مديرية دنقلا إلى محمد رؤوف باشا حكمدار السودان، فقد أبرق إليه قائلا:

مـــــولاي عـــــز تـــــرحـــــالـــــي
وغـــدوت مـــقـــصـــوص الجـــنـــاح
فـــأرش جـــنـــاحـــي مـــثـــلـــمـــا
عـــودتـــنـــيـــه..ولا جـــنـــاح

ويرى الشاعر نفسه في القاهرة، و يعيش في قلب الثورة مع الناس، و يعرف كيف يشق طريقه إلى الزعيم أحمد عرابي الذي حين أنس إليه طلب منه مناصرة الثورة بالشعر، فما كان منه إلا أن كتب بائيته المشهورة من تسعة وتسعين بيتا «وقد كان من أهمية هذه القصيدة أن طبعت بماء الذهب وبيعت في شوارع القاهرة كل نسخة منها بجنيه ذهبا[6]. وقد جاء فيها:

شـــغـــل الـــعـــدا بـــتـــشـــتـــت الأحـــزاب
والـــلـــه نـــاصـــرنـــا بـــســـيـــف عـــرابـــي
والـــقـــطـــرفـــيـــه مـــن الـــرجـــال كـــفـــاءة
لـــلـــحـــادثـــات فـــهـــم أولـــو الألـــبـــاب
وحـــمـــيـــة الإســـلام تـــقـــضـــي بـــالـــوفـــا
حـــتـــمـــا عـــلـــى كـــل امـــرئ أواب
ومـــحـــبـــة الـــوطـــن الـــعـــزيـــز تحـــثـــهـــم
والـــفـــتـــح أذن بـــاتـــبـــاع صـــواب

والمشركون خواسر في سعيهم
هزموا وقد نكصوا على الأعقاب
هيا بنايا أهل مصر إلى الرضا
والفوز في العقبى بغير حساب
أنتم أولوا الهمم التي بسهامها
كم من عدو آب شر إياب
انتم ولاة المجد أرباب النهى
والحر يظهر عند صدم مصاب

.. وأخيرا يؤرخ للثورة بقوله:

هذي مآثرك الجميلة زينت
رمضان بالترغيب والإرهاب
ثمان عشر منه قد أرختها
بالله نصرتنا وسيف عرابي

283 156 791 68

= 1298هـ

والقصيدة «منشور ثوري» نادر بين الأشعار التي قيلت في الثورة العرابية، فهي تجيء في مقدمتها إخلاصا، وفهما للقوى المتصارعة، وحشدا للقوى التي كانت حول الثورة كالشيخ محمد عبده، والسيد البكري، والشيخ عليش، والنجار، و «البرنسات».. الخ، و هو يعلم ما للخلافة من أثر في الوقوف إلى جانب الثورة فيطلب منها العون، وفي الحقيقة أنها تفضل كثيرا من الشعر المصري الذي قيل في هذه الفترة، والذي دار بصفة خاصة حول الثورة العرابية.

وبصفة عامة إذا كان يغلب على الشعر في هذه الفترة الصنعة، والحماسة، والمباشرة، والتأثر بالقرآن والحديث والعلوم التقليدية، واصطياد الأمثال والحكم-وقد كان هذا ميراث الفترة السابقة-فأنه في هذه الفترة ظهر أثر ضئيل للاتصال ببعض النماذج العالية في العصور الأدبية الشامخة.

4 المهدية والمهدي

كان السودان مهيئا للثورة.. فقد كانت هناك أشياء كثيرة تهيئ البلاد لحدث كبير، وكانت هناك قسوة الحكام الأجانب، وكان هناك التعطيل لقدرات السودانيين والاستعانة بالأجانب في العديد من المجالات، وقد لعب الحكام دورا شرسا في البلاد فقد كان هناك التعالي على المواطنين، وكان هناك «جبي الضرائب» بعنف، ولقد كان كل هذا يقع على الفقراء من الناس، أما الأغنياء فكانوا يتحايلون على عدم الدفع، وكان هذا يقبل منهم، وقد أشار الشيخ محمد شريف آلي شيء من هذا في قوله:

وما أبت السودان حكم حكوم

آلي أن أتى ضعف المطاليب من مصر

فكا لثلث والثلثين للمير وحده

وللشيخ والنظار أضعافه فادر[1]

بضرب شديد،ثم كتف مؤلم

ومن بعده الإلقاء في الشمس والحر

وأوتاد ذي الأوتاد من بعض فعلهم

وأشنع من ذا كله عمل الهر[2]

وقد دفع هذا البعض آلي الهجرة آلي الأطراف البعيدة عن الحكام كالقلابات وبحر الغزال ودار فور، كما أن هذا الواقع السياسي سمح للحكام أن

يفضلوا قبيلة على قبيلة، وطريقة صوفية على طريقة صوفية، وجماعة سياسية على جماعة أخرى ليزداد التمزق.. وفي الوقت نفسه كانت كل الخيوط التي تحكم مقدرات البلاد في يد الأجانب، وقد وصل الأمر إلى عدم احترام مشاعر السودانيين فكان أن ولى سعيد باشا عليهم «أراكيل بك الأرمني» فلما غضب بعض المتنورين لتولي مسيحي عليهم أرسلوا إلى سجن بالإسكندرية، وقد تمردت حامية «دارة الجند» وقالوا: لن يحكمنا نصراني، وكان أن أعلن القائد «سلاطين» إسلامه، على أن ما يحكم الأمر كله أن الأوربيين الذين تولوا المناصب هناك قد كانوا ينطوون على كراهية الإسلام، وعلى محاصرة تياره المتدفق إلى الجنوب.. و بالإضافة إلى هذا كانت هناك محاولة لتخريب الاقتصاد، وكان موقف مصر المتردد تجاه الثورة، وكان جثوم الإنجليز للسودان كالأسد، فقد خططت إنجلترا لتمسك بكل الخيوط، وقد أمسكتها جميعا في نهاية الأمر.

إزاء هذا كان من الطبيعي جدا أن تتفجر ثورة في السودان، وفي هذا المجتمع المسلم ما كان ليسمح بثورة إلا إذا كان وجهها إسلاميا، وسرعان ما وجدت العناصر العربية المغلوبة على أمرها في هذه الثورة متنفسا.. وقد كان وراء هذه الثورة التاريخ الإسلامي كله، ومن ثم كانت نقطة البدء من النبي عليه الصلاة والسلام، ومن فكرة رائعة هي فكرة النور(3)، ومن هذا التراث الوفير الذي أكده الشيعة، وفي الوقت الذي أنكر الكثيرون فيه فكرة المهدية في ضوء ما يذكر ابن خلدون بصفة خاصة في المقدمة.. فان هناك بعض كتب الحديث غير المتشددة قد صدعت بالتأييد لظاهرة المهدية، على أن ما يحكم الأمر كله أن المهدية كانت محاولة لإحياء أمر النبوة التي لا تقف عند فترة الوحي، وأنها علم أبدي سواء أكانت كامنة عند الله أو ظهرت في شخص مختار، وفي ضوء هذا قيل بعصمة الأئمة، وبرجعتهم التي تتحقق «بالمهدي المنتظر» ولنتأمل هذا النص الذي يقول «... فقال من لا ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى: المهدي مني، أجلى الجبهة، أقنى الأنف، يملأ الأرض قسطا وعدلا، كما ملئت جورا وظلما، يعيش يا خمسا أو سبعا أو تسعا، وقال صلى الله عليه وسلم، لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم، حتى يبعث الله فيه رجلا، مني أو من أهل بيتي، يواطيء اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي.. وعن أبي سعيد الخدري رضى

الله عنه قال: ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلاء يصيب هذه الأمة، حتى لا يجد الرجل ملجأ يلجأ إليه من الظلم فيبعث الله رجلا من عترتي، فيملأ به الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا، يرض عنه ساكن السماء، وساكن الأرض، وعن أم سلمة رضى الله عنها، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر المهدي فقال: نعم هو حق وهو من ولد فاطمة.. . الخ «وقد توسع الشيعة في هذا توسعا كبيرا، ثم كان هناك-كابن عربي في الفتوحات المكية وعنقاء مغرب-من نقل آراءهم إلى دنيا المتصوفة، بحيث رأينا شخصية المهدي شخصية تكاد تكون أسطورية، فهو يفهم منطق الحيوان، ويصل عدله إلى الأنس والجان، ويكون معه ثلاثمائة وستون رجلا من رجال الله الكاملين، ويستوزر له طائفة خبأهم في مكنون الغيب، وفي الوقت نفسه أطلعهم كشفا وشهودا على الحقائق، وبصفة عامة فقد مال المجتمع السوداني-ما عدا قلة-إلى قضية المهدية وعلى حد قول مؤرخ سيرة الإمام المهدي « .. وبالجملة فالأحاديث الواردة في حق الإمام المنتظر قد بلغت مبلغ التواتر فلا يرتاب فيها إلا من حاد عن سنة سيد البشر»[4].

وهكذا قفزت شخصية «محمد المهدي بن عبد الله» إلى صميم الحياة في السودان، وكان أن أطلق عليه اسم خليفة رسول الله، وصاحب الزمان، الإمام الفاطمي المنتظر، والمعصوم.

والأمر الذي لا خلاف عليه أن المجتمع السوداني-للظلم الواقع عليه-قد تطلع إلى المهدي، ولهج بذكره، وبخاصة في منطقة الغرب التي كانت مظلومة جدا، ثم إن حركة «عثمان دان فوديو» في المناطق المجاورة أكدت على أن المهدي سيظهر في الحجاز أو في وادي النيل، وأن من علامات ظهوره المنازعات والاضطرابات والجفاف والمجاعات، بل لقد هاجر بعض سكان «سكوتو» إلى الحجاز والسودان انتظارا لهذا الحدث، ولقد كان ظهور المهدي الشغل الشاغل لكثير من السودانيين، ومما يروى في ذلك أن عبد الله التعايشي الذي صار خليفة بعد ذلك، كتب للزبير باشا يقول « .. لقد رأيت في المنام أنك المهدي المنتظر وأنا أحد تلاميذك فأخبرني إذا كنت مهدي العصر فأني سأتبعك» بل إن قبيلة «الدينكا» في الجنوب استوعبت هذه الفكرة، وكان مما قالوه أن روح «دينق» قد حل في محمد أحمد، والأمر الذي لا خلاف عليه كذلك إن المهدي قد شغل اكثر الناس بقضية المهدي،

وأنه قرأ حوله كثيرا، وتشبع بهذه الفكرة إلى حد تقمصها، والدعوة إليها سرا في أول شعبان 1398 هـ-29 يونيو 1881، وقد صور هذا الأمر في مستهله بقوله « .. وأني لا اعلم بهذا الأمر حتى هجم على من الله ورسوله».[5]

ولعل هذا كان وراء البعض الذين ذهبوا إلى أن فكرة القومية السودانية كانت غائبة عنه-وان كان قد أفادها ضمنا-ذلك لأن المنطلق والهدف كان إسلاميا محضا.

وقد عللوا لظهوره في السودان بقولهم « .. فظهر سيدنا محمد المهدي بن عبد الله عليه السلام في ذلك القرن روحا وجسما، فأحيا به الله الإسلام، بعدما صار رسما بل اسما، وخص القريب المجيب إقليم السودان بإظهار هذا السيد الحبيب فيه، ليكون ذلك جبرا لخاطرهم الكسير، وذخرا معدودا لهم من هول ذلك اليوم العسير، إذ هم أضعف أهل الأقاليم، وأعجزهم عن درك الفضائل والتعليم، فحبانا ذو الفضل العظيم بظهور هذا السيد الكريم».. مهما يكن من شيء فقد جمع كل التراث الخاص بالمهدية، وطبق على «محمد احمد» من حيث الاسم، واسم الوالد، وكونه من نسل السيدة فاطمة، بالإضافة إلى الصفات الجسمية والروحية، والقول بملء الأرض قسطا وعدلا، والعصمة، فإذا أعوزت نصوص في هذا المجال كان لجوء إلى الحلم، على حد قول المهدي: ووجدنا شبهنا له على التمام لغاية العروق الظاهرة على يدنا ظاهرة كظهور نار بألسنة الرماح وأطراف السيوف إذا سلت من أغمادها، وبتراكم جثث القتلى في ساعة وكأنها تل كبير، وعلى حد قول الكردفاني «والعلم لله أن ذلك من فعل الملائكة أو غيرهم من أهل الغيب الذين أيد الله مهديهم بهم، وأنهم يكونون معه في سائر حروبه [6]» وقد روجوا أن اسمه شوهد على بيض الدجاج، وعلى ورق الأشجار، وعلى بعض الأحجار، وكالقول بأن أرواح الترك المقتولين في «أبا» أخذها صقر وطار بها .. الخ، وكالقول بأنه حول ماء يكفي عشرين إلى ماء يكفي خمسين ألفا حينما نزل بمنهل «فرتنقول»كما أشاع أن الجنة مفتحة الأبواب لمن يموت معه، وأن الحور تتسابق بجامات الفضة والذهب لكل من يستشهد في حروبه.

.. بهذا وغيره تحول المهدي في ذهن الشعب إلى شخصية خارقة للعادة،

وقد غذاها المهدي نفسه-ومن حوله-يوما بعد يوم، على أنه جعل منطلقه دائما شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام.

لقد بدأ بفترة تحضير للمهدية عام 1298، ثم كانت فترة الإعلان بعد ذلك، حين ذكر أنه أتاه من الحضرتين النبوة والأقطاب سيف، وحين توجه بالكلام إلى من يسميهم «أحبابه» فقال: .. كما أراد الله في أزله وقضائه تفضل على عبده الحقير الذليل بالخلافة الكبرى من الله ورسوله، وأخبرني سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بأني المهدي المنتظر، وخلفني عليه الصلاة والسلام بالجلوس على كرسيه مرارا بحضرة الخلفاء الأربعة، والأقطاب، والخضر عليه السلام، وأيدني الله تعالى بالملائكة المقربين، و بالأولياء الأحياء والميتين من لدن آدم إلى يومنا هذا، وكذلك المؤمنين من الجن، وفي ساعة الحرب يحضر معهم أمام جيشي سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بذاته الكريمة.. ثم أخبرني سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بأن الله جعل لك على المهدية علامة وهي الخال على خدي الأيمن، وكذلك جعل لي علامة أخرى: تخرج راية من نور تكون معي في حالة الحرب يحملها عزرائيل عليه السلام فيثبت الله بها أصحابي، وينزل الرعب في قلوب أعدائي، فلا يلقاني أحد بعداوة إلا خذله الله[7].

.. ثم تراه بعد ذلك يجعل محوره الفكري سيرة النبي كما أكدنا، فهو لا يتلقى أوامره من الله وإنما من النبي، فنجده يقول مثلا: أمرني سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى ماسة بجبل قدير، وأمرني أن أكاتب بها جميع المكلفين أمرا عاما، ويقول: أخبرني سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بأن من شك في مهديتك فقد كفر بالله ورسوله-كررها صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات-وجميع ما أخبرتكم به من خلافتي على المهدية.. الخ فقد أخبرني به سيد الوجود صلى الله عليه وسلم يقظة في حال الصحة، خاليا من الموانع الشرعية، لا بنوم، ولا جذب، ولا سكر، ولا جنون، بل متصفا بصفات العقل، أقفو أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمر فيما أمر به، والنهي عما نهى عنه [8]...

انه هنا لا يستند في تلقي أموره إلا على النبي «لكونه يأخذ من مشكاة النبوة بغير واسطة جميع الأحكام فهو ترجمان الحضرة النبوية، والواسطة العظمى بيننا وبين النبي في التبليغ» [9]، هذا بالإضافة إلى ما يقال في مثل

هذا الحال من الخضوع للإلهام والنكت في القلب، والنقر في الأذن، والرؤيا في النوم، والتأمل في الملك المحدث له [10] .. .

من هنا رأيناه يحاول السير-ما وسعه-وراء الخطوط النبوية، فقبل خروجه من جزيرة «أبا» جعل خلفاءه بعدد خلفاء الرسول، وقد سمى ذهابه إلى ماسة هجرة، واتخذ له غارا يتعبد فيه، وبيعة تذكر بيعة النبي، وسمى أصحابه الأنصار، وجميع الزكاة والعشور واتخذ له أربع زوجات سمين أمهات المؤمنين، وقد وجد من حوله من يشبه وقائعه وغزواته وسراياه بما فعل الرسول، « .. وأنت إذا تأملت بعين البصيرة، وطابت منك السريرة اتضح لك أن موقعة أبا من حيث كونها حصلت يوم الجمعة السادس عشر من شهر رمضان قريبة الشبه من غزوة بدر» وحين يجرح المهدي في معركة تقارن جروحه بجروح النبي في موقعة أحد .. الخ وقد تشرب المجتمع هذا كله، وسار فيه شوطا كبيرا، فحين يشتد المرض على المهدي يأذن لعبد الله التعايشي أن يصلي بالناس و يكون هذا إيذانا بخلافته، وحين يموت يدفن في نفس الحجرة التي توفى بها، كما فعل الصحابة بالنبي، فقد قالوا : لقد كان المهدي يقفو أثر النبي وأن سيرته تطابق سيرته، ثم كان القول باستمرارية المهدية في الخليفة عبد الله التعايشي.

وقد كان هناك تمهيد قبل ذلك بمنشور جاء فيه «أن الخليفة عبد الله هو مني وأنا منه وقد أشار إليه سيد الوجود صلى الله عليه وسلم»[11] على أنه صاحب هذا الخط العقائدي خط آخر ظهر في مطالبة المهدي الحكومة في أول الأمر باستبدال الزكاة بالضرائب، وبإلغاء القوانين الوضعية، وتحكيم كتاب الله في مخلوقات الله، والنعي على الظلم الذي يقترفونه في حق الناس.

في فترة امتدت أربع سنوات تمكن رجال المهدية من السطوع على خريطة العالم فقد دحروا الجيش التركي كتيبة بعد كتيبة، وقد نالوا من قياداته التي كانت في الغالب إنجليزية، وانتهى هذا كله أخيرا بفشل حملة الإنقاذ التي حضرت لتخلص «غوردون» من الحصار والموت، ولكن رأسه تدحرج بين أقدام الثوار، وعلق كرمز على قطع العلاقة بين السودان والحكم التركي، وعلى ظهور السودان كقوة محلية بعيدا عن التبعية، وقد صهر هذا الأمر الناس صهرا شديدا، فقد أدمجت القبائل في اتحاد عام بعد أن كانت

لا تتلاقى ولا تقترب إلا بقدر، ومع أنه كان لكل قبيلة لواء، وشاعر وقائد في أول الأمر، إلا أن المهدي دفع هذا كله إلى حد كبير في اتجاه واحد هو اتجاه الإسلام الصحيح-في اعتقاده-وقد كانت الحركة باسم الإسلام في ذهن كثير من المسلمين في هذه الفترة كحركة مهدي الصومال محمد عبد الله حسن، وكحركة السنوسي الذي حاول المهدي أن يكون السنوسي منه كما كان عثمان للرسول، وكحركة الأفغاني، ومحمد عبده.

فقد كان هناك اتجاه عام في هذه الفترة يعتمد على القول بأن الإسلام قد دخلته مفاهيم غريبة على المسلمين، وأنه يجب أن ينقى بحيث يعود إلى ألقه الأول، ومن ثم كان التفكير الشديد في العودة إلى النبع الأول، وإلى النقاء الأول، وفي ضوء هذا كان اللجوء مباشرة إلى شخصية النبي عليه الصلاة والسلام، وهكذا قفز بالعصر هناك إلى عصر الإسلام الأول.

لقد مهد المهدي لهذا من فترة ببث الكراهية نحو الأتراك، فقد كفرهم وأمر بنبذ ملابسهم وشاراتهم وألقابهم، وبخلق شعور من الاستعلاء والفوقية عليهم، وحين لاقى في هذا معاناة من بعض المتعلمين في عصره رأيناه يضرب ضربات كبيرة للوصول إلى تلك القضية الهامة التي شغلته، والتي جعلها غاية وهي الوصول إلى «الإسلام الصحيح».

... لقد تعرض له عدد من العلماء في عصره وكادوا يهددون سلطته الحقيقية، وذلك حين ربطوا الأمر بالخروج على الجماعة الإسلامية، ولقد جهر بعض هؤلاء العلماء بتكفير من يخرج على خليفة المسلمين، ولما كان للعلماء المصريين دور بارز في هذا رأيناهم يتصدون لعلماء مصر «والعجيب من علماء مصر المذكورين حيث أفتوا أحمد عرابي بقتال والي مصر، ووجوب محاربته، وأنكروا قيام المهدي عليه السلام، وحربه للترك وهم شاهدون على ذلك بمقتضى فتاواهم.. . ففتاواهم المذكورة شاهدة للمهدي عليه السلام على حد قول الشاعر:

ومـلـيـحـة شـهـدت لـهـا ضـراتـهـا

والـفـضـل مـا شـهـدت بـه الأعـداء!

وهناك رسالة مشهورة من المهدي إلى علماء مصر.

ثم انه رأى أن عددا كبيرا من علماء الإسلام قد فرعوا، وعنعنوا، وهمشوا، وفذلكوا وضيعوا أعمارهم في أمور شكلية، وقد كان من جراء ذلك أنهم

أخفوا جوهر الإسلام عن الناس، وأن المواطن البسيط قد أصبح يحس أنه في غابة من الأشجار الكاذبة، وأن عليه أن يتلمس طريقا واحدا بسيطا وسهلا.. وحين اشتد العلماء في النكير عليه سماهم «علماء السوء» وكان مما قاله: ستة لا يرضون بأمرنا العالم والظالم والترك وتربيتهم وأهل الشأن وأهل البرهان.

ثم رأيناه يضرب ضربة مدوية حين رأى أن يوقف العمل بالمذاهب الأربعة أو على حد ما قيل «رفع» هذه المذاهب، فقد رأى أن يتفرد بمذهب خاص به يتكئ دائما على الينابيع الأولى للإسلام، وقد علل لهذا بأنه يأخذ من مشكاة النبوة بغير واسطة، وقد سأله رجل من الشايقية يدعى الحاج مرزوق عن مذهبه بعد أن ألغى المذاهب الأربعة فقال: هؤلاء الأئمة-جزاهم الله-قد درجوا الناس، وأوصلوهم إلينا، كمثل «الراوية» وصلت الماء من منهل حتى أوصلت صاحبها للبحر فجزاهم الله خيرا، فهم رجال ونحن رجال، ولو أدركونا لاتبعونا وان مذهبنا هو الكتاب والسنة والتوكل على الله وقد طرحنا العمل بالمذاهب ورأي المشايخ !

وحين قال له الفكي (الفقيه) جلال الدين: يا سيدي العلماء يسألون عن طريقنا وعن مذهبنا فما نقول لهم ؟ قال: قل لهم طريقنا لا اله إلا الله محمد رسول الله، ومذهبنا السنة والكتاب، وما جاء من عند الله على رؤوسنا، وما جاء من النبي صلى الله عليه وسلم على رقابنا، وما جاء من الصحابة إن شئنا عملنا به وان شئنا تركناه. وبصفة عامة سار في طريق سلفي واضح، فأنشأ بيت المال، وفرض الزكاة والعشور، وقسم الغنيمة والفيء، وحذر من الغلول، كما أنه قسم رايات الجيش تقسيما إسلاميا، ومنع زيارة القبور، وتدخين التبغ، وفي الوقت نفسه جدد في المعاملات فنهى عن زواج البالغة بلا مهر ولا ولي، وحكم بطلاق امرأة الغائب بعد سبعة أشهر إذا لم يترك لها الزوج ما يعينها على الحياة، اللهم إلا إذا كان غائبا في مواطن الجهاد، ونهى عن لبس الفضة والذهب وشعر العارية للنساء، وخروج الحديثات منهن بين الناس كما أبطل الرقص والغناء وضرب الدلوكة[12].

ومن أجل هذا أحرق كل كتب السنة والتفسير، وأحرق معها جميع الكتب الدينية والعلمية حتى لم يبق في السودان من الكتب إلا القرآن ومناشيره

ورواتبه[13] وقد شكك الدكتور مكي شبيكة في أنه هو الذي أمر بإحراقها، ومما يؤيد هذا الرأي في نظرنا أنه عثر في مكتبته على روح البيان، وكثير من كتب التفسير، وكتب الشعراني، وابن عطاء الله، وأنه كان يقرأ بعض هذه الكتب على أصحابه، كما أن الشيخ محمود نور احمد حين أصر على قراءة الجزولية أقره عليها[14]...

وانطلاقا من هذا الشعور، ألغى الطرق الصوفية، فإلى جانب أن بعضها أخذ منه موقفا مضادا، فانه رأى أنها تفتت وحدة الشعب السوداني، وتوزع ولاءه ثم إن كل طريقة كانت ترمي الأخرى بالخروج عن الدين[15]، وفي الواقع لقد كانوا طرقا كثيرة، فقد عرف السودان المرغنية، والقادرية، والسمانية، والإدريسية والتيجانية، والخلوتية، والوهابية، والسنوسية، بالإضافة إلى الطرق التي شجعها محمد علي على الدخول في السودان كالسعدية، والرحمانية، والبدوية، والدسوقية.. ولقد حدد المهدي رأيه في المتصوفة حين قال: إن أقل أنصاره مرتبة يتفوق على الشيخ عبد القادر الجيلاني، وحينما طلب منه تفسير ذلك قال: أن مناقب الشيخ عبد القادر كثيرة، وهي أكثر من أن تحصى، ولكن الشيخ عبد القادر لم يزل المنكر من غيره، ولكن أدنى أصحابنا إذا رأى منكرا يزيله حالا بسيفه، قال صلى الله عليه وسلم: من رأى منكم.. الخ وحين دار جدل حول هذا قال: لو فرضنا أن كل قبيلة حفرت تمدة (ينبوع ماء) لتشرب منها، واعتادت أن تشرب منها زمنا طويلا، فجاء البحر وغطاها كلها فماذا يفعلون به هل يكتفون بأن يشربوا من البحر، أم يبحثوا وراء تمدهم ليشربوا منا ؟ وحين أجابوه: إذا بحثوا عن التمد فلا يجدونه لأنه عمه النيل وصار جزءا منه، قال لهم: هكذا الحال الآن ! ولهذا رأيناه يبطل العمل بجميع الأوراد، و يؤلف لأنصاره راتبا جديدا يقرأ يوميا وهو مكون من الآيات والأحاديث والأدعية [16]... وعلى كل فإذا كان قد «رفع» المذاهب، وأوقف الطرق، فانه أعطى لنفسه مجالا كبيرا في الاجتهاد، وحول المجتمع السوداني إلى مجتمع «مجاهد» يستعلي على الآخرين، وفي ضوء هذا فانه لا يجب أن يأخذ عن الآخرين، لأن الآخرين «كفار» أو سائرون في طريق «الكفار»، ومن ثم كان لابد من أحياء القيم السودانية، ولابد من صهر المجتمع في نار جديدة تسمى نار المهدية، ولابد من رسم «مدينة فاضلة» تبهر عيون الناس وعقولهم، فقد

جاء في منشور للمهدي أن دعوته ستملأ البلاد عدلا بعد أن ملئت جورا، وأن هذا العدل سيفيض منها على العالم كله «ويدر الله لنا الأرزاق درا، و يفيض الماء فيضا، وتتآنس الذياب، ويأمن كل مؤمن من سم الحية، وهذا كله بعد وصولنا لبيت الله الحرام، والبيعة الثانية هي الكبرى، وتسمى بيعة الفوز والرضوان» من كل هذا نرى أن الحركة المهدية قد وحدت المجتمع السوداني، وجعلته حارسا لمثل عليا مشتركة، وقد التزمت بآراء السلف، وكانت لها اجتهادات خاصة بها، وعملت على فرض الإسلام على غير المسلمين، ودفعت بالعربية إلى أماكن لم تدفع إليها من قبل وأدمجت قبائل، ومذاهب، وطرقا، وفي الوقت نفسه أنشأت مدنا-كأم درمان-وأضعفت مدنا كبرير، وحركت التركيب السكاني على مناطق جديدة، وأحدثت خلخلة سكانية في المناطق الزراعية والرعوية.. وفي الوقت نفسه تم «اقتطاع بعض الأطراف السودانية»، وتم عزل السودانيين عن إخوانهم المسلمين، حتى عن الحج بدعوى مظنة اختلاطهم-على حد تعبير مؤرخي المهدية-بجواسيس مصر وإنجلترا.

ثم كان انحراف الخليفة عبد الله التعايشي بالثورة، وتربص إنجلترا بالبلاد ثم الوثوب، واستعادة الفتح «.. لقد تم كل شيء في جو من الدهشة الحالمة وعدم التصديق: انتصرت الثورة قبل أن يفهمها الناس، وانحرفت دون أن يصدق الناس، واندحرت بصورة فاجعة قبل أن يستوعب الناس الدرسين السابقين، وتجربة الهزيمة القومية تجربة متكررة في حياة كل أمة، ولكنها تتفاوت من حيث النتائج والآثار وقد كانت هزيمة الثورة المهدية في نوفمبر عام 1899 واحدة من تلك الهزائم التي تعمر الأجيال، تاركة على واعية الشعب وضميره أخطر الآثار.»(17) وهكذا كانت المهدية حلما جميلا عاشه السودانيون، ولكنهم ما لبثوا أن أوقظوا منه إيقاظا شديدا، فقد كان العالم ضدهم، وكانت يد المسلمين قصيرة لم تستطع أن تمتد إليهم، وكانت هناك محاولات لتصفية كل الأصوات الإسلامية، ثم انه كانت هناك أخطاء في نسيج المهدية، وكان هناك عدم بصر بالظروف الخارجية، ففي الوقت الذي كانت تتداعى فيه الهدية في الداخل، كان الخليفة عبد الله التعايشي يدعو إلى أن يعتنق المهدية السلطان عبد الحميد، وقبائل نجد والحجاز، ووداي، والسلطان رابح، وسلطان سكوتو، وملك الحبشة، والملكة فيكتوريا

ملكة إنجلترا، ومع أنه طلب من خديوي مصر أن يكونا يدا واحدة إلا أن الرياح كانت تأخذ طريقا معاكسا، ومهما يكن من شيء فالمهدية لم تكن غير ثورة تحررية من أشياء كثيرة في الداخل والخارج، ولما لم يكن العصر يسمح بثورة إلا من خلال الدين وباسمه فقد كان لابد من لبس «مرقعة الدراويش» والتحدث باسم الإسلام، والأخذ-كما قالوا-من مشكاة النبوة بغير واسطة.. ومن ثم كانت المبالغات، ومداواة بعض الأخطاء بالأخطاء، على أنه كان وراء ذلك قلب ذكي حاول الإخلاص للإسلام ما استطاع وحاول تخليص الوطن من أيدي قاتليه، وحاول دفع الإسلام والعربية في مناطق جديدة لم تعرف الإسلام والعربية في المجتمع السوداني.. وحاول أن يضيء رقعة من الجغرافيا في فترة من التاريخ.. وقد فعل في ضوء المقولة التي تقول إن الإمامة مطلقة في أمور الدنيا والدين معا !

5 الشعر وقضية المهدية

موضوع المهدية في الحضارة العربية موجود، وقد كانت الكلمة قديما لا تخرج عن معناها اللغوي، على حد ما نعرف من قول النبي عليه الصلاة والسلام «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين» وعلى حد ما نعرف من مجيئها على ألسنة عدد من الشعراء كحسان بن ثابت، ولكن الكلمة خرجت من معناها اللغوي حين أطلقت على الإمام علي، وعلى ابنه الحسين، وحين خصصتها فرقة الكيسانية بمحمد بن الحنفية الذي قيل عنه إنه لم يمت، وأنه وأصحابه يقيمون في جبل رضوى، وأنهم جميعا أحياء «وعنده عينان نضاختان تجريان عسلا وماء لأنه يرجع إلى الدنيا فيملؤها عدلا»[*]، ثم أن كلمة «المهدي» أضيفت لها كلمة «المنتظر» ولهذا رأينا الشيعة بين وقت وآخر يخرجون مطالبين بالحكم باسمه، ولما كانت هذه الفكرة تعتمد على جوانب عاطفية، وتقف وراءها فكرة الظلم، فإننا رأينا عددا كبيرا من الشعراء المحسوبين على الشيعة تعمق هذا المفهوم على حد ما نعرف مثلا من شعر كثير عزة، وبهاء الدين العاملي، وديوان ابن هانئ الأندلسي مليء بمصطلحات كثيرة في هذا المجال مثل، الدعوة، والداعي، والعهد، والتأويل، والوصي،

وضرورة وجود الإمام في كل عصر ظاهرا أو مختفيا، وأنه تجب معرفته لأنه علة وجود العالم، وقد عمقت هذا الاتجاه رسائل أخوان الصفا حين أكثرت من الحديث عن نظرية الفيض الإلهي، وأن هذا الفيض يختص به الله من يشاء من عباده، وأن له المظاهر الدورية!

وعلى كل فقد تأسست دول باسم المهدية كدولة الموحدين في المغرب، ودولة المهديين في السودان، وبجب ألا ننسى في هذا المجال دولة الفاطميين «فإذا نحن قلنا أن كل الحضارة الفاطمية والعلم الفاطمي والقاهرة الفاطمية نتاج غير مباشر لفكر المهدي لن نبعد»[1]

.. وما يهمنا هنا هو القول بأن الدعوة المهدية امتداد طبيعي للفكر الشيعي، وأن الناس كانوا مهيئين لهذه القضية في السودان، إلى حد أنهم كانوا يطلقون على الرجل الصالح اسم «المهدي المنتظر» بالإضافة إلى الرغبة في وجود «مخلص»، وهم ليسوا في هذا بدعا، فاليهودية تقول برجوع ايليا، والمسيحيون والمسلمون يقولون برجوع عيسى، ومن ثم كانت الأعين-ومن وراء ذلك العواطف-جادة في البحث عن مخلص، وقد ساعد على ذلك في السودان أن المناخ الثقافي محشود بحديث لا ينتهي عن الصوفية والمتصوفين، وبحديث لا ينتهي عن الظلم والظالمين، وقد تلقف كل هذا «محمد أحمد المهدي» وشحن به نفوس الناس، وقد قدم مهديته على أساس أنها أمر من الله ورسوله فقد جاء في بعض كتبه « .. أني لا أعلم بهذا الأمر حتى هجم علي من الله ورسوله من غير استحقاق فأمره مطاع وهو يفعل ما يشاء ويختار» كما أنه قال « .. وحيث إن الأمر لله والمهدية أرادها الله لعبده الفقير الحقير الذليل محمد المهدي فيجب بذلك التصديق لإرادة الله، وإذا كان ما يهمنا من هذا كله هو انعكاسه في الشعر، فإننا رأينا الشيخ الحسين الزهراء يقول:

أنعم بأمر كان من جد القضا
جار، وقد حكمت به الأسماء
وله الإشارة من ألست بربكم
طوعا له، وليسمع العلماء

وإذا كان المهدي قد صور مراسيم حفل مهديته بقوله إنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم «بعيني رأسه يقظة فأجلسه على كرسيه وقلده سيفه

وغسل قلبه بيده وملأه إيمانا وحكما ومعارف منيعة» فأننا رأينا الشاعر إبراهيم شريف الدولابي الكردفاني يترجمها إلى الشعر فيقول:

ورقـي إلـى كـرسـيـه مـتـسـمـا
خـلـعـت عـلـيـه مـلابـسـا مـن نـور
وأقـامـه المخـتـار عـنـه خـلـيـفـة
فـي مـشـهـد بـالأولـيـا مـعـمـور
فـدعـا إلـى الـديـن الحـنـيـف مـجـاهـدا
بـالـسـيـف، والإنـذار، والـتـبـشـيـر

وحين ذكر المهدي الأحاديث والأخبار التي وردت في المهدية قال الشيخ الحسين الزهراء:

بـه أخـبـرت مـن قـبـل وقـت ظـهـوره
صـحـاح رواهـا هـبـرزي مـوضـع

وإذا كان المهدي قد ذكر أن الله قد أيده بالملائكة والمقربين وبالأولياء الأحياء والميتين من لدن آدم إلى زماننا هذا، وكذلك المؤمنون من الجن، فان الشيخ الحسين الزهراء يقدم لهذا معادلا فيقول:

لـم لا.. وأمـلاك الـسـمـوات الـعـلا
فـي جـيـش مـهـدي الـورى أجـنـاد
والجـن والأنـس الـذيـن عـهـدتـهـم
سـوى[2] الـذيـن ومـالـهـم وأعـداد

وإذا كان المهدي قد ذكر أن النار كانت تحرق أجساد أعدائه «عيانا» فان الشيخ الحسين الزهراء يقول:

مـا الـنـار شـأن الـنـار أعـجـب مـا أرى
تجـرى بـهـم وجـسـومـهـم سـوداء

وقال الشيخ عبد الغني السلاوي:

وقـتـيـلـه يـوم الـطـعـان مـعـجـل
إحـراقـه، وبـذاك لـي أنـبـاء

وقد ذكر الشيخ محمد الطاهر المجذوب العديد من المواقع التي انتصر فيها! في القصيدة التي أولها:

هـــــنـــــدوب تـــعـــرف صـــبـــرنـــا
كـــيـــف اتجـــهـــنـــا لـــلـــمـــصـــاعـــب
وهـــشـــيـــم تـــشـــهـــد عـــزمـــنـــا
كـــيـــف ادر عـــنـــا لـــلـــمـــتـــاعـــب

وإذا كان المهدي قد ذكر أن النبي قال له «من شك في مهديتك فقد كفر بالله ورسوله» فان الشيخ إبراهيم شريف قال:

ومـــن اهـــتـــدى بـــهـــداه أصـــبـــح داخـــلا
ســـور الـــرضـــى أعـــظـــم بـــه مـــن ســـور
ومـــن انـــتـــمـــى لـــســـواه أمـــســـى حـــائـــرا
ضـــل الـــطـــريـــق بـــلـــيـــلـــة ديـــجـــور
.. فـــتـــح الـــبـــلاد ودمـــر الـــكـــفـــار فـــي
كـــل الـــبـــلاد بـــجـــيـــشـــه المـــنـــصـــور

وإذا كان قد بشر أصحابه بأن الحور تنتظر من يقتل تحت راياته، فان الشيخ محمد عمر البنا يقول:

والحـــور تـــنـــتـــظـــر الـــلـــقـــا فـــرحـــا بـــهـــم
وتـــزيـــنـــت لـــقـــدومـــهـــم جـــنـــات

وإذا كان المهدي قد ذكر أن النبي قد قلده سيف النصر، وأيده بقذف الرعب في قلوب أعدائه، فان الشيخ محمد عمر البنا يتلقف هذا ثم يقول:

وأمـــدهـــم جـــيـــش المـــلائـــك نـــاشـــرا
رايـــات نـــصـــر لـــلـــبـــلاد تجـــوب
فـــســـيـــوفـــهـــم مـــســـلـــولـــة، ورمـــاحـــهـــم
مـــســـنـــونـــة، وعـــدوهـــم مـــرعـــوب
فـــعـــدوهـــم دومـــا يـــغـــص بـــريـــقـــه
والـــرعـــب مـــنـــهـــم لـــلـــقـــلـــوب يـــذيـــب
أن نـــوزلـــوا كـــانـــوا الـــلـــيـــوث مـــعـــاركـــا
دومـــا ..وعـــقـــل عـــداتـــهـــم مـــســـلـــوب

وحين فتح المهدي باب الجهاد قال الشيخ محمد عمر البنا:

أن الجـــهـــاد فـــريـــضـــة مـــرضـــيـــة
شـــهـــدت بمـــحـــكـــم أمـــرهـــا الآيـــات

وحين ذكر أن نسبه يرجع إلى النبي، قال الشيخ حسين الزهراء:

يــا بــن الــنــبــي مــحــمــد وولــيــه
وأمــيــنــه.. مــاذا إلــيــك مــراء

وقال الشيخ إسماعيل عبد القادر:

خــلاصــة صــفــو المجــد عــن آل هــاشــم
وأفــضــل مــن فــي الخــيــر راح أو اغــتــدى
أمــام لــه فــي كــل مــجــد وســؤدد
مــآثــر فــضــل مــا أجــل وأمــجــدا

وحين توفي قال الشيخ إبراهيم شريف:

يــا آل بــيــت المــصــطــفــى صــبــرا وان
جــل المــصــاب، وعــز عــن تــعــبــيــر

وقد ذكر المهدي في رسالته إلى السنوسي الذي طلب منه أن يكون بمثابة عثمان لديه «.. ثم حصلت حضرة عظيمة عن النبيﷺ فيما خلفه من أصحابي فإذا أجلس أحد أصحابي على كرسي أبي بكر الصديق، وأحدهم على كرسي عمر وأوقف كرسي عثمان فقال هذا الكرسي لابن السنوسي إلى أن يأتيكم بقرب أو طول وأجلس أحد أصحابي على كرسي علي»[3] وفي ضوء هذا رأينا الشيخ محمد الطاهر المجذوب يقول حين رثائه:

عــزاء إلــى الــصــديــق نــائــبــه الــذي
بــه المــلــة الــغــراء شــد انــتــصــابــهــا
عــزاء إلــى الــفــاروق مــن كــان رأيــه
لــديــه يــهــاب الــبــاتــرات ذبــابــهــا..الــخ

وقد رسم له الشعراء صورة واضحة على حد ما نعرف مثلا من قول الشيخ إبراهيم شريف الدولابي:

هــو مــجــمــع الــبــحــريــن بــحــر شــريــعــة
طــام، وبــحــر حــقــيــقــة مــســجــور
ســر الــوجــود، وتــرجــمــان الحــضــرة الــعــلــيــا،
ومــظــهــر غــيــبــهــا المــســتــور

والــلـــه أكــرمـــه بــطـــيـــب تحــيـــة
يــجـذو بــهــا مــوســى كــلــيــم الــطــور
قــد كــان قــوام الــدجـــى مـــتــبـــتـــلا
مــتـــواصـــل الإحـــســـان غـــيـــر فـــخـــور
طــلــق المحــيــا خــاشــعــا مــتــواضــعــا
كــهــف الــفــقــيــر وجــابــر المــكـــســـور
وتــفــيــض بــالجــود الــكــثــيــر يمــيــنــه
أبـــدا بـــلا مـــن ولا تـــكـــديـــر
ويــبــيــت طــاوي الــكــشــح جــوعــا وهــو قــد
أعــطــى الــكــنــوز بــجــمــعــهــا المــوفــور
لا يـــبـــتـــغـــي جــاهـــا ولا مـــالا ولا
عـــز المـــلـــوك ولا ارتـــفـــاع الـــدور
مــا هــمــه إلا اجــتــذاب الخــلــق مــن
درك الــشــقــاوة.. عــمــيــهــم والــعــور
والــديــن عــز وأهــلــه بــلــغــوا المــنــى
وتـــقـــلـــبـــوا فـــي نـــعـــمـــة وحـــبـــور
تــاقــت إلــى الــذات الــعــلــيـــة روحــه
وســعــت لمــقــصــد صــدقــهــا المــذخــور

... ومثل هذا نجده في قصيدة رحبة للشيخ الحسين الزهراء منها:

عـمـاد الـهـدى. أس الجـدي. مـعـدم الـعـدا
بـــداوالـــيـــه الـــنـــاس فـــي الأرض نجـــع
أمـــام الـــهـــدى الـــهـــادي لـــكـــل مـــرشـــد
بــهــامــتــه الــتــاج الــنــفــيــس المــرصــع
بــه أخــبــرت مــن قــبــل وقــت ظــهــوره
صـــحـــاح رواهـــا هـــبـــرزى مـــوضـــع

ونجد نفس النغمة عند الشيخ عبد الغني السلاوي على نحو ما نعرف مثلا من قصيدته التي يقول فيها:

الــلـــه أكــبــر.. لا ارتـــيـــاب لـــهـــديـــه
والجـــاحـــدون لـــــه إذن أعـــــداء

والآخـــذون بـــه لـــقـــد أعـــلاهـــم
أوج الـــعـــلا.. فـــخـــرت بـــهـــم عـــلـــيـــاء
.. والـــعـــقـــل قـــبـــلا فـــيـــه يـــشـــهـــد أنـــه
بـــعـــث الـــهـــدى.. يـــأيـــهـــا الـــعـــقـــلاء
هـــلا رأيـــتـــم مـــوجـــبـــات الـــصـــدق فـــيـــمـــا
يـــدعـــي.. أو لـــيـــس فـــيـــه خـــفـــاء
ولـــنـــا عـــلـــيـــه نـــتـــائـــج بـــالـــفـــكـــر أن
لأعـــين الـــنـــظـــرا لـــه أضـــواء
إذ نـــصـــره مـــن ربـــه مـــشـــهـــود كـــل
الـــعـــالمـــين.. ولـــيـــس فـــيـــه مـــراء

.. وهكذا نرى أنه كان للمهدية شعر، وأن هذا الشعر قد استوحى المهدي والمهدية[4].

6 الشعر والثورة

في فترة «التركية الأولى» لم ينس السودانيون القسوة التي فتحت بها البلاد، وقد سار كثير من الحكام على طريق العسف والقسوة، وقد كان كثير منهم يقيم في البلاد كارها، كما ثبت على البعض أنه «استحل مال الأمة»، فقد كان الاختلاس بين الحكام شائعا، وفي عهد سعيد باشا الذي زار البلاد في 16 يناير من عام 1857 هاله فقر البلاد، وما تركه فيها انتشار الهواء الأصفر الذي مات بسببه الكثير، وكان أن عزم على إخلائها، لولا ما قيل له أن الإخلاء سيحدث نوعا من الفوضى ستمتد إلى مصر[1] وكان أن قام بعدة إصلاحات يجيء في مقدمتها أنه أصدر أمرا صريحا بمنع تجارة الرقيق، وعلى الرغم من هذه الإصلاحات وقع في خطأ فادح حين استجاب إلى فكرة «نابليون الثالث» الذي طلب منه إمداده بسودانيين للحرب في المكسيك، وكان أن أرسلت أورطة مكونة من 453 سودانيا، ثم كان خطأ آخر أكثر فداحة في نظر السودانيين وذلك حين عين على السودان «أركيل بك الأرمني» فقد أنكر السودانيون-وبخاصة مشايخ الشكرية والفقيه إبراهيم عبد الدافع-أن يعين عليهم وال مسيحي، وقد أرسل الغاضبون إلى مصر، وألقي

بهم فترة في سجن الإسكندرية، وعلى الرغم من أنه قامت في البلاد عدة ثورات إلا أنها كانت تخمد بقسوة، والظاهرة العامة أن مشاعر أهل البلاد لم تكن تراعى، وأن الأجانب كانوا يضعون أيديهم على المناصب الحساسة، وقد هيأ هذا البلاد للثورة، وقد صور هذا أحد العلماء السودانيين حين كتب إلى أستاذه بالأزهر « .. . أن الحكومة (التي يتولاها غوردون) كأسد كاسر والأهالي كأنعام ضالة لا راعي لها غير الأسد، هذه حالنا اليوم أما أنا فإنني أؤكد لك أن هذه الأحوال لا تدوم أياما قلائل، وسترى أن الأغنام السود ستنقلب إلى ذئاب، وسيرأسها أسد كاسر، ويموت الأسد الظالم شر ميتة»(2)

في هذه الفترة كان المطلوب من العلماء أن يسيروا في ركاب الحاكم، فمن قبل وسع لهم في الرزق، وتركوا في وظيفتهم، ومن يخرج كان يعاقب بالسجن على نحو ما نعرف من موقف الفقيه إبراهيم عبد الدافع الذي سجن بالإسكندرية مع زميله الشيخ أحمد أبو سن شيخ الشكرية، اللذان لم يفرج عنهما إلا بعد أداء يمين الطاعة، ولكن كان إلى جانب ذلك تيار صوفي حر إلى حد ما، فالحكومة ما كانت تتبع شطحاته، ووجهات نظره، ذلك لأنها في الصميم كانت تتجاوز الواقع إلى عالم من التجريد والتهويم، ما كان ليعني الحكومة في شيء، ومن هنا لم نرها تضيق على الطرق التي تعددت في هذه الفترة، بل لقد كان هناك تشجيع في بعض الفترات على إدخال طرق جديدة، ولقد حسم من فترة الأمر للمتصوفة على حساب الفقهاء، ولعل مما يدل على ذلك تلك الرواية التي تقول أن الشيخ دشين المعروف بقاضي العدالة تقابل مع الصوفي محمد الهميم، وكانت فرصة ليحدثه في أمر زواجه من عشر نساء، ومن جمعه بين الأختين، وكان أن قال له: يا شيخ محمد خمست وسدست وعشرت حتى جمعت بين الأختين تخالف كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما كان منه إلا أن رد قائلا بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أذن له بذلك، وقبل أن يتكلم القاضي قال الشيخ إدريس الذي شهد المواجهة دعه فأمره بينه وبين ربه، ولكن القاضي فسخ هذه الأنكحة، فما كان من الصوفي إلا أن دعا عليه قائلا: الله يفسخ جلدك، ويقول صاحب الطبقات «وان القاضي مرض وانفسخ جلده مثل قميص الدبيبة، وشطح الشيخ شطحا مع كونه أميا لم

يقرأ إلا لغاية الزلزلة:

فـان كـنـت يـا قـاضـي قـرأت مـذاهـبـا
فـلـم تـدريـا قـاضـي رمـوز مـذاهـبـنـا
فـمـذهـبـكـم نـصـلـح بـه بـعـض ديـنـنـا
ومـذهـبـنـا يـعـجـم عـلـيـكـم إذا قـلـنـا
قـطـعـنـا الـبـحـار الـزاخـرات وراءنـا
فـلـم يـدر أهـل الـفـقـه أيـن تـوجـهـنـا[3]

وعلى الرغم من أن هناك بعض الأصوات التي ناصرت الفقهاء على المتصوفة، إلا أن إعجاب العامة بالمتصوفة كان لا يقف عند حد، ذلك لأنه كان يبعدهم إلى حد ما عن الواقع الكريه الذي كانوا يعيشون فيه، ولأنه كان مسموحا به من الحكام في هذه الفترة، بل ومشجعا عليه، وكان أن ولد موقف أخير يمكن أن يطلق عليه اسم «الفقيه المتصوف» وداخل هذه الدائرة كان دور كبير لشقيقين هما: محمد شريف بن نور الدائم، وعبد المحمود بن نور الدائم [4].

الأول تعلم في بلاده، ووفد إلى الأزهر، وظل على صلة بعدد من علماء مصر، ومتصوفيها، وحين تولى أمر السمانية ظل على صلة بأمور الدنيا والدين، ولقب «بالأستاذ» وأخرج كتاب «العنوان»، «الهداية الألهية» و«كتاب الأذكار الطيبية في أوراد الطرق الجلية» والطرق التي ذكرها هي: القادرية، والخلوتية، والشاذلية، والرفاعية، والدسوقية، والبدوية، والنقشبندية، ولما كانت بعض هذه الطرق ليست موجودة في السودان، فإن هذا يدل على سعة أفق الشيخ محمد شريف، ورغبته في مخاطبة الآخذين بها في العالم الإسلامي، وبخاصة مصر، ورغبة منه في تجاور أسوار الطريقة السمانية التي يتزعمها إلى حقيقة جوهر التصوف.

ثم إنه يجب ألا ننسى أنه تعرف على هذه الطرق السبعة، وأنه قد أجازه عليها الشيخ محمد الحسن بن محمد عبد الكريم حين ذهب إلى المدينة المنورة، ثم أن مثل هذا الموقف قد أخذ به الشيخ محمد الحسن بن محمد عبد الكريم، لهذا كان من الطبيعي أن يعبر عن هذه القضية شعرا فيقول:

أذنـت لأهـل الحـب فـي كـل بـلـدة

بـأذكـار طـيـب الـقـوم ذي الـسـلـك والـسـيـر
بــشــرط الأســاس والــعــقــائــد والــنــقــي
وفــاعــل ذا مــأذون فــي الــعــهــد والــذكــر
كــمــا أنــنــي مــأذون فــي كــل مــا أتــى
بــه أحــمــد المخــتــار مــن عــمــل الخــيــر

وقد كان وراء هذا التقاء الفقيه والصوفي فيه، والرغبة في توحيد الأصوات الصوفية المتصارعة حوله، والرغبة كذلك في تجاوز أسوار الطريقة السمانية التي يتزعمها إلى حقيقة جوهر التصوف بدليل أن بعض هذه الطرق لم تكن معروفة في السودان، بل انه ليس من البعيد أن يكون قد فكر في توحيد العالم الإسلامي عن طريق توحيد الطرق الصوفية، ومما يرشح لذلك الإجماع على ورعه وتقواه، وعلى انطلاقه في الفقه من مذهب أبي حنيفة، وفي العقيدة من الأشعري، وعلى أن أحد ألقابه كان شيخ شيوخ الطرق الصوفية[5]... ثم أن هناك رأيا يقول انه فكرفي الثورة على الحكم قبل أن يفكر فيه تلميذه محمد أحمد المهدي، وقد صرح بهذا حين دعا شقيقه الشيخ البشير إلى حفل لختان أولاده، وكان أن جمع لهذا الحفل حشد كبير من المريدين والأتباع، بالإضافة إلى «الشيوخ الأقطاب» وحين رأى هذا الشيخ محمد شريف عرض على إخوانه الثورة على الأجانب، وتسلم أمور الحكم-وقد كان من بين الذين سمعوا هذا تلميذه محمد أحمد المهدي قبل أن يقوم بثورته-وقد كان هناك من أوجس خيفة من هذا وفي مقدمتهم شقيقه الشيخ عبد المحمود، وهذا التفكير لا يستبعده الشيخ عبد الله الطيب نور الدائم فقد قال «أن الأستاذ محمد شريف علم القراءة والكتابة والضروري من علوم الدين لعشرين ألفا من الأعراب شابوا على الجهالة، ولم يكونوا يميزون بين الحلال والحرام قبل اجتماعهم به.. ومقاصد هذه الطريقة بالأجمال أولا رفع الجهالة عن الأعراب»[6] ثم أن هناك روايات تروى عن تزيين «عبد الله التعايشي» له بالادعاء بالمهدية، بل أن هناك رواية عنه تقول إن محمد أحمد لما كثر أنصاره طلب منه أن يصدق مهديته وأن يكون وزيرا ومستشارا له في عام 1295هـ-1878م، ولكنه زجره ونهاه على حد تعبير نعوم شقير[7].. المهم أنه مما ذكرنا يتضح أن الشيخ محمد شريف كان مع فكرة الثورة لا فكرة المهدية[8]، فلما انتصرت فكرة

المهدية التزم جانب الحكومة، ووقف يساندها بقوة شعرا ونثرا، فقد كان يعتقد أنه من الطبيعي أن تعود الأمور إليه، إذا تحقق النصر على تلميذه القديم «محمد أحمد» خاصة وأن في شعره ما يشي بذلك:

وانصرني يا الله نصرا مؤزرا
على زمر الأعداء بالقهر والحسم
وأمرني يا مولاي بالعلم والتقى
مع العدل والأنصاف للناس في الحكم
وألهمني يا الله منك شهادتي
بموت سوى لا بقتل ولاسم [9]

ثم إنه بدأ يشكو ويتوجع من أمر ظهور تلميذه على نحو ما نعرف من قوله:

نشكو إليك الظلم منهم والألم
يا رب فاضر بهم بأصوات النغم
بيدك اليمنى على رؤوسهم
في حركاتهم، وفي جلوسهم
وفي قلوبهم، وفي أجسادهم
وفي أموالهم، وفي أولادهم
حتى يكونوا عبرة للنادي
كقوم موسى وكقوم عاد

وأهم من هذا كله تلك القصيدة الوثيقة التي-تحدث فيها عن نفسه، وقص قصته مع تلميذه محمد أحمد، ومع قضية المهدية.. الخ. وقد جاء في مقدمتها « .. أن محمد أحمد المتمهدي الدنقلاوي الحناقي[10] قد كان تلميذي وتابعي في طريق الإرشاد وخادمي في كل ما هو لازم (عشرون) سنة ولما سلك طريق السير وظهرت له معالم الخير وشم منه رائحة نفحات الذكر تجبر وتكبر بتزيين شياطين الأنس والجن، وكذا شدة الفقر ومرارة العسر (فادعا) دعواه الشيطانية وخالف أمري وخرج من يديه بالكلية» وقد بدأها بمقدمة تقول:

إلى الله ناصحت العباد بما أرى
وبينتها في الرسم بالنثر والشعر

لـــئـــلا أحـــاســـب أو ألام بـــكـــتـــمـــهـــا
لأنـــي أرى مـــا لا تـــرون مـــن الأمـــر[11]
ذلـــك صـــنـــدوق ومـــا فـــيـــه مـــن يـــدي
ومـفـتـاحـه عـنـدي ولـم يـدره غـيـري [12]
وان لـم أجـاهـر بـالـنـصـيـحـة أنـنـي
كمن يبصر الإعماء [13] يسقط في البئر
وحـــاشـــا وكـــلا أن أكـــون كـــمـــثـــلـــه
ولـــي مـــنـــزل الإجـــلال فـــي دولـــة الـــغـــيـــر
وتمـحـو ضـلال المـفـسـديـن بـهـديـه
وتـنـصـر لـلـشـرع الـشـريـف عـلـى الـنـكـر
وتـهـدي الـصـراط المـسـتـقـيـم بـنـورهـا
وتـوعـد أصـحـاب الـحـكـومـة بـالـنـصـر

ثم قص قصته مع تلميذه محمد أحمد:

لـقـد جـاء نـي فـي عـام «زع» لمـوضـع
على جبل السلطان في شاطئ البحر[14]
يـروم الـصـراط المـسـتـقـيـم عـلـى يـدي
فـبـايـعـتـه عـهـدا عـلـى الـنـهـي والأمـر
فـقـام عـلـى نـهـج الـهـدايـة مـخـلـصـا
وقـد لازم الأذكـار فـي الـسـر والجـهـر
وأفـرغ فـي نـهـج المحـامـد جـهـده
فـرقـيـتـه جـهـلا بـعـاقـبـة الأمـر[15]
أقـام لـديـنـا خـادمـا كـل خـدمـة
تـعـز عـلـى أهـل الـتـواضـع فـي الـسـيـر[16]
كـطـحـن وعـوس [17] واحـتـطـاب وغـيـره
ويـعـطـي عـطـا مـن لا يـخـاف مـن الـفـقـر
وكـم صـام كـم صـلـى وكـم قـام كـم تـلا
مـن الـلـه مـا زالـت مـدامـعـه تجـري [18]
وكـم بـوضـوء الـلـيـل كـبـر لـلـضـحـى
وكـم خـتـم الـقـرآن فـي سـنـة الـوتـر

لذلك أسقى من منهل القوم شربة
بها كان محبوبا لدى الناس في البر
وكان لدينا عيشه صدقاتنا
وخادمنا عشرين عاما من العمر[19]
إلى الخمس والتسعين أدركه القضا
على ما مضى في سابق العلم بالنشر
بصحبة شيطان من الجن آيس
وشيطان انس.. وافقاه على الضر[20]
ولا تنس داعي الاحتياج فثالث
فكم [21] ساقط في الشر من ألم الفقر
فقال: أنا المهدي، فقلت له: استقم
فهذا مقام في الطريق لمن يدري [22]
وخادعني بالقول: كالمهدي ابنكم
ومحسوبكم في الحب في عالم الذر
فقم بي لنصر الدين نقتل من عصى
فأنت لك الكرسي ولي دولة الغير
فقلت له: دع ما نويت فإنه
وتالله شر قد يجر إلى خسر[23]
وقال له الشيطان: بشر ولا تخف
فانك منصور على البر والبحر

وعلى كل فالقصيدة وثيقة هامة[24] سنقفز منها إلى موقفين هامين أولهما يتصل بالمظالم التي كانت واقعة على السودان من الحكم التركي:

وما أبت السودان حكم حكومة
إلى أن أتى ضعف المطاليب من مضر
كالثلث [25] والثلثين للمير وحده
وللشيخ والنظار أضعافه فادر
بضرب شديد ثم كتف مؤلم
ومن بعده الإلقاء في الشمس والحر

وأوتــاد ذي الأوتــاد مــن بــعــض فــعــلــهــم
وأشـــنـــع مـــن ذا كـــلـــه عـــمـــل الـــهـــر[26]
ولـــم يـــعـــلـــم الـــســـلـــطـــان مـــا هـــو كـــائـــن
ولا والـــيـــنـــا هـــذا المـــقـــيـــم فـــي مـــصـــر[27]
ومـــعـــلـــوم عـــن المـــســـلـــمـــين وغـــيـــرهـــم
عـــدالـــة مـــولانـــا ووالـــيـــه فـــي الأمـــر
وان عـــين الـــوالـــي إلـــى الـــبـــر حـــاكـــمـــا
يـــعـــاهـــده عـــهـــدا عـــلـــى الـــعـــدل فـــي الـــبـــحـــر
فـــيـــتـــرك الـــعـــهـــد الـــوالـــي عـــنـــد وداعـــه
ويـــأتـــي بـــجـــمـــع المـــال بـــالـــظـــلـــم والجـــور

أما الموقف الثاني فيتصل-على الرغم من هذه المظالم-بالولاء للحاكم والسلطان، فهو يقول في الحكومة:

لـــقـــد رفـــعـــت قـــدري وقـــالـــت صـــديـــقـــنـــا
مـــحـــمـــد شـــريـــف بـــاشـــا لـــه الأمـــر فـــي الـــقـــطـــر
فـــمـــا ضـــاع مـــن أمـــوالـــه نـــعـــطـــهـــا لـــه
كـــذا الـــديـــن واســـتـــحـــقـــاقـــة الـــشـــهـــر بـــالـــشـــهـــر
مـــكـــافـــأة مـــنّـــا لـــهُ كـــأصـــولـــنـــا
ونـــولـــيـــه مـــا شـــاء فـــي الـــبـــر والـــبـــحـــر
وعـــاديـــت أعـــداء الحـــكـــومـــة كـــلـــهـــم
إلـــى أن يـــفـــيـــئـــوا أو يمـــوتـــوا عـــلـــى الخـــســـر
ونـــفـــســـي وأتـــبـــاعـــي ومـــا مـــلـــكـــت يـــدي
عـــلـــى عـــهـــد ذي الآســـتـــانـــة مـــلـــك الخـــيـــر
ومـــوتـــي عـــلـــى هـــذا جـــديـــر وانـــه
لحـــفـــظ مـــقـــامـــي والـــديـــانـــة والـــبـــر

.. من هذا نصل إلى الدور الكبير الذي وقفه الشيخ محمد شريف نور الدائم-موقفا وشعرا-فنحن نرجح أن الثورة كانت في نفسه وحين صدّ عنها، وبرز موقف تلميذه محمد أحمد المهدي أخذ جانب الحكومة، لأنه لم يرض عن التحرك باسم المهدية، ولأنه قدر أن الحكومة ستنتصر وسيكافأ على هذا، ولكن الأحداث شقّت لها مجرى آخر.

نصل الآن للشيخ عبد المحمود نور الدايم شقيق الشيخ محمد شريف وحفيد الشيخ أحمد الطيب بن البشير، وقد تضاربت الآراء حوله فترة، ولكن ظهر كتاب جلا حياته تماما، هذا الكتاب هو «نفحة الرياض البواسم في مناقب سيدي الأستاذ عبد المحمود نور الدايم[28] ونعرف أن نسبه يمتد إلى العباس، وأنه درس العلوم الدينية على من حوله، وتفقّه على مذهب الإمام مالك، فلما رأى أن يكمل تعليمه في القاهرة رأى جدّه الشيخ أحمد الطيب في رؤيا يقول له: دع عنك هذا الخاطر واسلك طريق القوم، وبعد فترة شكا لجده عدم الفتح في الطريق فقال له «.. ادخل خلوة الأربعين ترقى إلى مقام المخلصين ويفتح عليك كل ما كان مغلقا عنك، فدخلها واجتهد فيها بأنواع الرياضة والذكر اجتهاداً كثيرا ما سمع لغيره، ولا اتفق لأبناء عصره، فانهالت على جنانه من سماء الفتح ديم الأسرار، وأشرقت على وجهه الشّريف شموس المعارف والأنوار، وقصدته الأخيار من جميع الجهات للانتظام في سلك طريقه القويم والتروّي من بحر فيضه العميم، فتميز بسبب ذلك في الكمالات على مشايخه فضلا عن أقرانه في عصر شبابه، وباحث العلماء في دقائق العلوم، ورجح عليهم في تحقيق المنطوق والمفهوم ونفث السحر الحلال بكلامه.. وقد رأى مناما ربّ العزة جل جلاله وسمعه يقول: يا ملائكتي جروه بمعنى اجذبوه لحفرة اللاهوت» [29] وهم يقولون إنه هدى كثيرين إلى طريقته السمانية، وبهر الكثيرين بعدد من الكرامات، وحين ظهرت المهدية وحققت الكثير من الانتصارات كاتبه المهدي، فقدم إليه مع كثير من مريديه، وعندما استقبله المدي قال له «.. إن سيد الوجود صلى الله عليه وسلم قال لي لا يتم أمرك إلا بوصول الأستاذ عبد المحمود إليك»[30]، وقد كان من الطبيعي أن تأخذ منه الحكومة موقفا بعد سقوط المهدية، ولكن أموره سويت معها، ومن ثم كان توغله في عالم التصوف، وقد ظهرت دعوته للتقليل من الطرق الصوفية، فكان أن كتب منظومة طويلة-شرحها بعد ذلك-في هذه القضية، وهي تبدأ بقوله:

ما قولكم يا علماء العصر

في حلق الذكر وذكر الجهر

على أنه تدفق بالشعر تدفقا حين قام برحلة إلى مكة للحج، فله قصيدة طويلة قالها بمجرد رؤيته للكعبة، وهي التي تبدأ بقوله:

كـــعـــبـــة الجـــود جـــودي بـــالمـــرادات
وواصـــلـــيـــنـــي بـــأمـــطـــار الـــفـــيـــوضـــات

وكان «كلما لحظ الكعبة رأى فيها شيئا من عجائب الأسرار وأنشد أبياتا» فمن ذلك أنه رآها متجلية.. فقال:

يـــا عـــروســـا قـــد تجـــلـــت
لـــقـــلـــوب الـــعـــارفـــين
وتجـــلـــت بـــجـــمـــال
دونـــه الحـــســـن المـــبـــين
هـــام قـــلـــبـــي فـــي ســـنـــاهـــا
بـــين جـــمـــع الـــعـــاشـــقـــين
كـــدت أن أفـــنـــى غـــرامـــا
عـــن جـــمـــيـــع الـــعـــالمـــين
أســـرت كـــلـــي بـــســـر
يـــفـــرح الـــقـــلـــب الحـــزيـــن
وأفـــاضـــت بـــعـــلـــوم
مـــن عـــلـــوم الأولـــين
ولـــنـــا فـــضـــلا أدارت
كـــأس خـــمـــر الأنـــدريـــن

ثم رآها مرة أخرى متجلية فأنشد:

عـــروس الحـــي هـــل لـــي مـــن وصـــال
بـــه يـــشـــفـــى مـــن الأســـقـــام بـــالـــي ؟
عـــروس الحـــي هـــل لـــي مـــنـــك ســـر
أســـر بـــه عـــلـــى مـــر الـــلـــيـــالـــي ؟
عـــروس الحـــي حـــيـــيـــنـــي. وأحـــيـــي
فـــؤادا هـــائـــمـــا لـــســـواك قـــالـــي
عـــروس الحـــي هـــل لـــي مـــنـــك عـــطـــف
بـــه تـــصـــفـــو أو يـــقـــاتـــي وحـــالـــي ف
يـــا لـــهـــفـــي، ويـــا أســـفـــي، وحـــزنـــي
إذا مـــا لـــم أنـــل مـــنـــك المـــعـــالـــي

وقد أعطى «الطريق» للبعض في مكة، وفي ذهابه وقفت الريح بالسنبوك[31]، فطلب منه الركاب أن يستغيث لهم، فارتجل:

يا سيدي يا رسول الله قد وقفت
عن المسير بنا السنبوك واللجج
أغث بريح سريع كي نزوركم
في روضة نورها أضوى من السرج [32]

وكان أن هبت الريح-كما يقال-بعد الإنشاد، وحدث أن تخاصم بعض الركاب، فأنشدهم قصيدة طويلة أولها:

قطعت الفلا والتيه أطلب سيدا
شفيعا لكل العجم والعرب سيدا

وعلى كل فقد كانت الرحلة زادا للشعر، وقد تدفق هذا الشعر تدفقا حين زار المسجد النبوي، وحين كانت تقام الأذكار، ثم كان وداعه للمدينة بتلك القصيدة التي أولها:

أهل المدينة أنتم أسيادي
وهواكمو في مهجتي وفؤادي[33]

وبصفة عامة فقد كان له تعلق خاص بالذات المحمدية [34]، وبالحماسة للطريقة السمانية على حد قوله:

على منهج السمان لازلت أنني
ومشورتي في الناس أن يتسمنوا
فلله من نهج إلى الله موصل
به القوم في السر المصون تمكنوا[35]

ويتقدم «العلم القدسي» على العلم الشرعي على حد قوله:

ما كل علم يستفاد من الدرس
وأعظم علم علمنا الكامل القدسي [36]

وقد يفد إلى الذهن سؤال حاسم يقول: ما موقف الشيخ عبد المحمود نور الدايم من الثورة المهدية ؟ وللإجابة على هذا نجد-كما ذكرنا-أن الشيخ سعى إلى المهدي، وأن المهدي رحب به، ولكن المراجع تصمت عن موقفه بعد ذلك، وكل ما تذكره أن كلا من الرجلين كان يحترم الآخر ويجله، فلما مات المهدي وقع في المحنة ذلك لأنه سعى به عند الخليفة عبد الله التعايشي

بأنه منكر للمهدية، وبأنه غير قابل لخلافته، بل ويدعو لنفسه، ومن ثم كان غضب الخليفة عليه، وكان أن أمر بأن يضرب ألفي جلدة في السوق، ولنترك الشيخ يعبر عن هذا شعرا بقوله:

فسجنت ثم ضربت ألفين بلا
مين بأسواط بحضرة أمة
والمسلمون جميعهم لما رأوا
هذا بكوا بالأعين الرأسية
.. من غير تلك فكم وقايع قد بدت
من تلك أعدائي لقصد أذية
كمثال قولهم لذاك خليفة ألا
هوا بأني قد برزت لبيعة[37]

ومهما يكن من شيء فشعر الشيخ يؤكد موقفه المعادي من المهدية بعد موت المهدي على نحو ما هو معروف من قصيدته التي يقول فيها:

فإذا سألتم عن الأمر الذي
فيه أجابوا بالجراءة والفتن
إن قلت قال الله قال رسوله
غضبوا لذاك وأظهروا سوء الحزن [38]

وعلى كل فقد ابتعد عن السياسة في ظل الحكم الذي جاء بعد المهدية بعد أن تخلص من الوشايات ضده، وانصرف إلى عالمه الصوفي، وبصفة عامة فعالمه الصوفي يدور حول شعر الحب الإلهي، وحول شعر الحب المحمدي، عل نحو ما نعرف من ديوانيه شرب الكأس، والروض البهيج في مديح نبي الرحمة والتفريج، وإذا كان في الديوان الأول يتجول في عوالم المتصوفة وبخاصة عالم ابن الفارض، فإنه انطلق من القضية التي تقول بأن الله أول ما خلق خلق نور نبينا محمد، ثم انتقل هذا النور إلى آدم، ثم تنقل في سائر الأنبياء، ولهذا لقب بخاتم النبيين، وعلى حد قوله «فالأنبياء جميعا من نوره»[39] ولنتناول ما ذكره عن النبي عليه الصلاة والسلام في كتابه مولد رياض الخيرات [40] فمن فهمه للنبي كانت صور المدح الكثيرة التي قدمها، يقول « .. وأصلي على من عقدت له النبوة في الأزمان الأزلية، قبل خلق كل شئ من المكونات، ودعا الخليفة عند إيجاد الأرواح وبدء الأنوار

إلى الوحدانية، كما دعاهم آخر في خلقة جسده الحاوي لجميع الكمالات، كما يشهد لهذا قول الله تبارك وتعالى من الآيات القرآنية: ﴿**تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا**﴾ وغيره من الآيات، وقوله صلى الله عليه وسلم من الأحاديث الصحيحة المروية، كنت نبيا وآدم بين الماء والطين، وفي رواية لا آدم ولا ماء ولا طين، فيالها من شهادات، فلا ريب أنه أنذر الخليفة أجمع وآمن الكل به في الأولية، كما آمن به في الآخرية(41).. الخ.

وبصفة عامة فقد وقف الشعراء كثيرا -وبخاصة من ينتمون إلى الطريقة السمانية- عند هذه القضية التي تتفق مع طبيعة التجربة الشعرية، والتي ينطلق وراءها الخيال بأقصى سرعة له.. خاصة وأن تجريد القضية على هذا النحو يساعد الخيال على الانطلاق.

7 نظرة تقييمية لهذا الشعر

بصفة عامة عرف هذا الشعر الأغراض القديمة من مدح ورثاء ووصف.. الخ وهي جميعها تدور في الفلك القديم، وبعبارة أدق نراها قد دارت في الفلك الذي دار فيه الشعر في الفترة الزمانية السابقة للمهدية أو المتزامنة معها، والملاحظ أن كل ما قيل في كل الأغراض كان متأثرا بعالم الصوفية، وبفترة الضعف في التراث العربي، وببعض اللمحات من عالم الشيعة، ثم لقد كان مما أضعف حركة الحياة-وبالتالي حركة الشعر-مخاصمة عالم العقل، فهو عندهم قاصر، ولنتأمل قول الشيخ حسين الزهراء:

أظل بذات الضال في جرع رامة
أصلي بظل الضال لي الظهر والعصرا
أرى مغرب الأغيار أعتم ظلمة
فهيهات هيهات انتقالي ولا بدرا
أراقب نور الشمس من كوة الحمى
طوال الليالي علني أن أرى الفجرا
أردد في تلك الظلول على الربا
تردد ذي حاج ليدركها شهرا
وإن هي لم تفتح مغلق بابها
عكفت بذاك الباب أطلبها عشرا

وأمكث إن لم ألق من جانب الحمى
رفيق بروق عند ذاك الحمى دهرا
وأرقب من فيض الرحيم مراحما
ونعماء من ضراء لا تنتهي حصرا
وأرضى بكوني ناسكا غير عارف
على حد علم العقل استعمل الفكرا
وان كان علم العقل غير موصل
إلى شرح علم السراد لم يزل قشرا(1)

وقد كانوا يحلقون أحيانا في بعض الأجواء العالية على نحو ما نعرف من تأثرهم بقصيدة ابن سينا في النفس، ولكنهم كانوا لا يستطيعون البقاء كثيرا، وقد يشوهون بعض الأفكار الرئيسية على نحو ما نعرف من تخطي الفكرة الرئيسية في قصيدة ابن سينا إلى فكرة المهدية في السودان على نحو ما نعرف من تلك القصيدة التي جاء فيها:

رسم ترقرق بالسنا فله الهنا
إذ ناله بعد الفناء بقاء
وكسته أثواب الرضا مهدية
تتلو المضرة أختها السراء
فغدا بها يختال في حلل البها
ولكل شيء شدة ورخاء
كم ارتعي من روض دانية الجنى
ثمر الرضا تدنيه لي وجناء
.. عاش ابن سينا جهده أوصافها
بشفائه فإذا هي العنقاء
دقت ورقت وارتقت في سكرة
بلمى شفاه دونها الصهباء
.. تلك التي جهد الزمان لوصلها
وله بذلك غدوة ومساء
حتى بألطاف المهيمن مكنت
أغراضه منها..يد بيضاء

فـغــدا بــهــا مــتــصــرفــا فــي أهـــلـــه
يــعــطــي ويمــنــح مــن يــرى ويــشـــاء
ودعـــا بـــهـــا لـــلـــه دعـــوة قـــاهـــر
ســمــعــت بــســر مــكــانــهــا الــعــظــمــاء
فــأجــابــهــا أهــل الــنــهــي فــي طــاعــة
ســفــكــت بــهــا قــبــل الــلــقـــاء دمـــاء[2]

وقد نجد إشارات خاطفة عن القول بنظرية الفيض الإلهي، وبأن له مظاهر دورية، وأن الأئمة فيهم قبس من الله ينتقل وراثيا، وقد يكنون بليلى وزينب وسعاد وغيرهن عن الحقيقة[3] وهم بصفة عامة لا يقدمون أشياء جديدة، ولا يتجاوزون أشياء قيلت، وإنما يرددون ما قيل بطلاقة، وقد يسيئون أحيانا إلى ما قيل على نحو ما مر بنا عند الحديث عن ابن سينا وعينيته المعروفة، وعلى نحو ما نعرف من تشطيرهم مثلا لقصيدة لسان الدين بن الخطيب[4] وبعض أعمال ابن الفارض.

.. على أن هذا يسلمنا إلى ظاهرة نراها في الشعر السوداني وهى أن الشعراء لم يقفوا ككبار الشعراء الصوفية عند الحديث عن الذات الإلهية محاولين الاتحاد بها عن طريق معارج يصعد فيها السالك، وعن طريق الشطح الموصل إلى مقام التوحيد، حيث ينكشف سر بين العبد الواصل والمعبود الموصول إليه، وفي ضوء هذا تتغير المفاهيم فيكون حديث العبد على لسان الحق[5] وعن طريق بعض القضايا الكبيرة كالحلول، والاتحاد، والوصول..فقد اكتفوا بالاقتراب من هذه العوالم.. وعلى كل فكما أنهم لم يضربوا بعيدا بجذورهم في أرض الشيعة، فانهم كذلك لم يضربوا بجذورهم في أرض الصوفية، وفي ضوء هذا رأيناهم ينصرفون إلى حد كبير عن عالم الألوهية إلى عالم النبوة، ومن ثم كانت لهم «الأوراد» التي تتحدث عن هذا العالم في نثر مصحوب بالشعر[6] أو في شعر على نحو ما نعرف من «القصيدة المبهجة للنفوس المعوجة» للسيد محمد عثمان الميرغني والتي تقرأ في السحر، والتي منها:

يـــا رب بـــهـــم وبـــآلـــهـــم
عـــجـــل بـــالـــنـــصـــر وبـــالـــفـــرج
.. وبـــنـــور الـــكـــون مـــنـــوره

مــخـــتـــارك أحـــمـــدنـــا الـــبـــهـــج[7]

وعلى نحو ما هو معروف من تقليدهم وتشطيرهم للقصائد المشهورة للبوصيري، وابن الفارض وعبد الرحيم البرعي، وعبد الغني النابلسي، وقد يطلب الشاعر إجازة المديح ثم يذكر اسمه وأسماء إخوانه، ثم يختم المدحة بالصلاة عليه وعلى آله، على نحو ما فعل الشيخ أبو القاسم أحمد هاشم[8]، ومن الملاحظ أنهم وقفوا عند الجوانب الخارقة في حياة النبي، ومن ثم كان حديثهم المتكرر عن «الإسراء» وعن «المعراج» وكيف كان بالجسم لا بالروح، على نحو ما نعرف من شعر الشيخ عمر الأزهري الذي منه:

وهـــو الـــذي جـــازت الجـــوزا مـــراتـــبـــه
حـــتـــى ارتـــقـــى لـــســـمـــو فـــوق كـــيـــوان

ونـــال، ثـــم دنـــا مـــنـــه وخـــاطـــبـــه
مـن قـاب قـوسـين أو أدنـى الـعـلـي الـشـأن

فـجـاء بـالخـمـس مـن خـمـسـين كـامـلـة
ثـلاثـة بـالـضـيـا.. والـلـيـل فـرضـان

وقد شرح هذه الفكرة باستفاضة الشيخ إبراهيم أحمد في القصيدة التي يقول فيها:

وأتـى خـلـيـلـك بـالـبـراق فـأيـقـظ الـ
جـسـم الـشـريـف لـنـيـل كـل نجـاح

فـطـفـقـت تـقـطـع لـلـفـدافـد قـاصـدا
رحـــبـــا لـــلـــرســـل مـــكـــون الأرواح

فـأقـام جـبـريـل الـصـلاة وأنـت كـنـ
ـت إمـامـهـم، ومـنـيـلـهـم لـربـاح

(وتـدل) مـعـراج المـواهـب والـعـلا
فـرقـيـتـه بمـعـونـة الـفـتـاح

حـتـى خـرقـت سـمـاء بـدر دجـنـة
فـلـقـيـت آدم والـد الأشـبـاح

ولـقـيـت فـي الـثـانـي ابـن مـريم، والـتـي
سـادت، بـحـيـى عـين كـل سـمـاح

وبـثـالـث لاقـيـت يـوسـف ذا الجـدا

والـيـمـن، والحسـن الـشـهـي الـضـاحـي

وبــرابــع لاقـيـت إدريـس الـعـلا

وبـخـامـس هـارون ذي الإفـصـاح

وبـسـادس مـوسـى الـكـلـيـم، وذا الـوفـا

والـهـدى والإيـعـاظ فـي الألـواح

وبـسـابـع لاقـيـت إبـراهـيـم مـن

عـمـر الـبـطـاح بـابـنـه الـسـيـاح

لازلـت تـخـتـرق الـعـلا حـتـى أتـيـت

بـسـاط قـدس جـل عـن أمـداح

فـرأيـت ربـك يـقـظـة مـن غـيـر كـيـف

بـعـد مـا خـاطـبـتـه بـكـفـاح

وتستمر القصيدة في ذكر الخوارق، و يعود إليها في قصيدة دالية، ومثل هذا ما فعله الشيخ عمر الأزهري(9).

وما نريد أن نصل إليه هر أن الشعر السوداني حاول الخروج من قضية «التجريد» إلى قضية «التشخيص»، وأنه حين لم يستطع-كما فعل كبار المتصوفة-أن يدور حول الذات الإلهية دار حول الذات المحمدية، وإذا كان قد قيل انهم لم يفعلوا مع النبي إلا مثلما فعلوا مع الممدوحين، وأن أول من فعل هذا كان «الكيت» مما جعله عرضة لانتقاد الجاحظ(10)، فإننا نرى أنهم في بعض شعرهم حلقوا بالرسول إلى الآفاق العليا، كما في شعر عمر الأزهري الذي يقول:

لـولاه مـا كـان الـوجـود ولـم يـكـن

مـلـك ولا مـلـك ولا أعـوانـه

بل لما كان آدم ولا نبي من الأنبياء، ولقد نجا الخليل بجاهه من النار، وموسى من فرعون، كما نجا بجاهه ذو النون من الغرق، وأيوب من المرض ولنتأمل قول الشيخ عبد المحمود:

وهـو الـذي فـوق كـل الـفـوق مـنـزلـة

وخـص فـضـلا بـسـر الـكـاف والـنـون

مـولـى المـعـانـي: أمـين الـلـه. خـيـرتـه

مــــن الأنـــــام ووضـــــاح الـــــبـــــراهـــــين[11]

على أن اكثر هذا الشعر قد عنى-على غير ما هو معروف في الشعر العربي المادح-بتقديم «الأنموذج الكامل» في حالة تجسيد، ولهذا تقابلنا في الشعر السوداني ظاهرة تحديد الأعضاء ومدحها على غير ما هو معروف في قصائد المدح، ولنتأمل قول الشيخ الطاهر المجذوب:

هـنـيـئـا لمـن قـد شـام وجـنـة أحـمـد
ومـتـع بـالـطـرف الـكـحـيـل المـسـهـد
بـنـور تجـلـى فـوق خـد لأحـمـد
سـلام عـلـى خـد الـنـبـي مـحـمـد
لخـد مـنـيـر أسـهـل ومـشـمـم
لـقـد كـان فـم الـهـاشـمـي مـحـمـد
ضـلـيـعـا وسـيـعـا ذا بـهـاء وسـؤدد
إذا افـتـر يـبـدي حـب در مـنـضـد
سـلام عـلـى فـم الحـبـيـب مـحـمـد
ولـنـتـأمـل قـول الـشـيـخ مـحـمـد المجـذوب:
سـلام عـلـى رأس الـرسـول مـحـمـد
لـرأس جـلـيـل بـالجـلال مـعـمـم
سـلام عـلـى وجـه الـنـبـي مـحـمـد
فـيـا نـعـم وجـه بـالـضـيـاء مـلـثـم
سـلام عـلـى طـرف الـنـبـي مـحـمـد
لـطـرف كـحـيـل أدعـج ومـعـلـم

ثم يستمر الشاعر في ذكر الأنف، والخد، والفم، والعنق، والصدر.. الخ فهل يكون هذا الشعر قد تطور في بعض مظاهره إلى تلك الطريقة التي تذكرنا بأغاني «سلام» في الحبشية، وهي تلك الأغاني التي يذكر فيها الشاعر الحبشي كلمة «سلام» في أول كل بيت، ثم يأخذ في تعديد أسماء أعضاء الممدوح عضوا عضوا على التوالي، منزلا عليها السلام [12]؟ مهما يكن من شيء فنحن لا نستبعد أن يكون وراء الظاهرة بالإضافة إلى قضية تجسيد الأنموذج هذا التراث الروحي الموجود في الأوراد السودانية بوجه خاص على نحو ما نعرف من «الثلث الثالث» في سر الأسرار للشيخ أحمد

الطيب بن البشير[13].

وقد ساعد على وضاءة هذه الصورة عشقهم للحقيقة المحمدية، واعتقادهم أنها في المتناول إلى حد ما، ولإكمال هذه الصورة كان قولهم بأنه النور الأزلي الموجود قبل آدم، والمتنقل بين الأنبياء، ولا نظن أن وراء هذا «عالم المثل» لأفلاطون، وإنما وراءه أفكار الشيعة التي ترى أن هذا النور يتوارث، وأفكار المتصوفة التي تقول بشيء يشبه هذا فيما يسمى القطب، وقد قيل أن «الحلاج» كان أول من تكلم عن نظرية أزلية «النور المحمدي[14]» الذي ظهر قبل الخلق، ولولاه ما كان الكون والوجود، وقد كان لهذه النظرية أثر في الشعر الإسلامي لأنها شقت للمدائح النبوية طريقا صوفيا خاصا وجد بغزارة في الشعر التركي، والملاحظ أن مدح النبي قبل ظهور نظرية «النور المحمدي» كان مدحا فاترا في الشعر العربي، ولكن حين ظهر هذا التيار تألق هذا الشعر، ومثل هذا التأثير قد ظهر في الأدب التركي بصفة خاصة.. المهم أن الشعر الصوفي في السودان-وبخاصة الطريقة السمانية-قد ركز على هذا الجانب في إبراز صورة النبي، ليس في الشعر فقط، ولكن في التصورات التي دارت حول قضية المهدية وحول محاولة إدخالها في عقول الناس ووجدانهم، ولقد كان المهدي في أول أمره سمانيا، ثم إن هذا كان موجودا في التراث الصوفي عند الطرق الأخرى كالشاذلية مثلا، مما يؤكد أن الشعر السوداني قد أحس في أوراده وأشعاره بهذه القضية بعمق[15] ولنتأمل ما جاء في كتاب من نافذة القطار للدكتور عبد الله الطيب، فهو يقول: نحن المسلمين الأفريقيين نحب العرب، وننسب أنفسنا للعرب من أجل محمد.

يتصل بالظاهرة النبوية التي تحدثنا عنها ظاهرة الحديث عن المهدية ممثلة في محمد أحمد المهدي ومحاولة رسم صورة مشخصة له باعتباره ممثلا للنبي، وقائما بهذه الدعوة التي قلبت الموازين في البلاد، وإذا كان الشعر العربي يحتفظ لنا في الغالب بصورة مجردة عن الممدوح يمكن أن تنطبق على كل الممدوحين، فان الشاعر السوداني هنا حاول أن يعطي «خصوصية» للشخصية التي يتكلم عنها، ويمكن القول بأن صورة محمد أحمد المهدي قد رسمت باللونين الأسود والأبيض، فقد رسمه أعداؤه كما رسمه محبوه، وقد مرت بنا تلك الصورة التي رسمها شيخه محمد شريف

له، حين أقام فترة عنده، وحين كان راضيا عنه، فقد قال في القصيدة التي يهجوه بها :

أقام لدينا خادما كل خدمة
تعز على أهل التواضع في السر
كطحن و«عوس» واحتطاب،وغيره
ويعطي عطا من لا يخاف من الفقر
وكم صام ؟ كم صلى؟ وكم قام ؟ كم تلا
من الله مازالت مدامعه تجري
وكم بوضوء الليل كبر للضحى
وكم ختم القرآن في سنة الوتر
لذلك أسقى من منهل القوم شربة
بها كان محبوبا لدى الناس في البر
وكان لدينا عيشه صدقاتنا
وخادمنا عشرين عاما من العمر
إلى الخمس والتسعين[16] أدركه القضا
على ما مضى من سابق العلم بالشر
بصحبته شيطان من الجن آيس
وشيطان أنس وافقاه على الضر
ولا تنس داعي الاحتياج فثالث
وكم ساقط في الشر من ألم الفقر
فقال: أنا المهدي فقلت له: استقم
فهذا مقام في الطريق لمن يدري

ثم يواصل رسم الصورة بظلال كثيفة محاولا تشويهه والتنفير منه، وعلى الجانب الآخر كان هناك من يرسم له أنموذجا مشرقا، فهناك القصيدة الرحبة التي تعرض فيها الشيخ الحسين زهراء لصلته بالمهدي، والتي أولها :

برح الخفا ما الحق فيه خفاء
وتوالت الايات الانباء

وهناك تلك القصيدة التي تصوره محفوفا بالملائكة والجن والأنس، والتي أولها :

الأمــــر جـــد والخـــطـــوب جـــداد
وجــنــود مــهـــدي الـــورى أمـــجـــاد

وهناك هذا العالم الروحي الذي أعطاه قياده، والذي خلطه بعالم الصوفية حين قال:

تـوجـه ومـنـه الـسـيـر.. سـرفـيـه تـنـهـي
إلـيـه فـلـولاه الـبـسـيـطـة بـلـقـع
وقـل عـنـه، واسـمـع لـطـف كـل مـقـالـة
يمــر بــهـــا فــي أفــق أذنــك أصــمـــع
وعـــايـــن، ومـــا فـــي الـــعـــين إلا أشـــعـــة
لــهـــا صـــورة مـــنـــه تـــبـــدت تـــشـــعـــشـــع
جـمـال بـريـق الـعـين مـن فـرط حـسـنـه
فـــيـــبـــهـــرهـــا..إذ بـــالجـــلال مـــقـــنـــع
تـــخـــر لـــه زهـــر الـــدرارى كـــواســـفـــا
وتـــنـــزل مـــن أوج الـــعـــلا وهـــي خـــضـــع
عـــلـــيـــه صـــلاة دون كـــيـــف، وعـــدة
وأســـنـــى ســـلام مـــا تـــلألأ يـــلـــمـــع

ومثل هذا قصيدته التي أولها:

بـنـفـسـي فـتـى بـالـشـمـس رأد الـضـحـى أزرى
ونـورا يـفـوق الـنـور مـن كـان والـبـدرا(17)

وقد جرى على هذا المنوال الشيخ إبراهيم شريف الدولابي، فقد قدم له أكثر من صورة منها:

هـو مـجـمـع الـبـحـريـن بـحـر شـريـعـة
طـام.. وبـحـر حـقـيـقـة مـسـجـور
ســر الــوجــود، وتــرجــمــان الحــضــرة
الـعـلـيـا، ومـظـهـر غـيـبـهـا المـسـتـور
والـلـه أكـرمـه بـطـيـب تحـيـة
يـحـذو بـهـا مـوسـى كـلـيـم الـطـور
قـد كـان قـوام الـدجـى مـتـبـتـلا

متواصل الإحسان غير فخور
طلق المحيا خاشعا متواضعا
كهف الفقير وجابر المكسور
وتفيض بالجود الكثير يمينه
أبدا بلا من ولا تكدير
ويبيت طاوي الكشح جوعا وهو قد
أعطى الكنوز بجمعها الموفور
لا يبتغي جاها ولا مالا ولا
عز الملوك، ولا ارتفاع الدور
ما همه إلا اجتذاب الخلق من
درك الشقاوة.. عميهم والعور(18)

ومثل هذا نجده عند الشيخ بن الطاهر المجذوب، والشيخ إسماعيل عبد القادر الكردفاني، والشيخ محمد عمر البنا.

ونجد مثل هذا عند الشيخ قريب الله أبو صالح (19):

شوقي إلى المهدى الإمام الهادي
زاكي الخصال الراكع السجاد
القانت الأواه في غسق الدجى
الخاشع الداعي إلى الميعاد
الزاهد التالي المراقب ربه
الخاضع المتواضع الجواد
ليث الليوث الفارس البطل الذي
يوم اللقا لم يخش من آساد
نور القلوب خبيرها وطبيبها
من داء حب المال والأولاد
والله ما شهدت عيوني مثله
مولى على ترك الحياة ينادي
لينيل سامعه الحياة بربه
بعد الجهاد وحمل خير الزاد
الآن قد عرفت مكانته لمن

فـــي قـــلـــبـــه شـــيء مـــن الإلحـــاد
وتمـــيـــزت لـــلـــمـــنـــصـــفـــين وهـــكـــذا
تـــتـــمـــيـــز الأشـــيـــاء بـــالأضـــداد
عـــلـــم.. إذا وعـــظ الـــقـــلـــوب تـــفـــجـــرت
وعـــلـــى الـــوجـــوه الـــرشـــد هـــام، بـــادي
مـــا هـــمـــه إلا رضـــاء مـــلـــيـــكـــه
وإقـــامـــة الـــصـــلـــوات والأوراد

ومثل هذا نجده عند الكثيرين.

.. ويجب ألا يفوتنا أن جانبا من شعر المهدية قد طمس بعد الهزيمة، فقد تصالح البعض مع العهد الجديد على نحو ما نعرف من اكبر شعراء المهدية محمد عمر البنا، الذي عين في منصب مفتش المحاكم الشرعية، وكان من الطبيعي أن يوارى بعض شعره الصارخ في العهد المهدي، ثم أن هناك من يقول أن الشاعر المسمى «أبو شريعة» الذي أوقف كثيرا من شعره على المهدية، قد أحرق بعد الهزيمة الجزء الخاص بمدح المهدي وخلفائه، واعتزل في قرية صغيرة حتى كان الموت، وقد يكون هناك صمت عن تسجيل فترة الهزائم كنوع من الرفض للهزيمة[20]، المهم أن نؤكد على أن الصورة الشعرية لهذه الفترة ليست كاملة الظلال والخطوط، ومع هذا فلا نعدم ما يؤكد أن الشاعر السوداني كان يبتعد إلى حد ما عن التجريد السائد في الشعر العربي، ومن آيات ذلك أنه قد شغل نفسه بالذات المحمدية بدلا من الحديث عن الذات الإلهية، ثم نراه يركز على «ذات البطل»المتمثل أساسا في «محمد احمد المهدي».. فلما مات في 22 يونيو عام 1885 حاول الخليفة عبد الله التعايشي أن يقوم بنفس الدور الذي قام به محمد أحمد المهدي، فقد قال «أنا جار على أثره ومقتف أثره»، وادعي أن الله يتجلى له ومعه النبي والخضر والمهدي. ولكن الشعر لم يساعده في هذا والخلاصة أن الحركة المهدية خلقت من السودان أمة موحدة تلتف حول مثل عليا مشتركة[21] وأن هذا الأثر قد ظهر في الشعر.. بالإضافة إلى إبراز نكهة خاصة بالشعر تتمثل في البساطة، والتركيز على الإيقاع، والاقتراب من المفاهيم الشعبية البسيطة، والاقتراب من اللغة المتداولة في أفواه الناس.

يلاحظ أن الشعر في فترة المهدية قد تخفف إلى حد ما من مظاهر

الصنعة ومن روح التكلف، ذلك لأنه كان هناك نوع من الأفكار قد نزل إلى الساحة، ثم أن المهدية قد علمت الناس أن ينظروا من جديد إلى الأشياء، وأن يتجاوزوا التبعية، ونحن نعرف أن الفكي[22] جلال الدين قال للمهدي: يا سيدي العلماء يسألون عن طريقنا وعن مذهبنا فما نقول لهم ؟ فقال: قل لهم طريقنا لا اله إلا الله محمد رسول الله، ومذهبنا السنة والكتاب، ما جاء من النبي صلى الله عليه وسلم على رقابنا، وما جاءنا من الصحابة أن شئنا عملنا به وان شئنا تركناه، وهو القائل «لو فرضنا أن كل قبيلة حفرت ثمدة [23] لتشرب منها، واعتادت أن تشرب منها زمنا طويلا، فجاء البحر وغطاها كلها فماذا يفعلون به ؟ هل يكتفون بأن يشربوا من البحر أم يبحثون وراء تمدهم ليشربوا منه»وفي ضوء هذا رأيناه قد غير أشياء كثيرة كانت تحكم الإنسان السوداني في هذه الفترة[24]، وكان من الطبيعي أن يتأثر بهذا الشعر، وفي ضوء هذا ظهر في هذه الفترة «الشعراء الملتزمون» بفكرة المهدية، وقد رأيناهم يصبون في المجتمع العديد من المعارف-فبالإضافة إلى المقتبسات من القرآن والسنة-رأيناهم يتعرضون لتاريخ السمرقندي، وللميراث، ولذكر أسماء الأولياء، و بعض مصطلحات الفقه، والتصوف، كما أنهم لم يغفلوا التشطير، والتضمين، والتأريخ، وذكر الأسماء، والبدء بالشطر والختم به، أو الختم بالصلاة على النبي وآله، بالإضافة إلى بعض المحسنات البديعية، ولكن هذا كله لم يكن بالوفرة التي كانت قبل هذه الفترة، ذلك لأن المجتمع كان مشحونا بعدد من القضايا التي تدور حول قضية المهدية، وعلى الرغم من عدم وضوحها تماما ومن اختلاطها بالفكر الشيعي، وبروح التصوف، إلا أنها شغلت الشعراء إلى حد ما عن الزخرفة وعن عالم البديع.

.. ولما كان هذا الشعر في الأصل يقوم على المشافهة وعلى الترنيم فانه كان مترعا بالموسيقا بصفة عامة، مع التركيز على ما يسمى «بالبديع اللفظي»، ومع الاهتمام بما يسمى «بالقافية الغنية» التي تعتمد على أكثر من حرف، وبما يسمى «بالتشريع»[25]، ثم أن هناك ظاهرة التكرار للتوكيد الموجودة بغزارة في الشعر السوداني كله، ولنتأمل مثلا قول الشيخ إبراهيم أحمد هاشم:

أنت الذي لولاك ما كان الكما

ل مـــشـــاهـــدا بـــعـــشـــيـــة وصـــبـــاح
أنـــت الـــذي لـــولاك مـــا اتـــضـــح الـــهـــدى
لـــلـــعـــالمـــين وراحـــة المـــرتـــاح.. الـــخ

وقد كرر صاحب الرشفات كلمة «أنت الذي لولاك» في العديد من أبياته[26]، و بصفة عامة فأكثر الشعر الذي ظهر في هذه الفترة كان من الكامل، والطويل، والبسيط، و يلاحظ بصفة خاصة أن أكثر المدائح كانت من الكامل والطويل[27].

والآن نريد أن نقف وقفة عند ظاهرة تكثيف الموسيقا في بعض الأشعار وبخاصة أشعار الصوفية، ولنقف مثلا عند بيتين للشيخ موسى ولد يعقوب الشهير بأبي قصة، فقد قال هذا العارف:

أأس أســـيـــســـا فـــي ســـي ســـي
وأنم نمـــيـــمـــا فـــي مـــي مـــي
وأؤك أكـــيـــكـــا فـــي كـــي كـــي
وأخـــفـــى الـــســـر لـــشـــيـــئـــان

فقد أحب الشعراء هذه الأبيات وخمسوها، وقد كان من هؤلاء الشيخ عبد المحمود نور الدايم فقد قال:

«حـــيـــي قـــلـــبـــي بـــكـــؤوس الحـــي
وســـمـــى قـــدري بمـــعـــانـــي الـــطـــي
وســـريـــت إلـــى الحـــرمـــين لـــكـــي
أأس أســـيـــســـا فـــي ســـيـــســـي
وأنم نمـــيـــمـــا فـــي مـــي مـــي
وبـــفـــضـــل الـــلـــه بـــلـــغـــت الـــزي
وبـــروح الـــروح مـــزجـــت حـــحـــي
ونـــظـــرت لـــغـــيـــب غـــيـــوب الحـــي
وأأك أكـــيـــكـــا فـــي كـــي كـــي

وقد كان هناك من فسر المفهوم منها بعالم الصوفية، ومن استبعد أن تكون الكلمات المبهمة قد وفدت من اللهجات الأفريقية المختلفة، ورأى أن هذا الأسلوب قصد به التنفيس عما في النفس من مشاعر تعجز عنها اللغة «.. ولكننا في خلال ذلك نقف مكتوفي الأيدي من هذه السيسأة

والكيكأة.. ولعله إذا توصل الباحثون إلى معنى لغوي لهذه التعبيرات من اللهجات الأفريقية أو غيرها فسوف يفتح ذلك بابا واسعا لعلاقة هذه الطرق بتلك البلدان، وهذا ما عجزت عنه بعض الشيء المراجع التي بين أيدينا[28]»، وقد رأيت القضية محلولة تماما في كتاب معروف اسمه نفحة الرياض البواسم في مناقب سيدي الأستاذ عبد المحمود نور الدايم، فقد تعرض مؤلفه الشيخ عبد القادر الجيلي لهذه القضية وفك رموزها ببساطة شديدة [*29]، و يبدو أن لهذه الظاهرة صلة بما نجده عند المتصوفة الذين يصلون إلى مرحلة «الجذب» فهم حين يصلون إلى هذه المرحلة يستعملون ألفاظا تبدو كأنها طلاسم ورطانات[30].

فالقضية من وجهة نظرنا تتصل بظاهرة أثيرة في الشعر السوداني وهي ظاهرة التوكيد، وإذا كان حمزة الملك طنبل قد رآها نتيجة لقلة المادة، وللعناية باللفظ دون المعنى، فإننا نراها في الشعر السوداني تأتي للتوكيد، ولشحن جو القصيدة العاطفي بالموسيقا، ولخلق الأثر النفسي المناسب لعالم القصيدة.. ولعل مما يدل على هذا أن ما يكرر يغلب عليه في الغالب أن يكون شيئا هاما.

إذا كنا قد وقفنا في الماضي عند الصوفي فقط باعتباره قيمة كبيرة في المجتمع السوداني، فان محمد أحمد المهدي جاء بشخصية «الصوفي الثائر»، ومن ثم كان انحياز الحكام والفقهاء إلى جانب الصوفي غير الثائر ومع أنه قد صادر على رجال الفقه ورجال التصوف[31] بعد ذلك، إلا أنه ظل محافظا على هذا الجانب الصوفي المقاتل بحكم تكوينه، وبحكم ثقافته، وبحكم هؤلاء الذين خرجوا لمناصرته من الزوايا والخلاوي، وغاية ما في الأمر انه أراد-أن صح التعبير-فقها ثائرا، صوفية مقاتلة، وقد نجح فيما أراد، وشد مشاعر السودانيين إليه فترة كبيرة، وكان من الطبيعي أن يتأثر الشعر بهذا، وأن يأخذ مسحة سودانية تختلف إلى حد ما عن القوالب الجاهزة في الشكل العربي والمضمون القديم، فهذه البساطة التي سادت الشعر، والتحول إلى ما سميناه بالذات المحمدية، والذات البطولية كان أثرا من آثار الثورة المهدية، بالإضافة إلى التركيز في الشعر على الظواهر الصوتية «فقد كان المهدي متصوفا والصوفية عرفوا بأنهم من أصحاب القلوب، ومن أصحاب الذوق، يتحركون مع نسمات القرب-بكسر القاف-

وتهزهم النغمات الناعمة اللطيفة، و يستهويهم الصوت الجميل، واللحن الطروب فيتصورون جلال الله في كل لحن جميل، ثم انه من المعروف أن المهدي كان ناقدا للشعر، وموجها للشعراء بتوخي الصدق، وعدم المبالغة في مدحه، كما أنه رفض الإسراف في ذم الأعداء، والتنكيل بأسمائهم في القصائد، ودعا إلى التلقي المباشر من الأصول[32] على أن هناك من يشجب الشعر الفصيح المهدي و يقدم عليه الشعر الشعبي-وذلك لصدقه وأمانته وأحاطته وتسجيله لأحداث الثورة تسجيلا دقيقا-ثم أنه يؤكد أن المهدي أسبغ على الشعر الشعبي رعايته، وكان ميله إليه أوضح من ميله إلى الشعر الفصيح.. ومهما يكن من أمر فما نريد أن نؤكده هو أن الشعر في هذه الفترة قد اكتسب نفحة سودانية أصيلة.. وانه قد اقترب من دائرة الصدق مع النفس.. ومع الشعر، ثم وهذا الأهم نراه قد نجح في تقديم «الأنموذج الإنساني» الممثل في المهدى، بعد أن كان نجاحه من قبل واضحا في تقديم «الأنموذج النبوي» وإذا كانت النماذج في الأدب تؤخذ من مصادر متعددة كالأساطير والتاريخ، فان «الأنموذج» الذي نجح الشعر السوداني في تقديمه كان محاطا بالقداسة الدينية.

8 الحكم الثنائي ١٨٩٩: ١٩٢٤

بعد أن صفيت المهدية في عهد الخليفة عبد الله التعايشي، أقيمت صلاة على روح «غوردون»، ورفع «كتشنر» العلم الإنجليزي لأول مرة إلى جانب العلم المصري على سراي الخرطوم، وهكذا مر هذا الأمر على الناس ظاهريا «كأنه أمر عادي»[١]، وقد كان هذا إيذانا بوضع البلاد تحت الحماية البريطانية، ثم كان «الوفاق» الذي يؤكد أن السودان سيحكم من إنجلترا ومصر، وكان تعيين كتشنر-سردار الجيش المصري-حاكما عاما على السودان في 1899/1/19، وقد عمل ببطء على انحسار دور مصر هناك، إلى حد أنه لم يبق لمصر-على حد قول عدلي رئيس الوزراء-إلا التبليغ بما يصدره الحاكم «مجرد تبليغ»، فإذا قيل لهم أن السودان كان ملكا لمصر قالوا إنه كان لهم دور في إعادة فتحه، وقد قاوم السودانيون بعدد من الثورات هذا النظام القائم، وقد رأوا أنه من المفيد أن يتعاطفوا مع المصريين، وقد ظهر هذا التعاطف واضحا مع الدور الذي يقوم به مصطفى كامل[2]، ثم كبر هذا التعاطف في الحرب العالمية الأولى، ثم كان أن هزت

ثورة 1919 مصر والسودان هزا عنيفا[3]، فكانت هناك مظاهرات، ومنشورات، وكانت هناك قصائد ترسل للنشر في الجرائد المصرية، على نحو ما نعرف من القصيدة التي أرسلت بدون توقيع لينشرها الدكتور محجوب ثابت في الأهرام[4].

ومن المعروف أنه تكونت في هذه الفترة جمعية الاتحاد السرية وقد أخذت على عاتقها الاتصال ببعض المثقفين في مصر-كالدكتور محجوب ثابت-وبعض الشخصيات المهمة-كالأمير عمر طوسون-كما أنها تفننت في كتابة المنشورات التي تدين الإنجليز، وفي تعليقها في العديد من الأماكن، وفي إظهار الانشقاق بكل الطرق على نحو ما نعرف من قيام عضوين من أعضائها-هما توفيق صالح جبريل وعابدين عبد الرؤوف-بإزالة مظاهر الزينة التي أقيمت بمناسبة عيد ملك الإنجليز[5]، وحين وضع الإنجليز يدهم على هذه الجمعية آثر البعض السلامة، وانضم البعض إلى جمعية اللواء الأبيض وعمل بإخلاص تحت لوائها، وقد كان معنى هذا الخروج من جمعية مسالمة يسيطر عليها الشعراء، إلى جمعية مقاتلة يقف على رأسها ضابط هو المجاهد «علي عبد اللطيف». لقد احتوت هذه الجمعية مفاهيم ثورة 1919 في مصر، ورأت أنه لا خلاص من الإنجليز إلا بالاتحاد مع مصر، ومن ثم كان إصدارها في عام 1922 منشورا ثوريا سمته «مطالب الأمة المصرية» وكان أن قبض على المجاهد «علي عبد اللطيف» في يونيو 1922 «وحكم عليه بالسجن عاما، ثم انه مهد لثورة 1924 أن سعد زغلول حينما تولى الوزارة عام 1924 دعا إلى المفاوضات، فافترض بعض السودانيين أن الإنجليز قد يتساهلون في شيء من أمور السودان لصالح مصر، وكان أن تكون رأي يقول: أن السودان يجب أن يظل تحت رعايتهم وحدهم، ثم تدافعت الأحداث، ووقعت بعض المظاهرات التي هتف فيها بحياة مصر وسقوط إنجلترا، وقد كان وراء هذا جمعية اللواء الأبيض التي اتخذت لها في اليوم الثالث والعشرين من يونيو عام 1924 علما مكونا من قطعة بيضاء من القماش عليها خريطة نهر النيل، وعلى جانبها الأيسر هلال، وعلى جانبها الأيمن كلمة «إلى الأمام» وقد بلغ عدد أعضاء الجمعية في هذه الفترة نحو ألفين من خيرة المثقفين، ولكن الإنجليز سرعان ما قبضوا على المجاهد علي عبد اللطيف والبارزين من أعضائها[6]، ثم كان دخول طلاب

المدرسة الحربية في جانب المظاهرات في يوم السبت الموافق 9 أغسطس 1924، وذهابهم إلى السجن لتحية علي عبد اللطيف، وحين وضعوا في السجن اشترك معهم في الثورة-داخله-أعضاء جمعية اللواء الأبيض، وكان أن حكم على «علي عبد اللطيف» بسبع سنوات أخرى، ثم كان خروج «أورطة» السكة الحديدية بعطبرة في مظاهرة اصطدمت بالإنجليز، وجاش الغليان في السودان، ولكن الغليان قد توقف حين اغتيل بالقاهرة السير لي ستاك في 19 نوفمبر 1924، وكان أن أصدر الإنجليز البيان المشهور الذي جاء في النقطة الخامسة منه «أن تصدر في خلال أربع وعشرين ساعة الأوامر بإرجاع جميع الضباط المصريين، ووحدات الجيش المصري البحتة من السودان مع ما ينشأ عن ذلك من التعديلات التي ستعين فيما بعد»[7] وكان أن استقال زغلول في 23 سبتمبر عام 1924، وقامت بعمليات التنفيذ-على خير وجه-وزارة زيور باشا[8] وفي فترة إخراج الجيش المصري أعلن القائمقام «أحمد رفعت بك» أنه لن يرحل، وقد هز هذا الموقف السودانيين، فتوجهت يوم الخميس 27 من نوفمبر 1924 فصيلة من الكتيبة الحادية عشرة السودانية بضباطها ومعداتها لمعاونة الجيش المصري على البقاء، وكانت معركة حامية انتصر فيها الإنجليز على هذه الكتيبة، وكان أن فرغ السودان من الجيش المصري، وخلا الجو للتيار المناصر للإنجليز[9].

في هذه الفترة-القصيرة نوعا ما-عمل الإنجليز بقدر الإمكان على تفريغ السودان من الوجود المصري، وقد بدءوا ببقايا التعليم المصري، وبمنع السفر للتعليم في القاهرة، وفي الوقت نفسه سمح بعدد من المدارس للمرسلين النمساويين، والمرسلين الأمريكان، كما كان الترحيب واضحا بالبعثات التبشيرية، وبإرساء قواعد نوع من التعليم خاص بتسيير دفة الحياة، وبوضع لبنات في صميم الحركة التعليمية هناك[10] والى جانب هذا كانت حركة الصحافة والطباعة بطيئة وفي خدمة النظام القائم، فإذا كانت أول صحيفة صدرت في السودان هي «الغازيته السودانية» عام 1899، فان أصحاب جريدة المقطم أعطوا امتيازا بنشر جريدة في الخرطوم بعنوان «السودان» ومع أنه برزت بعض الجرائد ثم انطفأت بسرعة إلا أن جريدة «رائد السودان» التي قامت عام 1909 ثبتت فترة، وعملت على صرف الناس عن اتباع الملكية في مصر بدعوتها إلى «الجمهورية الاشتراكية»، بالإضافة إلى جريدة

«حضارة السودان» التي كانت تحمل على المنادين بالانضمام إلى مصر، كما أنها سخرت من ثورة 1919 وقست على رجال جمعيتي الاتحاد واللواء الأبيض، وأشادت في كل أعدادها بالإنجليز.. ولما كان الناس مرتبطين بالأزهر، فقد أنشئوا لهم «المعهد العلمي»، كما حولت البعثات إلى بيروت.. وفي الوقت نفسه أخذ البعض ببعض العادات الاجتماعية الجديدة.

٩ الشعر في هذه الفترة

يمكن القول بأن هذا الجيل قد ورث مرارة الهزيمة، صحيح أن بعضه كان على خلاف ظاهر أو باطن مع المهدية ولكن ضياع هذا العالم الذي يحتفظ بالعديد من الملامح السودانية قد أحزن الكثيرين « .. أن هزيمة المهدية لم تكن حدثا، ولا هزيمة عادية، ولم تكن مجرد هزيمة لثورة واستبدال نظام بنظام، ولكنا كانت تعني انهيار عالم كامل من الأحلام المقدسة التي شاءها الشعب وآمن بها .. أحلام أقل ما فيها أن الحق سينتصر ويغمر العالم، وأن العدل سيسود الدنيا، وأن الخير سوف يفيض، وأن الذئب في النهاية سيرعى مع الغنم، والى جانب ذلك كان هناك الوعد الطموح بأن السودانيين سيكونون أنصار الله في العالم وحملة رسالته إلى الأقاصي البعيدة، وأن لهم السيادة في الدنيا والشهادة في الآخرة، ثم فجأة انهار كل شيء.. بطل السحر وأفرغت المعجزة من كل محتوى، وسارت جيوش «الكفرة» فوق جثث الشهداء، وعلى أنقاض القبة المقدسة، وانهزمت الفئة المؤمنة التي لم يكن مقدرا أن تنهزم»[1] قد يكون محمد المكي إبراهيم قد بالغ في ألوانه وهو يرسم هذه اللوحة، ولكن الحقيقة تؤكد أن عالم المهدية كان مرفوضا

عند البعض وبخاصة عند المثقفين، وقد ألفت في الرد على القول بالمهدية رسائل متعددة شاعت بين الناس[2].

وإذا كان موقف الشاعر هو الذي يهمنا من كل هذا فان الملاحظ أن أحدا في هذه الفترة المبكرة لم يعارض من تحتل السيف المشهر، لقد واكب البعض النظام الجديد، بل لقد هلل له على نحو ما هو معروف من الشيخ علي الشامي الذي حفظت له قصيدة طويلة في فتوح دنقلة تظهر الفرح بهذا الغزو، ويؤرخ بها لعام 1314هـ، وقد جاء فيها:.

بشرى لجيش بالفتوح (لقد ظفر)
بالصبر من زمن فبشر من صبر
كم بالتأني نال ذونيل وكم
نجحت مساعي من إذا أعطى شكر
.. حتى رأى ملك البلاد بأنه
لاشيء غير الحرب عجل وابتدر
حشد الجنود ولا وعود تعيقهم
إلا ملاقاة العدو بما أصر
.. بقيادة الشهم اللوا سر دارنا
رجل السياسة في الحروب الكتشنر
.. قل للخليفة فز بعمرك ناجيا
من قبل أن يأتي زمان لا مفر
طلب البلاد مليكها فترحلوا
هيهات ضرب السيف من وخز الإبر
.. تبا لقوم بالسفاهة قد عصوا
أمر المليك وخالفوا ما قد أمر
كم قد طغواكم قد بغواكم أسرفوا
كم ذبحوا كم جرموا.. وهلم جر [3]

وقد كان هناك من مدح الإنجليز، وأعجب بهم، عل نحو ما نعرف من القصيدة التي ألقاها «عبد المجيد أفندي وصفي» أمام «الملك جورج الخامس» حينما زار «بورتسودان» في 17 من يناير 1912، فقد قال فيها:

مـا الـشـمـس مـشـرقـة بـصـحـو نـهـار
والأفـق فـيـه سـوافـر الأقـمـار
والـروض حـين تـفـتـقـت أكـمـامـه
وتـضـوعـت بـعـواطـر الأزهـار
يـومـا بـأبـهـج مـن مـديـنـة إذ غـدت
تـخـتـال بـين مـهـابـة ووقـار
.. رب الجـلالـة «جـورج» مـن تـعـنـولـه
كـل المـلـوك بـذلـة وصـغـار
هـو شـبـل «أداوردا» الـعـلا وحـفـيـد مـن
بـين الأنـام لـهـا عـظـيـم فـخـار
«فـكـتـوريـا»ذات المـآثـر والـتـي
شـهـد الـوجـود بـفـضـلـهـا المـدرار
وافـيـت لـلـسـودان سـعـدا طـالـعـا
فـغـدا بـزورتـكـم رفـيـع مـنـار
أولـيـتـه نـعـمـا غـزارا قـبـل أن
تـأتـي.. قـد أردفـتـه بـغـزار والـشـاعـر

عبد الله البنا يذكر إعجابه بالأم الإنجليزية وبما أنجبت.. ثم يقول عن الإنجليز:

مـلـكـوا الـبـسـيـطـة شـيـدوا عـمـرانـهـا
نـشـروا الـسـلام فـقـربـوا وتـقـربـوا
رفـعـوا مـنـار الـعـلـم فـي أوطـانـنـا
وجـروا عـلـى مـا يـرتـضـيـه ودربـوا

وهو لا يخفي، إعجابه باللورد اللنبي فيقول فيه حين زار السودان:

إذا مـا قـيـل قـد أوفـى «الـلـنـبـي»
تـطـامـنـت الأمـور الجـامـحـات
وان قـلـوبـنـا المـلأى سـرورا
بـقـربـك فـي المـفـاخـر طـامـحـات (4)

ولحمزة الملك طنبل قصيدة طويلة في هذه الزيارة مليئة بالتمجيد والفخر بهذا الفاتح:

فـــاتح الـــقـــدس.. قـــد تـــغـــمـــدك الـــلـــه

بـــــروح المــــهـــــيــــمـــــن قــــدســــي

لـــــك عــــزم مـــــن الــــقـــضـــــاء وذكـــــر

مـــشـــرق فـــي الـــزمـــان إشـــراق شـــمـــس

جـئـت تـسـتـعـرض الـصـفـوف احـتـفـاء

لا لحــــــرب بمــــــدفـــــع أو بــــتـــــرس

يـــا أجـــل الـــقـــواد فـــي الحـــرب شـــرف

فــــوق عــــين مــــن الــــبــــلاد ورأس

.. فـأسـعـدونـا فـقـد شـقـيـنـا بـجـهـل

مــطــبــق كــالــدجــى وفــقــر وبــؤس

.. وأقــيــمــوا فــنــحــن أحــوج مــنــكــم

لــــيــــد تــــعــــمــــر الــــبــــلاد ورأس

وأســنــدوا الحــكــم لــلــكــرام فــمــنــا

فــي الــهــوى والــضــلال عــالــم رجــس

وخــــذونــــا بــــرأفــــة وبــــبــــأس

يــــثــــمــــر الحــــكــــم بــــين لــــين وبــــأس

عـــشـــت يـــا لـــورد لـــلـــبـــلاد وعـــاشـــت

أمـــة مـــتـــعـــت بـــأفـــخـــم كـــرســـي

ولـــيـــدم بـــيـــنـــنـــا الـــتـــعـــاون، والإخـــلاص

والــــود.. وهــــو أطــــيــــب غــــرس

ثــم لــو تــنــطــق الــبــلاد لــقــالــت

ألـــف شـــتـــان بـــين يـــومـــي وأمـــســـي(5)

ومثل هذه النبرة نجدها عند الشاعر علي أرباب، ونجد قصيدة طويلة للشيخ عبد الله محمد عمر البنا يتحدث فيها عن رحلة السيد عبد الرحمن المهدي إلى لندن وكيف أنعم عليه ملك الإنجليز جاء فيها:

ويـمـمـت مـلـكـا طـال بـالـعـدل مـلـكـه

وكـــفـــاه يـــوم الـــبـــذل والـــفـــضـــل أطـــول

.. إلـى أن وضـعـت الـرحـل فـي ظـل مـاجـد

مــلــيــك مــهــيــب لــلــرغــائــب يــبــذل

فجاد وكان البذل منه سجية
وأيقن أن الشكر بالملك أجمل
وصاغ لك «النيشان» قربا وحلية
وان كان صاغته الفضائل أول
.. ورتلت آي الشكر حفظا ولم تزل
لذكرى امرئ يوليك خيرا ترتل
وقدمت سيفا حالف النصر حده
إذا سل قام الدين شكرا يهلل
فحاز لدى نفس المليك مكانة
تخبر أن الفضل عندك يقبل
كذا الحر لا يدفعه بطش وشدة
ولكنه باللين والرفق يعقل
ورد عليك السيف لا عن زراية
ولكن جمع السيف بالسيف أشكل
فخذه من المولى حباء فإنه
حباء الذي عن أمره ليس بغفل (6)

ومثل هذه النبرة نجدها عند بعض الشعراء(7) بالنسبة للإنجليز.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فأننا لا نجد الشعر يقف مثل هذه الوقفة عند مصر، ذلك لأن الانجليز كانوا قد جمعوا في أيديهم أكثر الخيوط، ولأن الإنجليز ما كانوا يرضون عن أحد يظهر المحبة لمصر، على أن بعض الشعراء كان «يخاطر» وكان ينتهز فرصة للحديث، على نحو ما نعرف من الشاعر عبد الله حسن الكردي الذي قال في وداع أحد أصدقائه المنقولين من حكومة السودان إلى الجيش المصري، وقد جاء في هذه القصيدة الطويلة:

يا راحلا يزجى لمصر ركابه
كم في الكنانة للنزيل جوار
سلم على قوم هناك أماجد
لهم الفضيلة والكمال شعار

أهــرامــهــم فــوق الــســمــاء مــكــانــة
وهــم مــيــامــين الــورى أخــيــار
فــي كــل جــامــعــة لــهــم نــشء ســمــا
بــذكــاء فــكــر طــار مــنــه شــرار
.. أنــي يــحــيــد الــفــضــل عــن أوطــانــهــم
والــفــضــل لــيــس لــه ســواهــم دار
قــوم لــهــم أدب الــقــريــض بــذمــتــي
وهــواهــم بــجــوانــحــي ديــار
نــســبــي بــهــم شــعــر نــظــمــت عــقــوده
والــشــعــر فــي عــرف الــكــرام وقــار
عــرب لــهــم بــالــضــاد نــطــق مــعــرب
مــا فــيــه مــن عــوج الــلــســان عــثــار
أنــي لأذكــرهــم بــقــلــب واجــد
مــاكــر لــيــل أو تــلاه نــهــار [8]

وبصفة عامة فقد شغلوا بأمور الثقافة في مصر وابتعدوا عن السياسة، وقد كان جل اهتمامهم منصبا على الشعر فحين جاءت أول طائرة إلى السودان في عام 1914، وكانت تركية واسمها «أدرميد» قال أحمد شوقي فيها بيتين فطلبت جريدة رائد السودان من الشعراء تشطيرهما فتسابق الشعراء وكان منهم الشاعر أحمد محمد صالح، ونجد للشاعر نفسه حديثا عن شوقي في قصيدته التي ألقاها بنادي الخريجين عام 1920، وقد جاء فيها:

شــوقــي.. أجــدت فــلــيــت شــعــر
ي مــا تــقــول وتــفــعــل
أتــغــزلا أفــديــك مــن
مــتــرنم يــتــغــزل
قــل لــي أهــذا مــا ابــتــكــرت
أم الــرحــيــق الــســلــســل

وقد ضمن الشعراء محمود أنيس، وعثمان هاشم.. الخ شعرهم بشعر شوقي بصفة خاصة [9] وقد التفت حمزة الملك طنبل لعباس محمود العقاد

في شعره ونثره، وقد كان مما كتبه في هذا المجال قصيدة طويلة بعنوان «بين الله والطبيعة في جنينة قصر الملا بأسوان» [10] وقد بدأها بقوله:

نمـــا عـــلـــى أرضـــهـــا الـــشـــجـــر
قـــد جـــرى تحـــتـــهـــا الـــنـــهـــر
وشـــيـــدت حـــولـــهـــا بـــيـــوت
بـــهـــا الـــه الـــورى ذكـــر
ولـــلـــتـــواريـــخ ذكـــريـــات
تحـــف مـــن حـــولـــهـــا غـــرر
فـــأنـــت مـــســـتـــعـــرض صـــفـــوفـــا
تمـــر أطـــيـــافـــهـــا زمـــر
تـــرى بـــهـــا الـــتـــين وهـــو غـــض
و فـــوقـــه حـــيـــة ذكـــر
جـــنـــيـــنـــة حـــدهـــا الـــبـــصـــر
كـــجـــنـــة الخـــلـــد فـــي الـــكـــبـــر
وقـــارهـــا أيـــخـــلـــب الحـــجـــي
وحـــســـنـــهـــا يـــخـــلـــب الـــنـــظـــر
يـــســـحـــرك الـــصـــبـــح إن ســـفـــر
والـــلـــيـــل فـــيـــهـــا إذا اعـــتـــكـــر

أما الذي غنى بمصر غناء حميما طوال حياته فقد كان الشاعر محمد سعيد العباسي-ابن الشيخ محمد شريف-فقد التحق في مصر بالمدرسة الحربية عام 1899، وظل طوال حياته يذكر مصر وأساتذته بها، وديوانه حافل بالحديث عنها[11]، وبرغبته في اللحاق بمصر فهو يقول لبني قومه:

هـــل شـــدتمـــو يـــا قـــوم
أســـطـــولا عـــلـــى الـــبـــحـــر مـــخـــر
أو طـــائـــرات بـــالـــســـمـــا
تـــرمـــي الأعـــادي بـــالـــزبـــر
أو حـــبـــرت أقـــلامـــكـــم
لـــنـــا مـــن الآي الـــغـــرر

كـــمـــــثـــــل شـــــوقـــــي إذ شـــــدا
والـــــرافـــــعـــــي إذ نـــــثـــــر
أن لـــم تـــكـــونـــوا هـــم فـــمـــا
هـــذا الـــتـــعـــالـــي والـــصـــعـــر ؟ [12]

على أنه يأخذ موقفا حاسما حين يهاجم «القومية السودانية» لما اشتم منها أنها دعوة للانفصال عن مصر تحت شعار «السودان للسودانيين.. الذي أوصى به المستعمر وأملاه»[13]

ومــا تــريــدون مــن قــومــيــة هــي فــي
رأيــي الــســراب عــلــى الــقــيــعــان رقــراقــا
طــلــبــتــم الــغــرض الأســمــى بــتــســمــيــة
كــأن بــالاســم تحــريــرا وإعــتــاقــا
لــقــب أو اســم أقــام الــغــافــلــون لــه
ســوقــا ... فــأنــشــأت الأغــراض أســواقــا
ومــا أرادوا يمــين الــلــه إذ وضــعــوا
جــمــع الــشــتــات ولا لــلــحــق إحــقــاقــا
فــمــحــصــوا الــرأي لا تــرضــوا بــيــانــعــه
وان أصــاب هــوى مــنــكــم وان راقــا
لا تــخــدعــوا أن فــي طــيــات مــا ابــتــكــروا
مــعــنــى بــغــيــضــا وتــشــتــيــتــا وإرهــاقــا
لــيــصــبــح الــنــيــل أقــطــارا مــوزعــة
وســاكــنــو الــنــيــل أشــيــاعــا وأذواقــا

اندلعت في هذه الفترة ظاهرة الالتفات إلى الينابيع الإسلامية الأولى، ولقد كانت تتمثل أساسا في عهد النبوة، وكان ما يشغل الشعراء منها الحديث عن النبي، وكانت وقفتهم الكبيرة تتركز عند الاحتفال بالمولد النبوي، وعند الاحتفال بالعام الهجري، وقد أومأ إلى هذا الشاعر محمد مهدي مجذوب حين قال «.. الشعر عند مشايخي موهبة من الله، ويقتضي القيام بشكرها أن تقتصر على النبويات، والابتهالات، ولابد أن يكون الشعر صالحا للغناء في ليالي المديح، ويشترك الناس فيها جميعا بنية صادقة، والإيقاع والوضوح شرط فيه»[14]، وفي الحقيقة لقد كان هذا الشعر يحتشد له كثير

من الشعراء ومن المستمعين، وكان وسيلة مشروعة لإثبات عروبتهم وإسلامهم في مواجهة عمليات القهر السائدة، وفي الوقت نفسه كانوا «يسقطون» أشياء كثيرة من نفوسهم على هذه القصائد، وإذا كان أسلوب التراجع ليس غريبا على الشخصية السودانية على نحو ما نعرف مثلا من قضية المهدية- وليس غريبا على الشعوب المظلومة بصفة عامة-فإننا نرى أن الشعراء في ظل المناسبات المشروعة قد عملوا على الالتقاء بالناس في العديد من الأماكن التي يجيء في مقدمتها ساحات الموالد، و يندر أن نجد شاعرا في هذه الفترة لم يقل في هاتين المناسبتين-بل لقد أسهم في هذا بعض المسيحيين-[15]، وقد اشتهرت في هذا المجال قصائد عبد الله البنا[16]، وقصائد عبد الله عبد الرحمن، وقصائد عثمان هاشم، والملاحظ عليها أنها تسبح في أجواء دينية، وأنها تلفت المسلمين إلى ماضيهم، وتباهى بهذا الماضي العالم، على أنه كان هناك من كان يجعل المناسبة إطارا عاما ليدلي برأيه في السياسة، على نحو ما نعرف من الشاعر عبد الرحمن شوقي الذي بدأ قصيدته في المولد النبوي بقوله:

نديمي من سلاف الخمر هات
وشنفني بذكر الماضيات
أترضى أن أضام وأنت حر
وتسمح أن تلين لهم قناتي
فحدت عن بني النيلين قوما
بأدنى النيل أو أعلى الفرات
بأنا ننتمي حبا ومجدا
إلى ما بالجزيرة من رفات
يعز عليهم نحيا ولسنا
مثالا للشجاعة والثبات
وألا يبصروا في النيل قرنا
ولا بطلا بعد من الكماة [27]

وبصفة عامة فشعر «الرجعة» هذا-كما قيل-قد آثر السلامة، وقد تنبه عبد الله عبد الرحمن وهو واحد من شعراء الالتفات إلى الماضي إلى هذا في قصيدة فقال:

أو كـــلـــمـــا جـــاء المحـــرم نـــخـــطـــب
هـــذا يـــحـــيـــيـــه وهـــذا يـــنـــدب
ونـــقـــيـــمـــهـــا بـــدويـــة حـــضـــريـــة
مـــنـــهـــا الـــبـــيـــان بـــكـــل وجـــه يـــســـكـــب
والـــنـــاس تـــســـمـــع مـــعـــجـــبـــين كـــأنـمـا
غـــنـــاهـــمـــو شـــاد مـــجـــيـــد مـــطـــرب
والـــصـــحـــف تـــنـــشـــر والجـــرائـــد تـــنـــتـــقـــي
والـــقـــارئـــون مـــخـــطـــئ ومـــصـــوب
حـــتـــى إذا ولـــى المحـــرم مـــدبـــرا
ذهـــبـــت بـــهـــم أهـــواؤهـــم تـــتـــشـــعـــب
أنـــا لا أحـــدثـــكـــم بمـــاضـــيـــه فـــفـــي
مـــاضـــيـــكـــمـــو روت الـــرواة وأطـــنـــبـــوا
كـــنـــا وكـــانـــوا لا نـــريـــد ســـمـــاعـــهـــا
هـــي قـــالـــة صـــرفـــتـــكـــمـــو أن تـــدأبـــوا

و بصفة عامة فالقارئ لقصائد الاحتفالات العامة قبل ثورة 1924 يحس بشيء من القلق، وبشيء من الخوف، ويحس أنها «تعتمل بثورة غامضة، وهي على غموضها سطحية غير واعية إذ اعتبروا ما رأوه من ترك الدين وفساد الأخلاق، و بدايات التنافر والخلاف نزوة طارئة، يمكن إزالتها ببضع حكم صاخبة تهتز لها المنابر بالتصفيق، أو بعض النصائح التي تحفل بها الكتب المدرسية ويرددها العامة، ومن ثم انصرف الشعراء إلى هذا الجانب التعليمي الوعظي يحسبون أنهم بذلك يحمون الأمة من انهيار الأخلاق[18].

ولعل مما يشفع لهؤلاء الشعراء أن الأمة كانت خارجة من هزيمة لا تزال تعاني منها، وأن أسلوب «الرجعة» كان سلاحا ولم يكن مجرد حنين، ولم يكن مجرد تذكر!

يلاحظ أن الخط الصوفي مازال يحافظ على وجوده في المسيرة السودانية[19]، وقد ازدهر هذا الخط وتعمق بعض الشيء بعد فترة انكسار المهدية، ثم أن المهدية إذا كانت قد ذوبت الطرق لصالحها، وغيرت أسماء أتباعها من الدراويش إلى الأنصار، إلا أن صبغة التصوف ظلت ملتصقة بها على نحو ما هو معروف من الدعوة إلى الزهد، والرغبة في الآخرة عن

الأولى، والبساطة التي فرضت على الجميع لبس الجبة المرقعة، وإلغاء الرتب والألقاب [20].

أما الحكم الثنائي فقد سمح بعودة هذه الطرق، وبإذكاء الصراع الخفي بينها، وبإظهار الاحترام لأقطابها، بل لقد جذبوا إلى الحفلات الرسمية، ومما يذكر في هذا المجال أنهم حضروا بمناسبة تتويج ملك بريطانيا، وأنهم تسامروا مع الحاكم العام وبطانته في ود ظاهر، وبينما هم في هذه المسامرة سمعوا من يؤذن في القصر لصلاة العصر، وعرفوا أن الشيخ قريب الله أبو صالح هر الذي أمر بالأذان، و يقال أنه لم يتبعه للصلاة سوى واحد فقط، أما الباقون فقد آثروا مجاملة الحاكم العام، وقد تعرض لهذا في قوله من قصيدة طويلة:

تعرض قوم للوعيد بعمدهم
لتركهم المفروض في حفلة «السر»
يدينون دين الكافرين بتركه
وتأخيره عمدا حياء من الكفر
ويدعوهم داعي الصلاة محيعلا
فيرمونه جهلا مضلا وراء ظهري
وان قال بعض منهم: انهضوا بنا
نصلي صلاة العصر قالوا له «بدري»
.. ولم قدموا داعي العبيد وأخروا
لدعوته.. هل كان هذا من الفكر
وهذا على مرأى مشايخ ديننا
ومسمعهم قل لي: أيا حيرة الأمر[21]

ما يهمنا أن الطرق الصوفية قد ازدهرت في هذه الفترة، فإذا كان الأستاذ عبد المحمود نور الدايم مازال مشدودا بصفة خاصة إلى شخصية الرسول بحيث دخل شعره فيما سمي «براتب السعادة»[22]، فان الشيخ قريب الله يضرب في هذا العالم بعمق على نحو ما هو معروف من منظومته المسماة «منظومة الحروف» والتي منها:

أدعوك بالذات وبالأسماء
يا خالق الأرض مع السماء

... ودلـــنـــي عـــلـــيـــك يـــا خـــبـــيـــر
حـــتـــى لـــكـــم عـــلـــى الـــولا أســـيـــر
لحـــيـــك الـــبـــهـــيـــج مـــثـــل الـــبـــاز
ولا أرى إلا عـــلـــى اجـــتـــيـــاز
مـــحـــافـــظـــا دومـــا عـــلـــى الأنـــفـــاس
مـــشـــتـــغـــلا بـــالـــلـــه لا بـــالـــنـــاس
... وســـائـــرا دومـــا عـــلـــى الإشـــراق
حـــتـــى يـــســـر الـــقـــلـــب بـــالـــتـــلاقـــي
حـــتـــى الـــعـــيـــون بـــاطـــنـــا تـــراكـــا
ويـــســـتـــقـــر الـــقـــلـــب فـــي حـــمـــاكـــا
حـــتـــى تـــقـــر الـــعـــيـــن بـــالـــوصـــال
ويـــلـــبـــســـن مـــن خـــلـــعـــة الجـــمـــال
ويـــســـمـــعـــن مـــن مـــلـــك الإلـــهـــام
عـــلـــوم ربـــي الـــواحـــد الـــعـــلام...
مـــســـتـــأنـــســـا بـــالـــنـــفـــس الـــرحـــمـــانـــي
مـــبـــتـــهـــجـــا فـــي ســـائـــر الأحـــيـــان
وبـــعـــدهـــا يـــغـــنـــي عـــن الأكـــوان
مـــســـتـــغـــرقـــا فـــي الـــلـــه غـــيـــر عـــانـــي[23]

ومن خلال ديوانه رشفات المدام تحس بنوع من الوجد الصوفي وبوثبات تحمله إلى الآفاق العليا، وبرغبة في أن يكون شعره في خدمة الإنشاد، لهذا كان اهتمامه بالجانب الموسيقي في البحور الشادية والمجزوءة، وفي بعض الموشحات التي تخدم الترديد الجماعي، حتى ولو كان هذا على حساب الأحكام اللغوية، ثم أن الرصيد الذي وراءه هو رصيد الصوفية، ولهذا نراه قد استخدم بعض مصطلحاتهم، ورموزهم على نحو ما نعرف من قصيدته التي يقول فيها:

قـــفـــوا لـــه ســـاعـــة ثـــم ابـــعـــثـــوا رســـلا
يـــأتـــوا بـــه تـــؤجـــروا يـــا ركـــب أســـمـــاء
فـــعـــنـــدمـــا ســـمـــع الـــركـــب الخـــطـــاب وعـــى
وأســـرعـــت مـــنـــه فـــرســـان بـــهـــيـــجـــاء

فــــأدركــــوه وقــــالــــوا لا تــــخــــف دركــــا

بــشــراك زال الــونــى مــا أنــت بــالــنــائــي

وأوصـــلـــوه وقـــد زالـــت مـــخـــاوفـــه

وفـــاز بـــالـــنـــصـــر فـــي أوقـــات ســـراء(24)

ومن الذين ضربوا في عالم التصوف بسهم وافر الشيخ إبراهيم التليب، فقد أثر على طائفة من شعراء التصوف في عصره، وبخاصة الشيخ محمد سعيد العباسي، ومما يذكر له أنه لم يشغل إلا بعالم الصوفية، والمتصوفين، فقد كان يقول شعرا ليضمنه قول ابن الفارض:

يــحــشــر الــعــاشــقــون تحــت لــوائــي

وجـــمـــيـــع المـــلاح تحـــت لـــواكـــا

أو قول عبد الغني النابلسي:

وهـــي روح مـــهـــبـــهـــا ذات أمـــر

وأنـــا هـــائـــم بـــذاك المـــهـــب

وتخميسه لبعض ما قال العارف بالله الشيخ الحراق معروف.. وبصفة عامة فقد سار في الدرب الذي سار فيه شعراء التصوف على نحو قوله:

ســلــبــتــنــي مــلــيــحــة الحــســن لــبــي

وســبــتــنــي بــدلــهــا والــتــأبــي

ودعـــتـــنـــي إلـــى الـــغـــرام بـــرمـــز

لـــو دعـــاه الجـــمـــاد جـــاء يـــلـــبـــي

.. يـــا نـــديمـــي إلـــى المـــدامـــة هـــيـــا

هـــيـــئ الـــكـــأس واســـتـــعـــد لـــشـــربـــي

وأدرهـــا عـــلـــي صـــرفـــا فـــانـــي

آلـــف المـــزج مـــن مـــيـــاه الـــســـحـــب

ضـــاق صـــدري بـــل فـــاض قـــدري إلـــى أن

قــلــت: حــســبــي مــن الخــلاعــة حــســبــي ! (25)

وهذا النفس الصوفي المشتعل موجود في شعر الكثيرين، وبخاصة منظومة أسماء الله الحسنى لسيدي الدردير التي أولها:

تـــبـــاركـــت يـــا الـــلـــه ربـــي لـــك الـــثـــنـــا

فـــحـــمـــدا لمـــولانـــا وشـــكـــر لـــربـــنـــا(26)

ونجد هذا النفس الصوفي في ميمية الشيخ مصطفى البكري التي تبدأ بقوله:

الـهـي بـأهـل الـذكـر والمـشـهـد الأسـمـى
بمـن عـرفـوا فـيـك المـظـاهـر بـالأسـمـا [27]

كما نجده في قصيدته السماه المنبهجة والتي مطلعها:

قـــم نـــحـــو حـــمـــاه وابـــتـــهـــج
وعـــلـــى ذاك المحـــيـــا نـــعـــج [28]

وإذا كان هذا الشعر الصوفي ضعيفا ركيكا في بعض جوانبه، إلا أن هناك من كان له إسهام فيه بجزالته المعروفة، وباقتداره على اللغة على نحو ما نعرف من الشيخ محمد سعيد العباسي، فقد كانت له انعطافة إلى هذا الجانب فهو ابن الشيخ محمد شريف، وكان له دور في الطريقة السمانية، ولهذا تشيع مصطلحات الطريقة في شعره على أننا نراه يسبح في هذا العالم حين يتكلم عن أسرته على نحو ما نعرف من قصيدته في رثاء أبيه، وفي قصيدة «آلي» [29] وفي قصيدته في الشيخ عبد المحمود التي تعرض فيها لقضية ضربه ألف ضربة، والتي يقول فيها:

أنـــا مـــن قـــد عـــلـــمـــت ودا وقـــربـــي
لا أنـــاديـــك مـــن مـــكـــان بـــعـــيـــد
فـاسـقـنـي مـن صـافـي دنـانـك كـأسـا
هـــي كـــأس الحـــيـــاة كـــأس الخـــلـــود
مـن شـراب.. مـن لـم يـصـب مـنـه حـظـا
كـــيـــف يـــدعـــي بـــســـالـــك أو مـــريـــد
فـمـتـى يـنـجـلـي فـؤادي المـعـنـى
ويـــطـــيـــب الجـــنـــي، ويـــورق عـــودي
وأرى ســـالـــكـــا طـــريـــقـــة قـــومـــي
مـــن كـــرام الآبـــا كـــرام الجـــدود [30]
مـنـهـج ابـن الـبـشـيـر، والـعـارف الـسـمـان
ذي الـــفـــيـــض، والأمـــام الجـــنـــيـــد
.. وإذا مـــا صـــفـــا لـــهـــم قـــلـــب صـــب
فـــاصـــطـــفـــوه نـــادوه فـــيـــمـــن نـــودي

وتــرقــى حــتــى إلــى حــضــرة الإطــلاق
ذات الأســرار، والــتــمــجــيــد
فــتــجــلــى لــه الإلــه فــأخــفــى
كــل شــيء جــمــال ذاك الــشــهــود

على أننا نراه يسبح في هذا العالم في قصيدته «عبر الأيام» وفي قصيدته «النفحات السمانية»، ثم أن له انعطافة نحو تخميس وتربيع بعض الشعر الصوفي المشهور، فقد خمس بيتي الشيخ الشبلى[31]، ونظر بيتين مذكورين في النفحات السمانية، وتخميسه لقصيدة أبي مدين الغوث مشهور[32]، وهذا الحس الصوفي سيشكل الكثير من جوانبه الشعرية، فهو في أكثر شعره يستعمل مصطلحاتهم ورموزهم ويرقى إلى مراقيهم، ويستعمل الإضمار بدلا من الإظهار، و يكثر من النداء للبعيد، ومن التأوه، وإظهار المواجيد.. على أن الملاحظ أنه ارتفع بهذا التراث الصوفي، ووضعه-ربما لأول مرة-في إطار الجزالة العربية.

صحيح أن هناك من شارك في التعبير عن الحس الديني كالشعراء عبد الله محمد عمر البنا، وعبد الله عبد الرحمن، وعثمان هاشم، وبخاصة في مناسبات مولد النبي وهجرته-وقد شارك في هذا بعض المسيحيين كالشاعر صالح بطرس-ولكن الذي لون هذا الجانب بالتصوف وارتفع به عن السرد التاريخي كان محمد سعيد العباس[33].

إذا كان الولاء للصوفية هو ولاء للمناخ الروحي الذي كان يعيش فيه الشاعر، فان الولاء للبيئة يعتبر من سمات الشعر السوداني في كل العصور « .. والمكان بذلك يقودنا إلى تحديد الشخصية الإقليمية للشعر السوداني، ويهمنا من البعد المكاني هنا ما يقف وراء الإقليم من إمكانات توضح التفاعل بين الإقليم والوحدات المختلفة وما الأدب إلا واحد منها، بل هو عنصر هام بما ينسجه من العوامل الطبيعية والبشرية، وما يورده من صور متعددة الأسباب والنتائج.. إذن فلا بد من العامل الفني للجغرافيا»[34] وبصفة عامة فهناك التفاتة واضحة للمكان في هذه الفترة بالذات، ذلك لأن الشعراء الذين عاصروا الهزيمة، أو جاءوا بعدها أرادوا أن يتحسسوا وطنهم من جديد، وأرادوا أن يدللوا على أنهم أصحابه، ولأمر ما رأيناهم يحسنون الوقوف في أوائل القصائد على الأماكن، ومع أن هذه الظاهرة

ظاهرة عامة في الشعر العربي إلا أن التشبث والإكثار منها في هذه الفترة له دلالة خاصة، ثم انهم كانوا يعمقون هذه الظاهرة المكانية بالارتداد إلى ماضيها، وخير من أجاد في هذا الجانب الشاعر محمد سعيد العباسي على نحو ما هو معروف من قصيدته الشهيرة التي عنوانها «سار بين القديم والحديث» والتي مطلعها:

خان عهد الهوى وأخلف وعدا

ظالم، أحرق الحشاشة صدا[35]

وله قصيدة بعنوان «مليط»[36] نظر إليها نظرة جمالية، ومع أنه أسقط عليها بعض المفاهيم السياسية إلا أنه قدمها في صور ملونة-وأكاد أقول في موسيقا ملونة-ومطلعها:

حياك مليط صوب العارض الغادي

وجاد واديك ذا الجنات من واد

ومثل هذا نجده في قصائد بعنوان «وادي هور»[37] و«النهود» و«دارة الحمراء» و «وادي الربدة» وعروس الرمال، وإذا كان قد رسم في شعره أكثر من صورة زاهية، فهو قد يذكر بعض الأماكن كجيرون-في الأصل موضع من متنزهات دمشق-كناية عن مرتع لهو أيام الصبا، فهو من ذكر المحل وارداة ما كان فيه [38].. المهم أن الشاعر يرتكز في ديوانه على المكان، وان المكان يشكل القصيدة عنده.

وإذا كان الشعر السوداني بصفة عامة يهتم بالأماكن-كنجد-وبالأماكن الروحية-كمكة وزمزم والحطيم-كنوع من المدخل للقصيدة، فانه في المقام الأول يهتم بالبيئة في بلاده على نحو ما نعرف من تعرض الشاعر حسيب علي حسيب لبلاد «عديد النحل» و «جبل رشاد» و «دامرة» وقد يوسع الشاعر «المشهد» فيقدم منطقة بأثرها على نحو ما نعرف من تعرض الشيخ عبد الله البنا لمنطقة «البطانة» فقد جاء فيها:

فلو سكنت معنا البطانة

لما رأيت مثلها مكانة

يكفيك من دنياك كلب صيد

يكون للغزلان مثل القيد

تمـــتـــع الـــنـــفـــس مـــن الأرانـــب
ومـــن حـــلـــيـــب لـــبن ورايـــب
إنـــا إذا أمـــطـــرت الـــســـمـــاء
فـــأرضـــنـــا جـــمـــيـــعـــهـــا خـــضـــراء
ابـــلـــنـــا مـــن حـــولـــنـــا عـــظـــام
كـــأنـــهـــن رتـــعـــا نـــعـــام
وبـــقـــر الحـــي لـــهـــا دوي
كـــأنمـــا قـــرونـــهـــا الـــعـــصـــي
والـــضـــأن والمـــعـــزى تـــبـــيـــت حـــولـــنـــا
نـــحـــبـــهـــا كـــحـــبـــنـــا أطـــفـــالـــنـــا
إذا ثـــغـــين مـــغـــربـــا فـــي الـــســـاحـــه
فـــكـــالـــنـــســـاء صـــحـــن فـــي نـــيـــاحـــه
والـــنـــاس عـــنـــدنـــا جـــمـــيـــعـــا اخـــوة
وهـــم لـــذي المـــرعـــى الجـــمـــيـــل أســـوه
نـــحـــن ألـــفـــيـــنـــا ســـكـــن الـــبـــريـــه
لحـــســـن مـــا فـــيـــهـــا مـــن الحـــريـــه[39]

وقد تكون القصيدة وقفا على طلل على نحو ما فعل الشاعر شفيق فهمي مينا، وقد تكون وصف دار على نحو ما فعل الشيخ إبراهيم محمد مدني، وقد تكون وصفا لمشهد على نحو ما فعل الشاعر توفيق أحمد، وقد تكون في جامع على نحو ما فعل الشاعر صالح بطرس[40]، وقد يطل الشاعر من مدينة على منظر على نحو ما فعل الشيخ عبد الله عبد الرحمن حين نظر إلى النيل من مدينة «مدنى» فقال من قصيدة طويلة:

رف فـــيـــه الـــنـــبـــات حـــتـــى كـــأنـــي
مـــن وراء الـــزجـــاج أرنـــو إلـــيـــه
وكـــأن المـــيـــاه صـــفـــحـــة خـــد
وكـــأن الـــظـــلام شـــام عـــلـــيـــه
وكـــأن الـــدخـــان مـــن جـــانـــب الـــشـــط
مـــشـــيـــب يـــلـــوح فـــي عـــارضـــيـــه

وظـــلال الجـــمـــيـــز، والـــطـــلـــح والـــســـد
رتـــرمـــي عـــلـــى المـــروج الـــوســـيـــعـــة
ووجـــوه الـــنـــبـــات تحـــلـــو وتـــبـــدي
صـــورا لـــلـــحـــيـــاة كـــانـــت بـــديـــعـــة
لـــيـــس أدعـــي إلـــى الـــســـرور كـــروض
خـــلـــعـــت حـــســـنـــهـــا عـــلـــيـــه الـــطـــبـــيـــعـــة(41)

وقد تمتد رؤى الشاعر فيصف باريس وما فيها من ظباء، وقد يقدم فصل «الخريف»-وهو الفصل الزاهي المحبوب في السودان-في لوحات مكانية جيدة.(42).

امتدادا لظاهرة الذات المحمدية، والذات المهدية، نرى أن هناك انعطافة جديدة في الشعر السوداني نحو الالتفاف حول شخصيتين هامتين هما شخصية السيد علي الميرغني-زعيم الحمية-والسيد عبد الرحمن المهدي-ابن الأمام المهدي وزعيم الأنصار-مع تعريج قليل-على شخصية الزبير باشا، ونحن نرى الشعراء يحرصون على وصل أنسابهم بالنبي عليه الصلاة والسلام، وإذا كان مدح السيد علي الميرغني يغلب عليه التصوف وبعض جوانب الدين، فأن مدح السيد عبد الرحمن المهدي يغلب عليه التعرض للجوانب السياسية ولذكر أحداث المهدية.(43)

.. وامتداد التقاليد الشعر العربي رأيناهم يتغزلون في أول قصائد المدح، و يتغزلون غزلا تقليديا مليئا باللوام والوشاة، ويخرجون عن المعقول، على حد ما نعرف من الشيخ أحمد يوسف نعمة الذي يصف السودانيات ببياض الوجوه، وأنهن يجلسن في الحدائق يتعاطين الخمر ويبرزن سافرات(44).

.. وظاهرة الرثاء تسير في نفس الاتجاه القديم من التعرض للرئاسات على نحو ما هو معروف، فقد رثوا في هذه الفترة الكثيرين يجيء في مقدمتهم الزبير باشا، وكتشنر، وان كانوا قد تنبهوا-على غير العادة-إلى رثاء الأب والابن والعم والشقيق والصديق، و بعض المواطنين الذين يتعرضون للأخطار كما في رثاء من نكبتهم الأمطار في عطبره عام 1921(45).

وفي الوقت نفسه لم يهملوا بعض الجوانب الاجتماعية، فقد فرحوا كثيرا بقيام نادي الخريجين عام 1918، وأكثروا من الشعر فيه، وصاحبوا-

بالشعر-كل نشاط كان يقام فيه، على نحو ما قيل من تبني النادي للتمثيل، كما تعرضوا لقضايا المرأة، وحرضوها على التعليم، كما شجعها البعض على السفور وحرضها آخرون على الحجاب.. وعلى وهن ذكروا في هذه الفترة بالعروبة، وأوقفوا كثيرا من شعرهم على التغني باللغة العربية وقد كان في مقدمة من سار في هذا الاتجاه الشعراء عبد الله البنا، محمد سعيد العباسي، وعبد الله عبد الرحمن، كما أن الكثيرين كانوا أسرى التشطير، والتخميس، والاقتباس بصفة عامة(46) !

.. كأنه أخيرا كان لهم انعطافهم نحو الفخر، والتأريخ، والحديث عن الخمر، والإخوانيات، والخلافة. والحديث عن مصر، وعن الحرب الطرابلسية.

يمكن القول بصفة عامة إن الشعر السوداني كان يصب في الأنهار القديمة، ولكن إذا كان لابد من توضيح بعض سماته في هذه الفترة فإنها كما ذكرنا تتلخص في تبني فكرة التصوف، وفكرة المهدية، والإحساس بالمكان، بالإضافة إلى محاولة التتوأم مع ما جد من أحداث سياسية واجتماعية في البلاد.. وقد جرى الشعر السوداني على عادته القديمة من الاهتمام بكل ما يعطي غدقا موسيقيا، و بكل ما يذكر بالأنغام التراثية، على أن مما يذكر له في هذه الفترة هو نزعة البعض إلى الجانب القصصي، ومن ثم نجد لفتة إلى الشاعر عمر بن أبي ربيعة، وقد رأينا هذا التأثر عند الشاعر عبد المجيد وصفي الذي يذكر أنه أحب، ثم أرسل رسلا لمن أحب، ثم يكون هناك حوار بين الرسل وبين الحبيبة «أم ماجد»:

فلما ألما بلغاها رسالتي
أجابتها «لا زال ودي باقيا
ولكنني مأسورة في شراك من
يرى العاران يوما سواه يرانيا»
فعادا، وقصا لي الحديث الذي جرى
فقمت وبعد السقم نلت شفائيا
وجبت الفيافي في الدجى نحوحيها
وكان أنيسي ذكرها ثم هاديا

وحـيـث خـبـاهـا قـد أنـخـت مـطـيـتـي
وأنـزلـت فـي رحـب الـسـمـاح رحـالـيـا
عـلـى مـنـظـر مـنـهـا وقـفـت ومـسـمـع
أنـادي بـذل كـي تجـيـب نـدائـيـا
ولـو كـان يـدري أن لـي مـنـك سـبـعـة
ومـنـي بـلا ريـب إلـيـك ثـمـانـيـا
فـمـنـك الجـفـا والـصـد والـبـعـد والـعـنـا
وهـجـر وإعـراض وطـول سـقـامـيـا
ومـنـي الـرضـا والـصـبـر والـصـفـح والـوفـا
مـآلـي وآمـالـي وجـهـدي ومـالـيـا..الـخ [47]

.. وقد أكد القصة التاريخية في السودان الشاعر عبد الله البنا حين قدم مطولته عن عثمان بن عفان، ثم انه كان أول من انتفع بحكايات كليلة ودمنة، وذلك في قصيدته «السلحفاة والبطتان»، وهي تدور حول غدير معشب كانت به سلحفاة و بطتان، فلما جف الغدير حزنت السلحفاة فدار حوار بين الجميع خرجا منه بحيلة يحملان فيها السلحفاة بعد حملها بوساطة حبل إلى ماء آخر على شريطة ألا تفتح السلحفاة في فترة الحمل فمها حتى لا تقع، وفي الطريق عجب الناس من المنظر وسخروا ففتحت السلحفاة فمها غضبا «فسقطت قتيلة النسيان» ثم يكون الختام هو الحكمة الآتية:

وهـكـذا مـن نـسـى الـنـصـيـحـة
يـرجـع بـالحـرمـان والـفـضـيـحـة

وهناك قصة بعنوان «أنا والأعرابي» تدور حول رفض المدينة ثم الرضا عنها أخيرا، وهناك قصة «الناسك والأوهام» وتدور حول رجل يحلم حلما من أحلام اليقظة ثم ينتهي منه بلا شيء، ثم قصة ابن الملك وأصحابه الذين تفاخروا بما يملكون وكان على كل واحد أن يقدم برهانا على ما يذهب إليه وقد وجه هذا الجانب وجهة تعليمية الشيخ بابكر بدري[48].

.. ثم انه كان هناك نوع من الضغط السياسي، ومن ثم رأينا بعض الشعراء يميل عن التصريح إلى التلميح و بالتكنية برموز عن الأشخاص والبلدان، وقد كان في مقدمة هؤلاء الشاعر محمد سعيد العباسي، فهو

يقول:

يـا سـعـد سـعـد بـنـي وهـب أرى ثـمـرا
فـجـد فـديـتـك لـلـعـافـي بـعـنـقـاد
وان فـي بـعـض مـا قـد عـاف شـاربـكـم
أعـتـاب ذي الـفـضـل يـحـيـي وابـن عـبـاد (49)

وهو يقول:

فـيـا مـار سـيـرى ولا تـخـدعـي
فـيـنـتـزع الـقـرط يـا ماريـه (50)

وقد كان يقصد مصر في قوله:

قـد ظـمـئـنـا بـنـت الـكـرام فـهـاتـنـي
كـأس خـمـر يـرجـي فـقـاقـع خـمـر
(و) يـا بـنـت سـاجـعـة الـريـاض
وزيـن نـاضـرة الـشـجـر
(و) اسـمـعـيـنـا «جـنـان» لحـنـا شـجـيـا
ودعـي مـعـبـدا دعـي إسـحـاقـه

.. ومما يدل على هذا ما جاء في ديوانه تعليقا على هذه الأبيات:

«جـبـسـن» أسـمـع أولـيـت قـومـك فـخـرا
وثـنـاء يـروى، وأوريـت زنـدا
نـحـن مـن قـد عـلـمـت ودا، وأنـت
المـرء يـولـي الإحـسـان بـدءا وعـودا
جـئـت فـي الـسـد بـالـعـجـاب فـهـلا
شـدت بـين الـبـغـاة والـنـاس سـدا (51)

وعلى كل فقد كان لجوء الشعراء إلى هذه «الحيل الفنية» ضرورة في فترات التضييق عليهم، ومما يلاحظ أن هذا الاتجاه أعطى للشعر عمقا، وحمل القارئ على التفكير، والوصول إلى المطلوب بعد نوع من المماطلة الفنية(52).

وأخيرا .. يكون لا مناص من تسجيل تلك الحقيقة المرة التي تقول: أين كان الشعر من ثورة 1924 وما دوره في التحضير لها ؟ فما عثرنا عليه في هذا المجال محدود جدا، ولعل أبرزه تلك القصيدة إلي هربت إلى جريدة

الأهرام القاهرية وكان نشرها في26 / 1922/5[53]، وهي تلك القصيدة التي كتبها توفيق صالح جبريل، وتقول:

أيـــهـــا الـــقـــوم لاتجـــروا الـــذيـــولا
يـــأنـــف الحـــر أن يـــعـــيـــش ذلـــيـــلا
ســمــتــمــونــا الــعــذاب ضــيــقــتــم الأر
ض عــلــيــنــا حــتــى هــويــنــا الــرحــيــلا
إن أردتم إصـــلاحـــنـــا قـــد فـــعـــلـــتـــم
فـــاعـــذرونـــا إذا مـــلـــلـــنـــا الـــدخـــيـــلا
أيـــهـــذا الـــزعـــيـــم أودى بـــنـــا الـــفـــقـــر
فـــعـــطـــفـــا فـــقـــد صـــبـــرنـــا طـــويـــلا
فـــقـــبـــيـــح أن نـــرتـــضـــي الـــذل دهـــرا
ونـــرى مـــالـــنـــا لـــكـــم مـــبـــذولا
كـــل يـــوم تـــبـــدو بـــثـــوب جـــديـــد
مـــن دهـــاء فـــحـــســـبـــكـــم تـــبـــديـــلا
عـــلـــمـــتـــنـــا الأيـــام مـــا قـــد جـــهـــلـــنـــا
ه فـــلـــســـنـــا نـــطـــيـــق عـــبـــئـــا ثـــقـــيـــلا
تـــلـــك عـــشـــرون حـــجـــة بـــعـــد خـــمـــس
قـــد تـــقـــضـــت ومـــا شـــفـــيـــتـــم غـــلـــيـــلا
فـــادعـــيـــتـــم نـــشـــر الحـــضـــارة والـــعـــر
فـــان، والـــشـــعـــب مـــا يـــزال جـــهـــولا
مـــا اكـــتـــســـبـــنـــا إلا الـــشـــقـــاء كـــســـانـــا
ســـمـــلا بـــالـــيـــا، وجـــســـمـــا نـــحـــيـــلا
ويـــح قـــلـــبـــي مـــاذا يـــروم «ألـــنـــبـــي»
يـــوم وافـــى يـــجـــر ســـيـــفـــا صـــقـــيـــلا؟
جـــمـــع الجـــمـــع. أرهـــب الـــقـــوم حـــتـــى
أصـــبـــح الـــســـيـــد الـــنـــبـــيـــل ذلـــيـــلا
أتـــراه يـــريـــد يـــفـــصـــم حـــبـــلا
بـــين مـــصـــر وبـــيـــنـــنـــا مـــوصـــلا؟

ولـمــــاذا تـــــراه يمــــلــــي عــــلــــيــــهــــم
ونــــــراه مــــدونــــا مــــا قــــيــــلا ؟
جــل مــن مــلــك الــدخــيــل فــجــر الــذ
يــل واســتــمــطــر الــعــذاب الــوبــيــلا [54]

ثم كان صمت الشاعر توفيق صالح جبريل عن الثورة على الرغم من أن أخاه محمد صالح جبريل كان أحد أبطالها، وهو نفسه كان من المؤسسين لجمعية الاتحاد السرية، وقد ضحى بالكثير من أجل تحمسه للاتحاد مع مصر «بيد أن نظرة واحدة إلى المناخ الوطني لجيله تضعنا أمام الظروف التي أفضت به لتلك العزلة عن المجتمع الكبير»[55] وهناك نص يشير إلى هذا المناخ يقول أن أحد أعضاء جمعية الاتحاد قد وشى بها إلى صمويل عطية الذي كان يعمل في مخابرات الإنجليز، ومن ثم حدث انقسام بين أعضاء الجمعية فهناك من قال بحل الجمعية، وهناك من عارض كالشاعر إبراهيم بدري الذي قال:

عــــهــــد قــــوي لــــم تــــزد
5 الحــــادثــــات ســــوى ازديــــاد
ويــحــوطــه الــقــصــد الــشــر
يــف وأشــرف الــقــصــد الجــهــاد
مــــن أجــــل فــــرد خــــائــــن
تــــبــــغــــون حــــل الاتحــــاد ؟
والمــــرء يــــقــــطــــع زنــــده
خــوف الــتــســمــم والــفــســاد
أعــــمــــاه حــــب الأصــــفــــر الــــر
نــــان عــــن نــــهــــج الــــرشــــاد
خــــان الــــبــــلاد ومــــا درى
أن الخــــيــــانــــة شــــر زاد
مــهــلا عــلــيــه فــســوف يــر
ســـف فـــي قـــيـــود الاضـــطـــهـــاد
ويــرى نــتــيــجــة مــا جــنــت
كــفــاه مــن ضــرب الــعــبــاد [56]

ويمكن أن نرى هذا بين الطلبة على نحو ما نعرف من القصيدة التي ألقاها توفيق أحمد في كلية غوردون، والتي نحس منها التضييق الذي كان سائدا، فقد جاء فيها:

هـيـهـات أتـرك مـا عـشـقـت وان مـت
فـيـه فـنـعـم عـقـوبـتـي ونـصـيـبـي..
إخـلاصـة الأفـراد إن بـلادكـم
تـشـكـو مـن الـتـفـريـق والـتـخـريـب
ونـخـاف أن يمـضـي الـزمـان وكـلـنـا
فـي الـلـهـو والـتـحـبـيـب والـتـرغـيـب
هـيـا إلـى عـمـل الـصـلاح فـإنـنـا
فـي مـوقـف حـرج الـنـتـاج عـصـيـب
.. فـلـربمـا نـهـض المـهـيـض بـقـدرة الـلـه
الـكـريم.. ولـيـس ذا بـعـجـيـب

ولأمر ما كثر شعر الشكوى والتبرم من الحياة في هذه الفترة على نحو ما نعرف من شعر صالح عبد القادر، وعثمان حسن بدري، والطيب السراجي، وقد يشفع لهؤلاء ما قاله حسن نحيلة «.. كان السيف مصلتا والأضواء مسلطة عليهم، والشعر ليس كالغناء، فالاستدلال على صاحبه سهل، ولا تنس انهم كانوا موظفين في قبضة الحكومة تراقب كلا منهم رقابة دقيقة، وتحصى كل شيء عددا، ولنذكر من الشعر للخاصة، وما كانت الجماهير في حاجة إليه»، ومن ثم كانت مخالفة الدكتور محمد مصطفى هدارة الذي رأى أن الشعر زاد الجماهير في مثل هذه الانتفاضات [57]، والواضح أن هناك شعرا قيل قد وصلت أخباره، ولكنه ضاع لأنه كان يعتمد على الذاكرة، ذلك لأن المجالات كانت مطوية عنه، وأغلب ما وصل إلينا منه كان بدون توقيع وتم نشره في مصر.

10 فترة التخلص من الحكم الأجنبي

إذا كانت ثورة عام 1924 ثمرة لضيق الناس بالحكم الإنجليزي في العديد من المجالات، وعلى رقعة كبيرة من الزمان-بالإضافة إلى التأثر بثورة 1919 في مصر وبالحرب العالمية الأولى-فإن الأسباب المباشرة كانت الاجتماع الذي عقد في منزل السيد عبد الرحمن المهدي في 10 من يونيو عام 1924، والذي تم فيه إقرار مبدأ أن تنفرد إنجلترا بحكم السودان بعيدا عن مصر[1]، ومن ثم تحددت عدة روافد في مواجهة هذه الفكرة فرأينا من يدعو إلى القومية السودانية، ومن يقول بوحدة الوادي، ومن يظهر في صوته الاتجاه العربي، أو الدعوة الإسلامية.. المهم أن أصحاب هذه الروافد كانوا يرفضون الحكم الإنجليزي، ومن ثم رأيناها تتداخل في الاتجاه الذي مثله علي عبد اللطيف والذي تحددت ثورته باسم «اللواء الأبيض» والذي كان ينادي بإبعاد الإنجليز والتقارب مع مصر[2]، على أن هذه الثورة لم تكن متكافئة مع قوة الإنجليز، ومن ثم كان إخمادها بعد الاندلاع بعنف، ثم كان «تفريغ» البلاد من المصريين، وكان تشديد القبضة

على المواطنين.. وما يهمنا من هذا كله أن الإنسان السوداني قد أصيب بالإحباط لا مرة واحدة بل مرتين، فقد ضاعت ثورة المهدية على يد الإنجليز وكان أن حمل مرارتها، ثم ها هي ثورة أخرى من ثوراته تضيع بعد أن أخمدت بعنف.. وهكذا خلا الجو للسياسة الإنجليزية في البلاد، وأصبح الإنجليز يحكمون البلاد حكما مباشرا، ولم يسمح الإنجليز بقيام كيانات سياسية، ومن ثم تكونت جمعيات كان طابعها العام ثقافيا، فقد تكونت للخطابة، وإنشاد الشعر، والمطالعة والمراجعة جمعيات، ومن هذه الجمعيات صدرت عدة دعوات هامة في بناء المجتمع السوداني، كالدعوة إلى التعليم الأهلي، والرغبة في التعليم في القاهرة، وتشجيع الرياضة، وتعليم المرأة، فلما كان عام 1929 ظهرت بعض الجمعيات السرية التي تمارس السياسة، وعلى الرغم من العودة «الإسمية» للجيش المصري بمقتضى معاهدة 1936 إلا أن هذا قد شد من أزر السودانيين ومن تماسكهم أمام الإنجليز، ولقد كان من أروع الثمار التي نضجت في هذه الفترة ما يسمى «مؤتمر الخريجين» الذي ظهر كقوة مؤثرة في فبراير عام 1938، فقد التف حوله نحو ألفين من الخريجين، وشهد أول اجتماع له ألف وثمانون خريجا، وكان أن دفع أفكارا اجتماعية وأدبية إلى المجتمع تسامح الحكم فيها أولا، ولكن حين نادى المؤتمر بإنشاء جيش وطني سلطت عليه الأضواء بعنف، وإذا كان الرأي العام متعاطفا مع مصر، فإنه لا يمكن إغفال اتجاه آخر كان ينادي بالتعاون التام مع الإنجليز، وكان يقول بأنه ليس بيننا وبين مصر ألا «حسن الجوار والمشاركة في ماء النيل»[3].

ثم كان السماح بتكوين الأحزاب، وكان دور الزعامات الدينية المتمثل أساسا في دور الختمية من خلال السيد الميرغني، ودور السيد عبد الرحمن المهدي من خلال المهدية، وكان دور الجمعية التشريعية والمجلس التنفيذي، ثم كان أن توقفت أشياء كثيرة خلال الحرب العالمية الثانية فقد شددت الرقابة على البلاد، ثم كان موقف مصرحين ألغت في عهد مصطفى النحاس معاهدة 1936، ثم كانت ثورة 23 يوليو 1952 وكان أن قدمت مذكرة في 2/11/ 1952 جاء فيها «.. تؤمن الحكومة المصرية إيمانا وطيدا بحق السودانيين في تقرير المصير، وفي ممارستهم له ممارسة فعلية في الوقت المناسب وبالضمانات اللازمة» [4] ثم كان دورها في إدماج عدد من الأحزاب التي

تتعاطف معها في حزب يسمى «الحزب الوطني الاتحادي» برئاسة إسماعيل الأزهري، ثم كان تتويج هذا كله باتفاقية تنص على « .. تقرير السودانيين مصيرهم في حرية تامة إما بإعلان استقلال السودان عن كل من مصر وبريطانيا وأي دولة أخرى، أو الارتباط مع مصر، على أن يسبق ذلك قيام الحكم الذاتي الكامل في السودان فورا» وقد وضعت هذا الاتفاقية المشهورة والمعروفة باسم اتفاقية السودان عام 1953، ثم كان اختيار السودان للاستقلال التام عن مصر وبريطانيا، وكان إعلان مولد الجمهورية السودانية في 1/ 1/1956[5].

في هذه الفترة انتشرت ظاهرة التعليم، وأسهمت مصرفي هذا بدور كبير، وكان إرسال عدد من البعثات إلى إنجلترا ومصر، وكان انتشار الصحافة والطباعة والنشر، والنوادي العلمية والأدبية، ومع أنهم تفتحوا على الثقافة الإنجليزية، والمصرية، إلا أنه تكون جيل جديد-بين جيل المرارة واليأس- ينادي بالقومية السودانية، ويحاول أن يزيل عنها التأثيرات البعيدة عنها، وقد كان في مقدمة الداعين حمزة الملك طنبل وعرفات رئيس تحرير مجلة الفجر.

ويجيء دور حمزة الملك طنبل في عدد من المقالات التي نشرت في جريدة الحضارة ثم صدرت في كتاب طبع طبعة أولى عام 1927 بالقاهرة[6] بعنوان «الأدب السوداني وما يجب أن يكون عليه» وهو ابتداء يدعو إلى ما يسميه إبراز صورة صحيحة للأدب السوداني، ووسيلته إلى ذلك التمسك بالأخلاق وبالبساطة « .. إننا لا نحتاج لكثير من العلوم، ولكننا نحتاج لكثير من الأخلاق الفاضلة. إن البساطة مظهر من مظاهر الجمال فلنلتزمها ولنحطم قيود هذا التكلف الممقوت الذي هو نتيجة التقليد الأعمى البارز في كل مظهر من مظاهر حياتنا» ثم نراه يقف إلى جانب الشاعر المطبوع لا الشاعر المقلد، والذي تكون صورة نفسه كاملة في كل شعره لا في قصيدة واحدة من قصائده، وفي ضوء هذا نراه يقف عند ظاهرة الصدق، ورأينا. يشجب ظاهرة التشطير فيقول « .. هب أن قصيدة ابن الفارض «ترابيزة» كهذه بأربعة أرجل مصنوعة من خشب الصندل الزكي الرائحة (الذي لا يوجد في غير روضة ابن الفارض) وهب أن مشطر القصيدة نجار دفعه الإعجاب بهذه «الترابيزة» إلى تشطيرها بحسب ما يقتضيه فن النجارة،

نصنع بين كل رجل وأخرى رجلا (من خشب جيد أحضره هو) ثم صنع بين كل درج وآخر درجا، وهكذا فماذا يكون الحال ! حل عجيب: لا «الترابيزة» كما سبق أن رأيناها، ولا هي لابن الفارض، ولا هي لهذا النجار، ولا هي على روائها وحسنها الأول»[7] ثم انه يخطو خطوة إلى ما يريد حين يقول أننا لو وضعنا كل المعارضات في كفة ميزان، ووضعنا بعض الأبيات التي يسخرمنها الناس هنا للشيخ حسن البدري في كفة، لرجحت أبيات الشيخ حسن التي تقول في صدق وحس سوداني:

جـــاء الخـــريـــف وصـــبـــت الأمـــطـــار
والـــنـــاس جـــمـــعـــا لـــلـــزراعـــة ســـاروا
هـــذا بمـــفـــرده، وذلـــك بـــابـــنـــه
والـكـل فـي الحـش الـسـريـع تـبـاروا الـخ[8]

يقول «وبصرف النظر عن درجة حرارتها فهي تعطيك صورة صحيحة لوجه من وجوه الحياة في السودان، هل فهمتم مرادنا؟ نريد أن يكون لنا كيان أدبي عظيم، نريد أن يقال عندما يقرأ شعرنا من هم خارج السودان: أن ناحية التفكير في هذه القصيدة أو «روحها» تدل على أنها لشاعر سوداني، هذا المنظر الطبيعي الجليل الذي يصفه الشاعر موجود في السودان، هذه الحالة التي يصفها الشاعر هي حالة السودان، هذا الجمال الذي يهيم به الشاعر هو جمال نساء السودان، نبات هذه الروضة (أو هذه الغابة) التي يصفها الشاعر ينمو في السودان، وهو يعيب على الشعراء الاستهلال بالغزل والنسيب والتشبيب، ويطبق هذا على ما قاله الشاعر علي أرباب لأن غزله في أوائل القصائد يتنافى مع الصدق، ومثل هذا الحديث عن الناقة، والحديث عن الفخر، كما أنه يدين التكرار لأنه في الغالب «نتيجة قلة المادة والعناية بالألفاظ دون المعاني، وهو عيب نذكر أن دعاة المذهب الجديد في مصر انتقدوا عليه شاعرها الكبير حافظ بك إبراهيم، ثم انه يذهب إلى أن ما يقوله الشعراء لا يخرج عن كونه جريا وراء التقليد، أو أنه على حد تعبيره «تحلية بضاعة»[9]..

وعلى كل فنحن نراه من أجل تحديد الملامح الخاصة للأدب السوداني، يدعو إلى الابتعاد عن تقليد الشعر العربي، ويدعو في الوقت نفسه إلى ما يسميه اختصار الأدوار التي مر بها الأدب المصري من قديم وجديد، ووسيلته

إلى ذلك الصدق مع النفس ومع البيئة، ولهذا رأيناه يدين الحديث الذي كان يدور في مصر حول «الأدب العالمي»، فهو يراه سرابا، أما الماء الحقيقي فهو «الأدب القومي» بل انه يرى أن الحديث عن العالمية دليل على عدم نضج (الأدب القومي) [10].

وهذه الآراء لم تبعد كثيرا عن شعره، فنحن نراه في مقدمة ديوانه يقول: لقد خالفت في هذا الديوان بعض أصول اللغة مخالفة طفيفة متعمدة، وذلك بالوقوف على المفعول-وغيره من الكلمات الموضوعة بين قوسين- بالسكون تمشيا مع أصل «اللهجة» والوزن[11].

ويجيء دور المنادين بالشعر القومي في وضوح وفي مقدمتهم محمد أحمد المحجوب[12]، وقد حملت لواء هذه القضية مجلة الفجر التي كانت مقصورة على الشعر ودراساته والتي حملت لواء الشعر في عامي 1934، 1935 بعد أن صمت صوت مجلة «أبولو» في مصر وقد بدأ بتصوير الواقع السوداني الذي كادت القومية أن تفقد معناها فيه، وكادت العربية كذلك أن تكون مجهولة به، ثم تعرض لمادة هذا الأدب الذي يجب أن يؤخذ من حياة الناس، و يشيد بالأبطال والبطولات، وبعبارة مختصرة يجد مادته في أخلاق الأمة حميدها والذميم، ليقبل الناس على الحميد، وينصرفوا عن الذميم، أما معدات هذا الأدب فهي الجمال والسهولة والوضوح والموسيقا والتعبير عن نفسية الشعب «فنحن بما عندنا من عصبية للعرب، وما خصنا الله به من عقيدة إسلامية ثابتة تنتظم جل أفراد الأمة لا يمكن أن يتجه شعرنا القومي نحو الهمجية والإلحاد، لأنه سيلاقي من سخط الشعب ما يكبح جماحه، ويحكم عليه بالموت الأدبي، وبما عندنا من محافظة على الأخلاق ورعاية للذمار لا يمكن أن يتجه شعرنا القومي نحو الإباحية أو انتهاك الأعراض وإهمال الحمى»، ثم نراه يحاول رسم مثل عليا للحياة السودانية المقبلة في عدد من الميادين، ويدعو إلى خلق شعور قومي ينتظم البلاد، والى تذوق الجمال في كل مظانه بدلا من النظر إليه عن طريق «العاطفة التناسلية» ومع أنه معترف بواقع السودان القاسي إلا أنه يغضب على الذين يقولون أن بلاده «بلاد الجحيم» وأنها «العظمة» التي يدور حولها الصراع[13].

ثم أن قضية قومية الأدب قد برزت بروزا واضحا حين أصبحت مناظرة يدور حولها الحديث في نادي خريجي المدارس، وحين انتقلت القضية إلى

صفحات مجلة الفجر، وكان أن ظهر تيار يقول: أن الثقافتين في مصر والسودان لا يمكن أن تنفصلا لوجود صلات في الدم واللغة والدين، وتيار يقول: أن هناك اختلافا بين طبيعة البلدين، وتباينا بين عادات السكان إلى غير ذلك من الظواهر التي تحتم قيام ثقافتين منفصلتين، وهناك تيار حاول التوفيق حين نادى بالتعاون بين الثقافتين مع محافظة كل منهما على المميزات والخصائص، وقد اشترك في طرح هذه القضايا الصحفي المصري المقيم في السودان حسن صبحي، والأديب محمد عبد القادر حمزة الذي أرسل برده لينشر في العدد الحادي والعشرين من مجلة الفجر، أما محمد أحمد محجوب فقد كان واضحا في عملية الفصل بين الأدبين، وقد قال أن الأدب القومي في مصر ذاتها جديد لم تمض عليه سنوات «وحتى الآن لم نر نتاجا جديرا بأن يسمى قوميا» ذلك لأن شوقي وحافظ وأحمد محرم يجرون على طريقة العرب، ويسوقون الحديث عن النوق والخيام والهوادج، ويتغزلون في سعاد ودعد وهند، ولا يحفلون بزينب وفاطمة وبثينة، ثم أن العقاد والمازني لا فرق بين شعريهما في المعاني والتخيلات وبين شعر «توماس هاردي» أو «شلي» فهو شعر إنجليزي في لغة عربية، وأما النثر فحتى بداية هذا القرن كان سجعا مقفى، وما «حديث عيسى بن هشام» للمويلحي ببعيد، وأما كتاب العصر فهم بين نزوعهم إلى التجديد ومحاولة اللحوق بالغرب، وبين محافظتهم على أسلوب عبد الحميد الكاتب وبيان الجاحظ «لم يتقدموا خطوة إلا ليتأخروا خطوات»، وأدباء الشباب الذين يحاولون إدخال القصة أو الأقصوصة والمسرحية لا تتعدى كتاباتهم الترجمة إذا كانوا أمناء، والمسخ إذا لم يكونوا كذلك[14]، ثم يذهب إلى القول بان الأدب المصري سيطول جهاده قبل أن يكون قوميا بالمعنى الصحيح، ثم يقول أن الأدب السوداني الذي نوده لم يظهر حتى الآن، ولكنه يطمع في ظهوره مستقلا عن مصر وبظهور هذا النوع من الأدب في البلدين سيكمل كل منهما الآخر، ثم يختم مقاله بقوله « .. فاعذرونا يا إخواننا المصريين، وساعدونا على ما نريد لأن في انفصال الأدبين وقيام كل منها بذاته خيرا للبلدين، وثقوا أننا لا نرضى بكم بديلا، ولكننا لا نستطيع أن نقول لكم إننا نفضلكم على أنفسنا فهذا منطق لا يقبله العقل»[15] .

وقد رسم لبث الشعور القومي اتجاهات ثلاثا هي: تحويل عصبية القبائل

إلى عصبية وطنية شاملة، وذلك بأن يلقن الأطفال في قصص مبتكر بطولات عثمان دقنة، وعبد الله ولد سعد، وعبد الرحمن النجومي، ومحمد أحمد المهدي، بدلا من أحاجي الغيلان، وقصص السحرة «وحبذا لو نظمت قصص هؤلاء الأبطال في شعر عربي يحس جلاله الشباب الناهض المثقف، وفي غناء سوداني يفهمه ويسيغه الجمهور والأطفال»، أما الاتجاه الثاني فيدور حول كتابه تاريخ السودان من أقدم العصور حتى الوقت الحاضر، ذلك لأن الأمة إذا جهلت تاريخها لا يتيسر لها الشعور بقوميتها، على أن يحكم الصدق كل ما يكتب، أما ما يكتبه الأجانب والمغرضون فإنه يقتل الشعور القومي، وهو يعتمد في هذا على قول «أبرا هام لنكولن: < إن تاريخ واشنطون عن أمريكا من أهم الكتب التي ساعدتني على بناء حياتي.. أما الاتجاه الثالث لبث الشعور القومي فهو اللغة التي نتكلمها، ومعنى هذا أن نشعر بعظمتها، وأن نمجدها، وأن نضعها فوق سائر اللغات، وهذا يتطلب منا إتقانها لنحسن التعبير بها عن أفكارنا وعواطفنا، وهو لا يذكر في هذا المجال إلا ما يخلفه الأدباء من شعر ومقالات وقصص وروايات، بالإضافة إلى الغناء.. والشاعر الذي يصور الحياة حسب ما يتخيلها العقل السوداني، وتحسها النفس السودانية، وتفيض في تصوير الآلام والآمال التي يحسها الأفراد في وحدتهم ولم تجمع عليها كلمتهم كجماعة، يقوم بين قومه مقام الوسيط، يوحد مشاعرهم، ويجعل منهم وحدة متينة البناء[16]. وقد ظل محمد أحمد محجوب وفيا لهذا الاتجاه، وقد أكده بكتيب نشر في عام 1941 بعنوان «الحركة الفكرية في السودان إلى أين يجب أن تتجه». وعلى كل فإذا كان هذا الاتجاه قد حمل لواءه أساسا هؤلاء الذين كانت ثقافتهم إنجليزية إلى جانب الثقافة العربية كحمزة الملك طنبل، ومحمد أحمد محجوب، ويوسف التني[17]، فان هذا الاتجاه قد وجد عند الآخرين الذين كانت ثقافتهم عربية بحتة بنسب متفاوتة، ونحن لا ننسى هنا الدور الذي ركز عليه محمد عبد الرحيم، فقد طالب أن يكون للسودان أدبا خاصا «يحمل طابع شمسه المشرقة، وطغراء بدره الوضيء، ويخص بعناية الحياة السودانية وحدها منحنيا عليها يصفها ويحللها ويصدر عنها» وهو لا يكتفي بهذا وإنما يطالب «بالانكماش» على النفس السودانية[18]، وقد كان من الطبيعي لإخلاء الطريق الجديد أن تكون هناك ثورة على القديم على نحو

ما فعل الأمين علي مدني الذي راح يبشر بآرائه من خلال هجومه على واحد من شعراء الرصانة هو عبد الله البنا، فقد كان يرى أن شعره شعر صناعة وتقليد[19].

١١ الشعر في هذه الفترة

قد يكون من الصعب وضع شعر قطر عربي في مدارس محددة يأخذ بعضها من بعض، بحيث تكون لكل مدرسة ملامحها الخاصة بها، ذلك لأن الشعر العربي في مراحله المتعددة كان يعرف «التداخل» أكثر مما يعرف «التمايز»، وكان يعرف «الزحف» أكثر مما يعرف «القفز» ولقد كان في الغالب أسيرا للنمط القديم، ثم انه كانت هناك فترات انقطاع حضاري، وكان الكثيرون يبدءون بالبناء على القديم لا على ما تم إنجازه من تجديد داخل المسيرة الشعرية، وفي ضوء هذا ندرت الطموحات الشعرية، وأصبح من المألوف العزف على الأوتار القديمة، ولعل مما ساعد على هذا ارتباط الشعر بالطبقة العليا من المجتمع، ونظر هذه الطبقة إلى الشعر، ورغبتها في أن يكون أداة ترفيه لها، ولعل هذا يفسر كيف أن الشاعر كان «يلوذ» بمقدمة القصيدة ؟ وكيف أنه من خلالها كان يتنفس تنفسا طبيعيا إلى حد كبير، فالشعر العربي الحقيقي يوجد في المقدمات لأنه من خلالها كان يتحقق «حضور» الشاعر، أما ما وراء ذلك فقد كان «عباءة» يمكن أن توضع على أكتاف كل الممدوحين.. والمعشوقات... الخ.

ثم أننا يجب ألا ننسى أن كثيرا من الشعراء كانوا يعيشون في عوالم غير شعرية، وكانوا يغلقون أنفسهم على ما حصلوا، وكانوا يفصلون بين الشعر وبين عوالم الفكر والأدب والفن، وكانوا يرضون بالسقوط على مواطن العطاء المادي، وفي ضوء هذا كانوا مجرد أبواق لما يطلب منهم، وقد ساقهم هذا للتعامل مع «الانفعال» لا مع «الفعل» ولأمر ما قلت-علي طول المسيرة الشعرية-حركات التجديد، بل لقد اشترك بعض الشعراء-مع القوة المحافظة- في محاربة التجديد بشراسة.

.. وعلى كل فنحن نجد الشعراء السودانيين في هذه الفترة، يحاولون إلى حد ما الخروج عن «النمط الفردي» إلى أنماط أخرى سياسية واجتماعية تتمثل أكثر ما تتمثل في قضايا الوطن، فالسودان كان محكوما حكما شاذا لدولة كانت تملك ناصية الأمور، ولدولة كانت هي الأخرى محكومة إلى حد ما بمن يملك ناصية الأمور في الجنوب، وهكذا كتب على السودان أن يحارب في أكثر من جبهة، وتحت أكثر من شعار.

وعلى كل فسنحاول النظر إلى الشعر من خلال تيارات عرفت كيف تصل إلى أساليب، وان كان الملاحظ أن هذه الأساليب ظلت دائما قاصرة عن الوصول إلى ما اصطلح على تسميته بالمدارس في الشعر.

12 التيار التقليدي

من الملاحظ أن الشعر في السودان قد اشتد عوده في ظلال الأنموذج المملوكي والتركي، فقد كان هذا الشعر هو المتاح لهم، وهو الذي يتحرك على الساحة، على أنه بعد فترة قد أخذ حركة راجعة قبل عصري المماليك والأتراك، فقد اطلع الناس على نماذج من الشعر الجاهلي والأموي والعباسي[1]، وعلى النماذج التي انتفعت بهذا التراث في مصر ابتداء من محمود سامي البارودي إلى شوقي وحافظ، وهو حين اهتدى إلى هذا يمكن القول بأنه حصل على لؤلؤة حقيقية، ذلك لأنه عثر على الأنموذج الأثير الضائع منه، والذي كان يسمع عنه ولا يتمرس به، وفي الوقت نفسه كان يهدر ورائيا في الأعماق، ومع أن ظل هذا الأنموذج التقليدي ظل مطروحا على كل العصور، إلا أنه وجد استجابة واضحة استدعتها ظروف العالم العربي، فقد كان يقدم للمتعامل معه نوعا من «التماسك الحضاري» ذلك لأنه عاش مع كل الأجيال وفي كل العصور، فهو إلى جانب أنه يساعد على أن يمسك الإنسان بحضارته، فانه يحتفظ بنوع من الزهو أو «الفخر» الذي يجعله يصر على مقاومة العالم الكريه الذي يعيش فيه، خاصة وأننا نعرف

أن هذا العالم قد سقط أمام الغزو الأوربي، وهكذا كان الشعر المعتمد على الأصول المتوارثة راية من رايات الدفاع، ولأمر ما رأينا الكثير من الشعراء يبالغون في المحافظة على الشكل التقليدي، فيقدمون قصائدهم بالمقدمات المتوارثة التي تتحدث عن الأطلال، والتشبيب، والرحلة، ثم يتخلصون بعد ذلك إلى ما يريدون، هذا بالإضافة إلى استخدام الموسيقا والصور القديمة، بعبارة أخرى نحن نرى أن «البداوة القديمة» كانت ضرورة استدعتها ظروف السودان، ولأمر ما رأينا أن هذه البداوة هي المقدمة الحقيقية للثورات الأولى في العصر الحديث، ولعله يجيء في مقدمة هذه الثورات الثورة العرابية، ولعل مما ساعد على هذا أن عنصر «البداوة» كان حقيقة في حياة الناس وفي تفكيرهم، ثم أن هذه البداوة كانت ترتبط أساسا بفكرة «الإنشاد»، وقد كانت هذه الفكرة تزدهر في فترات التأزم السياسي، وقد حان الآن بعد فشل ثورتين أن يستيقظ الناس، وأن يدفعوا دفعا إلى اليقظة، ولقد كان الشعر هو الصوت الحقيقي ولهذه اليقظة خاصة بعد أن انتشرت النوادي العلمية والأدبية، وبعد أن تعود الناس على الاحتشاد في المناسبات، المهم أن الشعر التقليدي سبح سباحة شديدة في بحر السياسة، وأنه عبر بغزارة عن عدد من المواقف التي سادت هناك، فقد كان هناك شعراء وقفوا إلى جانب الإنجليز وقد كان هناك من وقف إلى جانب المصريين، وكان هناك من وقف إلى جانب سودان بعيد عن الإنجليز وعن المصريين، المهم أنه كانت هناك اجتهادات حول قضية الوطن، وأنه لم يكن هناك خلاف على الرغبة في أن ينال السودان حريته، ولكن الطرق تعددت من أجل هذه الغاية، وفي الوقت نفسه كان هناك من ضلل عن قضيته، وفي الحقيقة لقد حملت جريدة حضارة السودان تيارا انهزاميا محضا، فقد دعت إلى تمجيد الإنجليز، ونددت في الوقت نفسه بحركة اللواء الأبيض التي صفيت عام 1924 وقالت إنها محاولة خطرة وحركة صبيانية، ومأساة محزنة[2]، ولقد رأينا عددا من الشعراء يصبحون . أبواقا للإنجليز، ويحاولون دائما تحسين صورتهم عند الناس، فقد رأينا الشاعر إبراهيم محمد عبد العاطى يتحامل على الطلبة الذين يريدون التعبير عن حريتهم بالإضراب، ولا ينسى تمجيد الحاكم العام.

وهـــذا حـــاكـــم الـــســـودان فـــيـــكـــم
يـــقـــلـــد جـــيـــد شـــعـــبـــكـــم فـــريـــدا
ســـبـــرنـــاه فـــألـــفـــيـــنـــاه بـــرا
وبـــالإحـــســـان مـــنـــصـــفـــا حـــمـــيـــدا
وكـــان زمـــانـــه عـــدلا ويمـــنـــا
وخـــيـــرات، ورحـــمـــات وعـــيـــدا[3]

وهذا الشريف محمد أحمد عبد الرحمن يمدح الحاكم العام:

أنـــل الـــشـــعـــب هـــنـــاء وســـرورا
وامـــلأ الـــقـــطـــر نـــعـــيـــمـــا وحـــبـــورا
واقـــض بـــين الـــنـــاس مـــا شـــئـــت تجـــد
شـــعـــبـــك المخـــلـــص لـــلـــنـــعـــمـــى شـــكـــورا
وارض بـــالإخـــلاص مـــنـــا ثـــمـــنـــا
فـــلـــكـــم كـــنـــت بـــه مـــنـــا جـــديـــرا
رجـــل الإصـــلاح صـــلـــهـــا ســـبـــلا
وكـــن المـــرشـــد فـــيـــنـــا، والأمـــيـــرا

وجريا على خلق «الأنموذج» في الشعر القديم نرى أن بعض الشعر في هذه الفترة قد دار حول الحاكم العام، على نحو قول حامد أحمد فيه:

دعـــونـــي أرمـــق الآمـــال فـــيـــه
فـــهـــذا الـــركـــب بـــالأمـــل اســـتـــقـــلا
أيـــا «جـــوفـــري أرثـــر» تـــه دلالا
وعـــش مـــا عـــشـــت لـــلـــســـودان مـــولـــى[4]

وكان هناك من نسب كل مكرمة إلى «السير جيمس كري» في القصيدة التي منها:

كـــأن ربـــك أوصـــاهـــم بـــأمـــتـــه
وخـــصـــهـــم بـــالـــرضـــا عـــن كـــل إنـــســـان[5]

وكان هناك من رثى من مات منهم[6]، ومن كرم بعض شخصياتهم العامة[7]، وفي الحقيقة لقد شاعت عند البعض نغمة إكبار الإنجليز، ومن نظروا إليهم بعيدا عن قضية الوطن، على نحو ما نعرف من شعر علي نور الذي يقول فيه:

قـــوم عـــلـــى أخـــلاقـــهـــم
قــامــت أواصــرهــم مــتــيــنــة
ولــهــم عــلــى كــل المــمــا
لــك أن تــكــون لــهــم رهــيــنــة
وبــكــل بــحــر زاخــر
مــا يمــلــكــون بــه مــتــونــه
جــعــلــوا شــعــارهــم هــزبــرا
أغــلــبــا يــحــمــي عــريــنــه
ولــو أنــهــم جــعــلــوه ثــورا
وهــو أجــدر أن يــكــونــه
قــلــنــا الخــرافــة صــدقــت
فــالأرض حــمــلــهــا قــرونــه[8]

وقد بارى الشاعر أحمد محمد صالح بالإنجليز كرام قومه، وهلل لانتصارهم في الحرب العالمية الثانية في القصيدة التي أولها:

هــتــفــت ورقــه وغــنــى هــزاره
وضــح الحــق واســتــطــال مــنــاره [9]

وقد تحمس لهم الشاعر عبد الرحمن شوقي وأعطاهم حق الوصاية على الشعوب:

مــلــكــتــم جــمــيــع الأرض شــرقــا ومــغــربــا
فــطــوعــا وكــرهــا كــل شــيء لــكــم يــجــبــى
وكــنــتــم لــهــذا الــكــون شــمــســا مــنــيــرة
وقــطــبــا لــهــذه الأرض إن ضــلــت الــقــطــبــا
فــأي بــحــار لــم تجــبــهــا ســفــيــنــكــم
وأي ســمــاء مــا وثــبــتــم بــهــا وثــبــا؟
وأي بــلاد لــم تــطــأهــا رجــالــكــم
ولــم يــصــبــحــوا فــي جــســمــهــا الــرأس والــقــلــبــا
وفــي الــغــرب أم فــي الــشــرق أرض ومــا بــهــا
لــكــم مــخــلــص إمــا دعــوتم لــه لــبــى

وفي البر أم في البحر لم تعلموا بما
يدبر من أمر وبالنمل إن دبا
أتشرق هذي الشمس في غير ملككم
وتغرب عن ملك ملا الشرق والغربا ؟
لعمري هذا الملك حقا أقامه
لكم مالك الملك الذي فلق الحبا
فجودوا على الوادي بفضل ونعمة
فبعض شعوب الأرض لما تزل غضبي
ولا ترهقوا أبناء ذا الوادي أنكم
تسوسوننا صدا.. نبادله حبا(10)

وهذا الشاعر حمزة الملك طنبل يشير إلى مساعدات الإنجليز لأسرته، فيقول متحدثا عن قبر أبيه:

بيتك السادر في حرز حريز
فهو يرعاه كرام الإنجليز
كم أجازونا كما كنت تجيز
لم تزل أنت على الناس (عزيز)
فرعى الرحمن من يرعى الذمام (11)

هناك نوع آخر من الإعجاب بالإنجليز نراه بصفة خاصة عند بعض الذين درسوا في بلادهم.

ويجيء في مقدمة هؤلاء الدكتور عبد الله الطيب، ونحن حين نقرأ شعره نحس بنبرة الإعجاب بهم، والانبهار بما يراه في بلادهم، وما يهمنا هنا هو موقفه المبهور أمام حضارتهم، وهو سخريته من نفسه فهو يقول في قصيدة طويلة:

أعطش ولا أهدى إلى شراب
بين الوجوه البيض كالغراب
أسأل مرتابا: أتلك حانة
في بلد فصيحة الرطانه
أختلس المدخل في المطاعم
خشية طرف عاذر أو لائم

وذات طــفــل أســكــتــت صــغــيــرهــا
لمــا رأت مــن ســحــنــتــي ديــجــورهــا
لــنــدن قــد أبــدع فــيــك «لام»
فــحــظ مــثــلــي الــعــي والإفــحــام
يــا فــرضــة الــبــحــر وعــز الأرض
ويــا مــديــنــة الجــمــال المحــض
.. هــذا هــو الــفــن وهــذا الــشــعــر
فــيــا لــقــومــي جــهــلــوا لــم يــدروا [12]

وهذه النبرة نجدها في قصيدة «حانة السود»، وفي قصيدة «لندن»[13] وبعض القصائد الأخرى، وللحق فانه تخلص منها في بعض القصائد إلى حد أنه فاخر بكردفان وقومه بلاد الإنجليز وحضارتهم كما في قصيدة «في كلوول»[14]

.. وفي مقابل هذا التيار «المستأنس» رأينا كتيبة من الشعراء تأخذ موقفا مغايرا من الإنجليز، فقد كان هناك من دعا إلى كراهيتهم، وشك في قدراتهم الحربية وكان هناك من صور طغيان الحاكم العام، وكان هناك من صب غضبه على تمثال «كتشنر» بالخرطوم، ومن دعا إلى إزالة تمثالي «كتشنر» و«غوردن» ومن ثار على الذين يطالبون بزيادة مرتبات الإنجليز، وعلى النظم الدستورية التي جاءوا بها، ومن ثار بصفة خاصة على قانون العقوبات، وعلى المجلس التشريعي، وقد كان من أقوى الأصوات في هذا المجال صوت الشاعر حسن طه الذي هاجم الإنجليز ومن يوالي الإنجليز في البلاد:

صــرتم ضــحــايــا أمــانــي الإنجــلــيــز فــهــل
قــدمــتــم الــشــعــب لــلــعــزى قــرابــيــنــا؟
الإنجــلــيــز عــرفــنــاهــم ونــعــرفــكــم
كــالــذئــب غــدرا وكــالحــربــاء تــلــويــنــا
قــد قــســمــونــا كــمــا شــاءت إرادتــهــم
وفــرقــونــا فــلــم تــعــمــر مــغــانــيــنــا
لــئــن شــكــرنــا لــهــم فــصــل الجــنــوب رأوا
أن يــنــشــبــوا رهــبــا أظــفــارهــم فــيــنــا

وان رأونـا نـصـلـي فـي الجـنـوب عـلـى
مـرأى مـن الـنـاس..ويـل لـلـمـصـلـيـنـا
أو قـلـدونـا وسـامـا كـان قـصـدهـم
أن نـسـتـكـين وأن نـحـنـي نـواصـيـنـا
وان أفـاءوا عـلـيـنـا مـن مـنـاصـبـهـم
قـد سـخـرونـا عـلـى ويـلات أهـلـيـنـا
ولا يـفـكـون أغـلالا بـأرجـلـنـا
إلا إذا أحـكـمـوا تـقـيـيـد أيـديـنـا

ولقد كانوا يتفننون في الرد على بعض الإنجليز الذين كانوا يذكرون أيديهم على السودان، على نحو ما نعرف من رد جعفر حامد البشير على «السير رو بر»:

مـنـنـت عـلـيـنـا «بـالـرفـافـة والـغـنـى»
وبـالـعـلـم والـعـمـران مـا أعـظـم المـنـى
وأردفـت أنـا قـد رفـعـنـا بـلادكـم
إلـى المـسـتـوى الأعـلـى وكـانـت مـن الأدنـى
تـردد مـعـنـى مـن «كـرومـر» خـالـدا
فـكـم قـال فـي مـصـر كـمـا قـلـت ممـتـنـا
تـقـول: تـقـدمـتـم كـثـيـرا بـعـهـدنـا
ونـحـن نـرى أنـا كـثـيـرا تـأخـرنـا
بـذرتم بـذور الخـلـف فـيـنـا فـأصـبـحـت
يـسـار الـذي يـدعـو تـخـالـفـه الـيـمـنـى
طـوائـف فـي طـول الـبـلاد وعـرضـهـا
إذا الـتـحـمـت عـشـتـم ولـكـنـنـا مـتـنـا
وحـاربـتـمـونـا فـي خـصـال كـريمـة
غـنـيـنـا بـهـا دهـرا وكـانـت لـنـا حـصـنـا [15]

فإذا جئنا إلى موقف الشعر من مصر وجدنا إلى جانب هذا الموقف شعراء كثيرين يجيء في مقدمتهم شاعران كبيران هما محمد سعيد العباسي، وعبد الله عبد الرحمن، فالأول كان من بيت ديني له ميل قديم إلى مصر، كما أنه تلقى بعض التعليم في القاهرة وقد ظلت الفترة التي

عاشها حية في نفسه ترفده بالكثير، وفي الحقيقة لقد غنى لمصر غناء مشجيا، ولقد أحب من يحبها، وكره ومن كرهها[16]، وأدار الحديث عنها بأكثر من طريقة على نحو ما نعرف من قصيدته الطويلة التي بعنوان «أسمعينا جنان» والتي جاء فيها:

أسفري بين بهجة ورشاقة
ورأينا يا مصر تلك الطلاقه
ودعي الصب يجتلي ذلك الحسـ
ـن الذي طالما أثار اشتياقه؟
كلنا ذلك المشوق وهل في الـ
ـناس من لم يكن جمالك شاقة
أنت للقلب مستراد وللعيـ
ـن جمال يغري وللشم طاقة
أنت عندي أخت الحنيفة ما اسماك
دينا.. وما أجل اعتناقه! [17]
وهي عند. «بنت الكرام»:
قد ظمئنا بنت الكرام فهاتي
كأس خمر يزجى فقاقيع خمر
وتعالى نعيد خدا لخد
قد برانا الجوى وثغرا لثغر
جرد الحال من يقيني ظنا
فاستعدت الأشياء كالمتقرى [18]
وهي عنده مارية:
فيا مار سيري ولا تخدعي
فينتزع القرط يا ماريه [19]

وقد ظل يذكر دائما خروج الجيش المصري بعد أحداث عام 1924 كما في قصيدة «مليط»، وقد أهدى ديوانه لأستاذه المصري الشيخ عثمان زناتي، وله قصائد رحبة في الدكتور زكي مبارك وأحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، وعواطفه تفيض فيضا عند الحديث عن مصر كما في قصيدته الطويلة التي بعنوان كفاح مصر، فقد جاء فيها:

بنو الكنانة ما أشهى الحديث بهم
إلى النفوس، وما أغلاهم قيما
زدني سؤالا أزدك اليوم معرفة
بهم فما كان ذو جهل كمن علما
هم الكرام فكم فيهم أخو ثقة
حلو الشمائل تندى كفه كرما
ولا وربك ما كانوا لنا أبدا
بقاسطين، ولا كنا لهم خدما
حصن نعمنا به حينا فمذ لعبت
يد السياسة مال الحصن فانهدما [20]

وإذا كان شعر العباس يقترب من مرحلة «الوجد» بمصر، فان عبد الله عبد الرحمن وصل إلى هذه المرحلة في حديثه عن الوحدة بين الشمال والجنوب، ولقد كانت الأداة التي عزف عليها بطلاقة هي النيل، وقد أطلق عدة صور ذكية في هذا المجال:

ما مصر والسودان إلا في رباه عشيرتان
وربيبتان بحجره، وعلى هواه مقيمتان
(و) تحدر من أقصى الجنوب ولم يكن
لتمنعه حساده وعواذله
تحدر لا عن جفوة لجنوبه
ولكن شوقا للشمال يداخله
(و) لا تقبلوا غير الجلاء ووحدة الـ
وادي وإلا ضاعت السودان
النيل يجري للشمال فان جر
ينا للجنوب الفصل والخذلان !
(و) سبقت إلى أهدافها مصر
فشمالها وجنوبها حر
واستقبل الوادي موحدة
في النيل دولته لها الأمر

رؤيـــا تـــطـــالـــعـــنـــي ومـــن زمـــن
هـــل عـــنـــد صـــدقـــي لـــلـــرؤى عـــبـــر

وتأمل قوله:

مــن قــال قــطــر وقــطــر فــهــو فــي نــظــري
كــمــن يــقــول بــأن الــواحــد اثــنــان
(و) إنمــا مــصــر والــعــروبــة والــســو
دان شــعــب أبــى الإلــه انــفــصــالــه(21)

وما أكثر الشعراء الذين تحدثوا عن الوحدة وعن الروابط بين مصر والسودان على نحو ما نعرف من الشعراء حسن طه، أحمد علي طه، وعبد الرحمن شوقي، عبد النبي عبد القادر مرسال.. . الخ.

والى جانب هذا كان هناك من وقف إلى جانب مصر ثم أعرض عنها، على نحو ما نعرف من قول أبي القاسم محمد عثمان في الوحدة:

كـــنـــت أشـــدو بـــهـــا هـــزارا وفـــيـــا
فـــتـــســـيـــر الأيـــام أيـــان أذهـــب
غـــيـــر أنـــي صـــحـــوت مـــن حـــلـــم زاه
ومـــن نـــومـــة الـــضـــمـــيـــر المخـــضـــب
لـــســـت أرضـــى إذا اســـتـــبـــاح كـــبـــيـــر
كـــبـــريـــائـــي، ولـــســـت أعـــنـــو لمـــنـــصـــب
إن فـــي مـــصـــريـــا نـــديمـــي يـــا شـــيـــخ
حـــيـــاة إلـــى المـــذلـــة تـــنـــســـب
قـــد زهـــدت الـــغـــنـــاء فـــي وحـــدة
الـــنـــيـــل فـــمـــا الـــواحـــد الـــقـــديـــر ســـوى الـــرب
نـــحـــن شـــعـــب مـــن المـــنـــابـــع بـــهـــم
وبـــنـــو مـــصـــر فـــي تـــهـــافـــتـــهـــم شـــعـــب (22)

وكان هناك من ناصب الوحدة العداء، وخاطب إسماعيل الأزهري أحد المتعلقين باسمها قائلا:

فـــدع عـــنـــك فـــكـــرة الاتحـــاد ونـــحـــهـــا
ونـــاد بـــاســـتـــقـــلالـــنـــا فـــهـــو أكـــرم

فــشــعــبــك خــيــر مــن شــعــوب كــثــيــرة
وأرقـــى وأســـمـــي بـــل أعـــز وأكـــرم
أمـــا قـــلـــت أن الاتحـــاد وســـيـــلـــة
وقـــلـــنـــا قـــبـــلـــنـــا مـــا يـــقـــول المـــعـــلـــم
بـــربـــك هـــذا الاتحـــاد حـــقـــيـــقـــة
لـــه أنـــت تـــســـعـــى أم بـــه أنـــت تـــوهـــم[23]

وكان هناك من رفض الوحدة كمبارك المغربي:
مـــا كـــنـــت قـــبـــل الـــيـــوم طـــالـــب وحـــدة
مـــاضـــي الـــكـــنـــانـــة لا يـــريـــد مـــفـــســـرا [24]

وقد تلمس البعض المشكلات تلمسا للنيل من مصر، فحين أثيرت مثلا «مشكلة المياه» بين البلدين تفجر شعراء مثل أبي القاسم عثمان، ومحمد محمد علي، والدكتور عبد الله الطيب، وحين أثيرت بعض القضايا الثقافية والسياسية هاجم مصر محمود النمر، ومحمد محمد علي، ومنير عبد القادر، والهادي آدم، وأحمد على طه، وعلي نور، ومبارك المغربي، ومحمد المهدي مجذوب، وعبد الحفيظ هاشم.. الخ

.. وفي الوقت نفسه كان هناك تيار هادئ يفسح للسودان مكانا بين الأساليب التي كانت تفرض نفسها على الناس، وقد كانت وسيلتها إلى ذلك التذكير بالثورة المهدية وانتصاراتها على نحو ما فعل كامل الباقر، ومختار محمد مختار، وحامد الضو، وخلف.. على أن الذي ركز على هذا الجانب بمهارة كان محمد المهدي مجذوب-وقد ظل هذا الاتجاه موجودا في كل مراحله الشعرية-على نحو ما نعرف من عدد من قصائده منها قصيدة المنتظر التي جاء فيها قوله:

بـــالـــســـفـــح مـــن «كـــرري» بـــقـــيـــة ثـــورة
حـــلـــمـــت بـــســـيـــف كـــريـــهـــة مـــدرار
جـــبـــل بـــه أثـــر الـــدمـــاء كـــأنـــه
عـــطـــر بـــذابـــل أغـــصـــن وثـــمـــار
أنـــبـــوءة فـــي صـــخـــرة مـــكـــتـــومـــة
لـــبـــثـــت وراء تجـــلـــد ووقـــار

مـكـثـت هـنـالـك فـالخـطـوب لـهـولـهـا

صـــور إلــيـــه ضـــوارع الأبـــصــــار

وله أكثر من لفتة إلى المهدي في عدد من قصائده كقوله:

قــد كــانــت الـــتـــقــوى لـــه عــصــمــة

وذمـــــة الإســــلام فــــي عــــهـــــده

لـــم يـــخــــدع الأمــــة فــــي أمـــــره

ولا طـــــوى الأحـــــفــــاد فـــــي بـــــرده

أزوره فــــــي قــــبــــــره طـــــاهـــــرا

اســتــلــهــم الإيمــان فــي خــلــده[25]

ونحن لا ننسى أن الشعراء الكبار في هذه الفترة قد انحازوا إلى بعض الشخصيات الكبيرة في المجتمع، وأنهم قد وقفوا عند هذه الشخصيات أحياء وأمواتا.

ومما يتصل بهذا الجانب التفاتهم إلى التاريخ السوداني على نحو ما نعرف مثلا من محمد سعيد العباسي في قصيدته بين القديم والحديث، على أن الوقفة الذكية حقا كانت على الطبيعة السودانية، فقد وقف العباسي على «مليط»[26] وعلى «وادي هور»[27]، كما أنه وقف على «النهود» و «جيرون» و «وادي الربدة» و «الأبيض».. الخ ومثل هذا فعل كثيرون يجيء في مقدمتهم محمد عمر البنا وأحمد محمد صالح وتوفيق صالح جبريل، على أن الذي يحاصرنا بعبير سوداني صرف، وبملامح سودانية أصيلة كان صاحب «الفجر الصادق» الشاعر عبد الله عبد الرحمن، فهو يقول فيها، وكان هذا عام 1934:

كـم لـلـطـبـيـعـة فـي الـسـودان مـن فـتن

وكــم لأطــيــارهــا مــن ســحــر ألحــان

مـا أكـثـر المـلـهـمـات الـشـعـر فـيـه ومـا

أمــدهــا لــلأديــب الــهــادم الــبــانــي

.. الـرمـل عـنـد ضـفـاف الـنـيـل تحـسـبـه

لـغـس الـشـفـاء جـلاهـا بـيـض أسـنـان

وظـلـمـة الـلـيـل فـي «الـعـتـمـور» مـلـهـمـة

خــوالــد الــشــعــر يــرويــهــا الجــديــدان

والسرح والسدر والجميز كارعة
من صيب القطر أو من فيض غدران
.. إذا مررت م «أم درمان» في «كررى»
ألقى عليك القوافي الخالد الفاني
كم «بالجزيرة» أو سهل «القضارف»من
مزارع حلوة المرأى وأقطان
وحلة ذهبت في جودها مثلا
ومنزل فيه تبتلى آي قرآن
الله أكبر تدوي في مساجدها
فتعمر القلب من دين وإيمان
والقوم سمر وجوه يسرعون إلى
ما ينبت العز من إكرام ضيفان
وفي «أبا»حيث تلقى الأرض كاسية
والطير خاطبة من فوق أغصان
هناك في «كردفان» أي متدع
للطرف في «بارة» أو أرض «خيران»
حيث البداوة في أجلى مظاهرها
والإبل طالعة من بين كثبان
ما أجمل الريف مصطافا ومرتبعا
وغادة الريف في عين وغزلان
الخد لم ترع موسى في جوانبه
والجيد من حسنه عن زينة غان [28]
فان يكن شعب بوان ازدهى نفرا
ففي البطانة كم من شعب بوان [29]
.. وسامر الحي من غيد وفتيان
بين البيوت وفي أعطاف وديان
في كل ليل تحاجيهم عجائزهم
بابن النمير وسوبا وابن سلطان
وتارة برهف الفتيان سمعهم

إلـــى نـــوادر أجـــواد وفـــرســـان

و«ابـن المحـلـق» لـم تـبـرح حـكـايـتـه

فـي الـنـاس يـسـردهـا أشـيـاخ حـمـران

يـا قـبـر«تـاجـوج» حـيـاك الحـيـا ومـشـى

بـصـفـحـتـيـك شـذى ورد وريـحـان

.. فـي الـبـلاد وفـي مـاضـي أبـوتـنـا

فـخـر وان لـم تـكـن تـعـنـي بـإعـلان

وكـم بـتـاريـخـهـا مـن قـصـة عـجـب

جـد الحـكـيـم ولـهـو الـوداع الـهـانـي

فـان يـكـن بـات فـيـهـا الحـر بـصـهـرنـا

فـلـلـحـرارة يـعـزى فـضـل شـجـعـان! (30)

وإذا كان بعض الشعراء «يستردون» وطنهم بالشعر، وكانوا يحسون أنهم كلما تكلموا عن جانب منه أعادوه إلى المواطنين، فان هناك بعض الشعراء الذين رفضوا هذا العالم الذي يرى فيه المحتل، ومن ثم كان «انسحابهم» إلى بعض الأطراف على نحو ما فعل عبد الله البنا حين اعتصم «بالبطانة»

رحـلـت إلـى «الـبـطـانـة» وهـي روح

وريـحـان.. وعـشـرتـهـا سـلام

تـنـاثـرت الـظـبـاء عـلـى ثـراهـا

وراتـعـهـا مـع الأنـس الـسـوام

إذا ضـج الـبـهـام بـهـا عـشـاء

أجـاب مـن الـطـلا فـيـهـا بـغـام

وان غـنـت جـواريـهـا ابـتـهـاجـا

شـدا بـجـوانـب الأيـك الحـمـام

ريـاض الـلـه بـسـطـهـا فـكـانـت

دلـيـل وجـوده.. ولـه الـدوام

تـألـق زهـرهـا فـيـهـا نـثـارا

تـألـق مـن جـواهـره نـظـام

فـرادى كـالـيـتـائـم مـن وشـاح

وأحـيـانـا عـلـى نـسـق تـوأم

فـــمــــحـــمـــر كـــيـــاقـــوت نـــثـــر
ومـــصـــفـــر يـــقـــبـــل أو يـــرام
وأزهـــر كـــالـــثـــغـــور الـــلـــعـــس أحـــوى
لـــه فـــي وجـــه نـــاظـــره ابـــتـــســـام
تـــكـــاد شـــقـــائـــق الـــنـــعـــمـــان فـــيـــهـــا
تـــنـــادي «مـــا وراءك يـــا عـــصـــام ؟»
هـــنـــالـــك حـــيـــث تـــأتـــلـــق الـــعـــذارى
وتـــشـــتـــبـــه المـــســـاجـــد والخـــيـــام
وحـــيـــث تـــرى الـــنـــســـيـــم يـــضـــوع طـــيـــبـــا
فـــيـــحـــيـــا مـــن مـــراقـــده الـــغـــرام
وكـــل فـــريـــدة فـــي الحـــي لـــيـــلـــى
لـــهـــا قـــيـــس يـــؤرقـــه الـــهـــيـــام
.. رفـــاق الـــضـــيـــف أنـــى حـــل هـــبـــوا
نـــشـــاوى الجـــود فـــهـــو لـــهـــم مـــدام
يـــكـــاد الـــبـــشـــر يـــقـــطـــر مـــن وجـــوه
لـــهـــا لـــلـــضـــيـــف ضـــم والـــتـــزام (31)

وتتصل بهذا قصيدته، الدرامية التي أدارها بين بدوي ومدني وكيف انتصر للحياة البسيطة، وسخر من تلك الحياة التي يحياها الناس في المدن، على نحو قوله:

ابـــتـــدأ المـــقـــام بـــالـــســـلام
وقـــال حـــين ســـار فـــي الـــكـــلام
يـــا مـــن ألـــفـــت ســـكـــن الـــبـــيـــوت
ومـــا بـــهـــا مـــن مـــلـــبـــس وقـــوت
أن الـــبـــيـــوت حـــرهـــا شـــديـــد
ومـــا بـــهـــا لـــنـــعـــمـــة مـــزيـــد
المـــاء يـــشـــرى عـــنـــدكـــم مـــع الحـــطـــب
والـــنـــار والـــقـــش بـــأثـــمـــان الـــذهـــب
ولـــبن المـــعـــزى لـــكـــم يـــبـــاع
وهـــن فـــي بـــيـــوتـــكـــم جـــيـــاع

فلو سكنت معنا «البطانه»
لما رأيت مثلها مكانه
يكفيك من دنياك كلب صيد
يكون للغزلان مثل القيد
أنا إذا أمطرت السماء
فأرضنا جميعها خضراء
ابلنا من حولنا عظام
كأنهن رتعا نعام
وبقر الحي لها دوى
كأنما قرونها العصي
والضأن والمعزى تبيت حولنا
نحبها كحبنا أطفالنا
إذا ثغين مغربا في الساحة
فكالنساء صحن في مناحة

فهل كانت هذه العودة عودة إلى عرى الحياة وتجردها بمعنى أنها كانت عودة-على مستوى ميتافيزيقي-إلى البراءة والتطهر من شوائب حياة المدينة المصنوعة المجلوبة القيم [32]،في رأينا أن الفكرة أبسط من هذا كله فالعودة هنا بسيطة تتصل بعوالم قديمة عرفها الشاعر وألفها وتعمق في الوقت نفسه في قراءة الأدب الذي يمثلها، فهو يعيشها مرتين لا مرة واحدة، ثم أن هذا العالم لم تكن تمتد إليه يد الاحتلال، ثم أن جانبا من كرهه للمدينة كان يرجع إلى ما يذكره بأن وطنه محتل ومتمزق.. وهناك من غنى بعالم المدينة نيلا ونيما [33]، ووسيلة مواصلات، ومكتبا ومكتبة، وحديثا حول مدينة الخرطوم بوجه خاص [34]، وقد يحمل الشاعر هذا العالم معه في هجرته إلى الخارج على نحو ما فعل الدكتور عبد الله الطيب، ومع أنه يعاتب هذا العالم الخشن، إلا أنه في كثير من الأحيان يذوب شوقا إليه:

ألم ترني ضاعت حياتي كلها
وأفنيت روق العرفي بلد الكفر
واطردني ظلم لو أن شباته
على الصخر أو هي كيدها جلد الصخر

ومــن دون أوطــانــي فــجــاج عــمــيــقــة
وبــحــر دجــوجــي يــقــود إلــى بــحــر
وعــرض أوربــا كــلــهــا ثــم بــعــده
مــســافــة يم الــروم والــريــف مــن مــصــر
ومــاخــرة يــرغــو خــضــاره حــولــهــا
لــهــا عــركــى مــن ذوي الــلــمــم الــصــفــر
فــيــا لــيــت أن الــنــيــل يــدنــو فــمــاؤه
أحــب إلــيــنــا مــن مــعــتــقــة بــكــر[35]

وفي الوقت نفسه استمرت الأغراض المتوارثة المتمثلة في الغزل والتصوف والمدح والهجاء والرثاء.. الخ وكل ما يتصل بالمناسبات، وهي في أغلبها تسير على الطرق المطروقة، فهي تقلد صراحة، وتستوحي، وتعارض، وتقتبس، على أنه يجب أن نؤكد هنا-كما ذكرنا من قبل-على أن التراث القديم المؤكد لم يكن مستوعبا في السودان، وإذا كنا نشم رائحة القديم، ونقع في دائرة أسره، فان الذي وراء ذلك ليس هو استيعاب هذا التراث، ووقوف الشعراء عند بعضه، ولكنه في الغالب هو تلك الحياة التي تشبه الحياة القديمة في الجزيرة العربية في كثير من المناطق، وهو كثير من العادات المشتركة بين العرب القدامى وبين السودانيين، بل أن واقع الحياة في السودان الآن يمكن أن يفسر الشعر القديم [36] وان كان الأمر لا يخلو من قلة تعمقت في التراث والحياة هناك على نحو ما نعرف من الدكتور عبد الله الطيب، ونحن لا ننسى الجدل الذي دار بين الدكتور طه حسين وبينه حين تعرض الدكتور طه حسين لنقد ديوانه أصداء النيل [37]، وعلى كل ففي اللهجة السودانية-وفي الحياة أن صح التعبير-جانب لا ينكر من الجزالة، وفي ضوء هذا تكون جزالة الحياة أغلب على الشعر من جزالة التراث، وبخاصة أننا نعرف أن أكثر هؤلاء الشعراء كانت الثقافة العربية هي النبع الوحيد لهم، حتى أن أكثر الذين كانت لهم صلة بالإنجليزية كانوا في بعض الظروف يهدرون هذه الصلة من أجل العربية.

ومن خلال هذا التيار التقليدي يمكن القول بأنه كانت هناك إرهاصات تجديدية في هذا الشعر، وأن هذه الإرهاصات عرفت كيف تتواءم مع الملامح الرئيسية لهذا التيار، فمن خلال هذا التيار وجدت إلى حد ما

القصيدة الموضوعية، وقد تمثلت أكثر ما تمثلت في متابعة الحديث عن الشخصية المحمدية، وفي تقديم شخصية عثمان-والخليفة عثمان من الشخصيات المحبوبة عند السودانيين-على نحو ما نعرف من تلك القصة الرحبة التي كتبها عبد الله البنا، والتي ربما أريد بها اكتمال الدائرة في الشعر الحديث [38]، ثم كان هناك اتجاه إلى تقديم القصة على نحو ما نعرف من الانعطاف نحو حكايات كليلة ودمنة، وتقديم قصة منها بعنوان «السلحفاة والبطتان»وعلى نحو ما نعرف من قصة «أنا والأعرابي» وقصة «الناسك والأوهام» وقصة «ابن الملك وأصحابه» [39] وإذا كان قد أخذ على الشعر الفصيح الوقوع في أسر الحكام، وعدم الاحتشاد حول ثورة عام 1924، في الوقت الذي كان فيه شعر العامية يغلي بالأحداث ويهرع الناس إليه، فإننا رأينا عددا من الشعراء الكبار يقبسون-على حياء-من مفاهيم هذا الشعر، بل لقد رأينا الشيخ محمد سعيد العباسي، وهو من أعلام المقلدين ينقل معاني هذا الشعر إلى شعر فصيح [40]، وقد تستخدم بعض الألفاظ العامية على نحو قول الدكتور عبد الله الطيب:

وقلة فيها «غباش» مثل هدم «العربي» بل قد يعمد الشاعر إلى ذلك عمدا، كما في قصيدة «أمس زرنا أم دجاج» [41]

وقد يلجأ الشاعر إلى وزن شعري دارج يدور على تفعيلات الرجز اسمه «الجابودي» [42] وقد يكثر من «الخرم»-وهو حذف المتحرك الأول-ولعل وراء هذا التأثر بالعامية [43]، وقد لجأ الدكتور عبد الله الطيب في قصيدة ترنم إلى تفعيلة الكامل مضمرة وغير مضمرة، وطلب القراءة بدون وقف للوزن، ولولا أن هذا الشكل-والتجربة-غير ناضج لكان في مقدمة الذين دعوا إلى ما يسمى بالقصيدة المدورة.

وبصفة عامة رأيناهم قد فصلوا بين قضية اللفظ والمعنى، ووقفوا عند الألفاظ أكثر مما وقفوا عند المعاني، وداروا حول القيم الثبوتية في المجتمع وفي الكون، وأخذوا بالمفاهيم القديمة كالتضمين والمعارضة واستعمال المقدمات، وصهر التجارب بحيث تكون في خدمة عملية الإلقاء، والاعتماد على ظاهرة «طاقة الصوت»-وعلى تلوين هذه الطاقة-على نحو ما نعرف من الإكثار من أساليب النداء، والاستفهام، والتعجب، والندبة، والأمر والنهي، والإثبات والنفي.. . الخ هذا بالإضافة إلى الإكثار من الجمل الشرطية التي

تنغلق بعدها الدائرة، والى الإكثار من الحروف المتجانسة والى التركيز على القوافي المطلقة لا المقيدة، لأن حرف الروي قد يستطيل-بفضل الإنشاد-حتى يصبح حرف مد، بل قد يكون جزءا من بنية الكلمة، فهذه الظواهر ظواهر صوتية في المقام الأول، وهي تستدعي أنواعا من المد، وأنواعا من الشد، والضغط، والإمالة.. بل والقوافي، ولعل هذا يفسر غزارتها في الشعر العربي كله فضلا عن الشعر في السودان.

الحواشي

(*1) انظر تاريخ الثقافة العربية في السودان. د. عبد المجيد عابدين 218 ويخالف هذه المقولة د. محمد مصطفى هدارة في تيارات الشعر العربي المعاصر في السودان ص 79 وما بعدها.
(*2) انظر مثلا ما جاء في العددين. اللذين صدرا في 21/2, -11/4/1925 وتأمل مثلا قول الجريدة «قد يؤثر الحاكم العادل الصادر من الجنس الذي ليس من أهلك ولا دينه دينك تأثيرا قويا يجبرك على الإقرار بأنه خير من جنسك، وكثيرا ما يصدر هذا القول من الناس عندما ينصفون، فإذا سلمت لي بما قلت وجب عليك أن تحب حكومتك العادلة حبا جما».
(*3) ديوان الروادق 72, 73.
(*4) حضارة السودان في 8/11/1925.
(*5) حضارة السودان في 30/12/1925.
(*6) شعراء السودان 141.
(*7) نفسه 247.
(*8) مجموعة لم تطبع.
(*9) مع الأحرار ص 48.
(*10) صوت السودان في 1/5/1945.
(*11) الأدب السوداني وديوان الطبيعة 187.
(*12) ديوان أصداء النيل ص 58، والمعروف أن الدكتور عبد الله الطيب ليس أسود اللون، وهو يلحق نسبه في مقدمة الديوان بالعباس، والمقصود بلام في البيت. الخامس «شارلس لام» الأديب المشهور.
(*13) وللحقيقة فالدكتور عبد الله الطيب شيخ من شيوخ العروبة في السودان، ولعل هذه النبرة كانت في فترة الفزع الأولى حين تقابله مع الحضارة الإنجليزية في الشباب، ومن المعروف أنه من غلاة المحبين للعروبة والإسلام، وللشعر العربي بصفة خاصة، وتأمل قوله في مقدمة أصداء النيل «وقد قلبت نظري في كثير من الدواوين العربية والإنجليزية، واستقر في نفسي بعد الموازنة أن الشعر العربي ليس كمثله شيء مما قرأته في الإنجليزية، حتى ولا شعر شكسبير».
(*14) ديوانه ص 51, 61، وكلوول قرية زارها الشاعر بإقليم تلال مالفرن من أواسط إنجلترا الغربية، وفي هذا الإقليم قد عاش جماعة من شعراء الإنجليز.
(*15) انظر الشعر الحديث في السودان. د. عبده بدوي 545 وما بعدها.
(*16) تأمل قول الأستاذ محمد فريد أبو حديد في مقدمة ديوانه « .. وصاحب الديوان لا يفتأ يحن إليها حنين الكريم إلى وطنه الحبيب، وهو مثل خيار الكرام في شطر الوادي يرى أن حياة مصر والسودان إنما هي حياة واحدة لا تتحقق لأحد الشقين إلا بتحققها للشق الآخر.. الخ
(*17) ديوان العباس 82.
(*18) نفسه ص 50 وبنت الكرام لا يقصد بها الشاعر الساقية أو الساقي وإنما يقصد مصرفي هذا البيت والذي بعده.

(*19) مار: ترخيم مارية يقصد مصر، والقرط يعني به السودان.
(*20) ديوانه ص 74، 160، 164، 177، 178
(*21) ديوانه الفجر الصادق 84 وما بعدها.
(*22) جريدة العلم في 23/1/1949.
(*23)السودان الجديدة في 15/6/1955
(*24)عصارة قلب 95 وما بعدها.
(*25) نار المجاذيب 31، 123، وفي كرري-وهي جبال بالقرب من أم درمان-كانت الموقعة الفاصلة بين السودانيين والإنجليز
(*26) بفتح الميم وكسر اللام المشددة، مركز من مراكز دارفور، ويشق مليط واد عظيم يسمى وادي مليط يأتيها من الغرب، وبها كثرة كاثرة من النخل والفواكه.
(*27) اسم واد يقع غرب السودان، وحوله من الآثار ما يدل على أنه كان مثوى حضارة قديمة.
(*28) إشارة إلى أن الخد لم «يشلخ» على عادة بعض السودانيين في التشريط على الخد
(*29)يشير هنا إلى قصيدة المتنبي في شعب بوان.
(*30)ديوان الفجر الصادق ط 1 ص 68.
(*31) يشير إلى عادة محلية خاصة بالسلام في السودان.
(*32) راجع الشعر الحديث في السودان. د. محمد إبراهيم الشوشي 1/80.
(*33) شجر يكثر في السودان.
(*34) أصداء النيل. د. عبد الله الطيب 40 وما بعدها.
(*35) نفسه، خضاره: هو البحر. العركي: الملاح، والمقصود البحارة الأوربيون.
(*36) تأمل هذا الهامش الذي كتبه الدكتور محمد النويهي في الاتجاهات الشعرية في السودان ص 15، 16- .. درست الأدب العربي القديم في مصر، وكنت أعتقد أنني أفهمه، ولم أدركم كان فهما نظريا إلا حين أرسلت إلى السودان وعشت فيه، وتجولت في تلك البيئة القريبة الشبه لما وصفه الشعراء القدامى، ورأيت للمرة الأولى في حياتي كثيرا من النبات والحيوان والمناظر الطبيعية التي سجلوها، إذ ذاك فقط بدأت أفهم الأدب القديم فهما حقيقيا شخصيا مباشرا، ولعل في هذه الحاشية الشخصية ما يحمل دارسي الأدب ومدرسيه المحترفين على أن يكملوا دراسهتم النظرية بالدراسة «الحقلية» فان الاكتفاء بدراسة دواوين الشعراء وشروح القدماء والغوص في رفوف المكتبات لا يغني عن التجربة الشخصية المباشرة في فهم الشعر القديم، والتشرب بروحه مهما تكن مقدرة التخيل لدى الدارس».
(*37) قال الدكتور طه حسين ينتقد هذا البيت للدكتور عبد الله الطيب:
فظللت أرضي النفس بعد نفارها
وأكرهها حتى استمر مريرها
أي الناس يستطيع أن يفهم هذا البيت إذا لم يكن من أساتذة الأدب الذين عرفوا دقائق اللغة، وتعمقوا شعر القدماء من شعرائنا، ولا سيما حتى استمر مريرها هذه، وما على الشاعر لو قد آثر اليسر فقال: حتى اشتدت قوتها وعرفت كيف تحتمل الأحداث وتصبر لها، والبيت الذي يلي هذا البيت كيف السبيل إلى فهمه دون الرجوع إلى المعجمات:
على حين قاربت الثلاثين وانتمت
إلى المرء أحداث كثير شقورها

لفهم كلمة الشقور هذه، والشاعر نفسه يفسر لنا هذه الكلمة بأنها الأمور فما ضره لو اصطنع كلمة الأمور نفسها فأقام وزنه وقافيته ولم يغير من جمال الشعر شيئا:

سكرى الشباب سبنتاة اللحاظ بها

فتك بنفسي وخمر بين أوصالي

وهذا البيت وكلمة السبنتاة خاصة فيه كيف استطاع المعاصرون أن يفهموها دون الرجوع إلى معجم من المعجمات، وكيف السبيل إلى أن يذوقوها بعد أن يفهموها، أما شاعرنا فيصطنع السبنتاة هذه في وصف عذراء حسناء قد أسكرها الشباب، وأي بأس عليه لو اصطنع كلمة أخرى!

وقد جاء في رد الدكتور عبد الله الطيب.. أما بعد يا سيدي فأنا بدوي حقا لأن أهل السودان الشمالي كلهم أقرب إلى البداوة، ولهجتهم الدارجة فيها غريب كثير، وقد حاكيتها في نظمي كثيرا، واجتهدت أن أنقل إلى القارئ لونا من جزالتها وجزالة قومي، وليعذرني سيدي أن قلت، إن أول معرفتي بالعربية كانت من طريق اللهجة الدارجة في أناشيدها وشعرها-راجع الشعر الحديث في السودان. د. عبده بدوي 641, 642.

(*38) كتب عبد الحليم المصري البكرية، وكتب حافظ العمرية، وكتب محمد عبد المطلب العلوية الأولى والعلوية الثانية.

(*39) انظر الشعر الحديث في السودان د. عبده بدوي 444، وللدكتور عبد الله الطيب قصيدة تمثيلية بعنوان قيس وليلى في ديوانه أصداء النيل 82 وما بعدها.

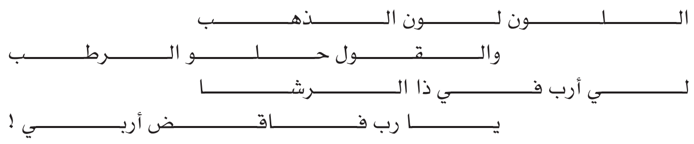
(*40) حين سمع في مضارب أولاد طريف صوتا بدويا ينشد:

يـــــا أب لـــــــونـــــا ســــــمــــــري
يـــــا أب حـــــديـــــثـــــا تمــــــري

الــــــــــدوار أنـــــــــــــي
يـــــا الــــلــــه تجـــمـــع شـــمـــلـــي

- المعنى يا صاحب اللون الأسمر، والحديث الحلو كالتمر، أنى تائه أبحث عنك، فالله يجمع شملنا-

- قال:



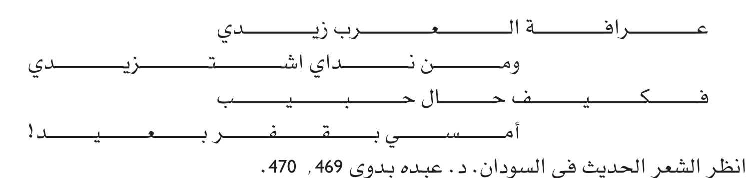
وحين سمع أغنية تقول:

خـــتــــانـــه خـــتـــى زيـــدي
بـــكـــريـــكـــي بـــي مـــجـــيـــدي

شـــوفـــي لـــي حـــبـــيـــبـــي
فـــي الـــبـــلـــد الـــبـــعـــيـــد

- المعنى. أن البدوية تستنجد بالعرافة، وتعدها بريال «مجيدي» أن استطاعت إرشادها إلى حبيبها الذي غاب في بلد بعيد-

قال:


عرافة العرب زيدي
ومن نداي اشتزيدي
فكيف حال حبيب
أمسي بقفر بعيد!

انظر الشعر الحديث في السودان. د. عبده بدوي 469, 470.

(*41)أصداء النيل 46. غباش من عامية السودان، والعربي باللهجة السودانية تعني الأعرابي. والهدم الثوب القيم.

(*42) نفسه57 في الجاهلية أصناف منه، ومن أمثلته السودانية:

يا صندل الشقيقه
تهموني بيك رفيقة
والناس عجم ما بيدروا بالحقيقة

(*43) نفسه 22, 28.

13 التيار الوجداني

أشاع فشل ثورة 1924 الحزن في الناس، وكان أن انسحبوا إلى داخلهم يفكرون، ولقد كان مما ضاعف الحزن وفجره في آخر الأمر أن قبضة الإنجليز قد اشتدت على البلاد، وأنه أخذ أكثر من إجراء لأحكام عملية الفصل بين مصر والسودان، وقد وصل الأمر إلى تحويل المتعلمين إلى بيروت، والى توثيق الصلات بينهم و بين الزعماء الطائفيين والعشائريين على حساب الكثرة الكاثرة من الناس، وقد سموا السنوات التي أعقبت الثورة باسم «السنوات العجاف» على أن الأمور قد عادت إلى صالح السودانيين حين أقرت معاهدة 1936 مبدأ عودة المصريين إلى السودان، ومع أن عودة المصريين كانت «اسمية» إلا أنها أنعشت آمال كثير من السودانيين، وقد كان من ثمرة هذا ظهور «مؤتمر الخريجين» كقوة فعالة في تاريخ البلاد عام 1938، ثم كان ظهور الأحزاب والمجلس الاستشاري، والجمعية التشريعية، والمجلس التنفيذي، وكل هذا وغيره كان مكاسب تنتزع انتزاعا، وقد كان السودانيون دائما يطالبون بالمزيد، ثم كان موقف ثورة 1952 في مصر موقفا مشرفا من خلال اتفاقية السودان التي أبرمت عام 1953[1].

لقد تم في أول الأمر إفراز عدد من التيارات العدمية، فقد رأينا مثلا واحدا من رجال ثورة 1924 يئن و يتحسر ويأخذ في شكوى الزمن، على نحو ما نعرف من قصيدة طويلة لصالح عبد القادر يقول فيها :

لا تلمني فتكن متهمي
إن عقلي لم يكن متهما
ولم الدهر على تقصيره
أخطأ الدهر وعمدا ظلما
ليته يعلم ما أعلمه
حيث لا يجعل حظي ندما
أبدا والله لا أعذره
طالما جار وحقي هضما
وطواني في زواياه التي
ضيعت ناسا وداوت أمما
بيننا معرفة لكنه
غض عني الطرف لما حكما
.. يا بني قومي أفيقوا إنكم
ما خلقتم لتعيشوا غنما
ليتني أعرف ما أحزنكم
سادة كنتم فصرتم خدما
ولقد يحزنني أني أرى
رأيكم مختلفا منقسما
فأفيقوا يغفر الله لكم
واطلبوا العليا وجاروا الأمما(2)

ومثل هذه النغمة نجدها عند الشاعر حسن عمر الأزهري على نحو ما هو معروف من قصيدته التي يقول فيها :

لعب السكسون بي هل سلمت
كرة ترمى بأقدام عتاه
أثقلوني ميرة واحتكروا
كل مشروع سوى باب السفاه

أمـــســـكـــوا مـــن قـــلــــمـــي بـــل أمـــســـكـــوا
لـــفـــظـــة تـــخـــرج مـــن بـــين الـــشـــفـــاه
فـــالـــتـــزمـــت الـــصـــمـــت حـــتـــى لـــم أقـــل
فـــي كـــلامـــي غـــيـــر آه ثـــم آه

وفي الوقت نفسه تكلم كثيرون عن الموت، على نحو ما نعرف من ديوان وادي عبقر للدكتور سعد الدين فوزي بصفة خاصة.

وهناك تلقف أخبار الموتى للقيام بواجب الرثاء، بل لقد كان من الغريب حقا أن توفيق صالح جبر يل الذي فجر القصيدة الأولى من قصائد ثورة 1924، قد أنفصل تماما عن هذه الثورة، فديوانه الذي صدر في أربعة أجزاء قد تحول إلى خطين رئيسيين هما شكوى المرض والحياة والدندنة حول كؤوس الخمر، وان كانت تحفظ له إلمامة نحو أربعة من رجال الثورة وحين رثى بشير عبد الرحمن عرض بالإنجليز تعريضا «مهذبا»:

أودى بـــأربـــعـــة صـــدور فـــي الـــوغـــى
يـــا ويـــحـــهـــم ألـــقـــوا صـــدور رمـــاح
فـــي حـــفـــرة مـــن بـــعـــد أن أصـــلـــوهـــم
نـــارا تـــوقـــد فـــي الـــنـــهـــار الـــضـــاحـــي
ومـــضـــوا «بـــســـر الـــخـــتـــم»بـــعـــد صـــفـــيـــه
رب «الـــلـــواء الأبـــيـــض» الـــوضـــاح [3]
لـــلـــســـجـــن، لـــلـــتـــشـــريـــد،لا لجـــريـــرة
مـــا الـــذود عـــن أوطـــانـــهـــم بـــجـــنـــاح

ومما يتصل بهذا الجانب العدمي الإقبال على الهجاء، فقد هجوا المدن، والشوارع، والمؤسسات، والرؤساء، والأصدقاء، والأعداء.. . الخ ولقد كان وراء ذلك الاضطهاد والمرارة و«التنفيس» عن أشياء كثيرة تمتلئ بها النفس، وقد انبثقت من هذه الأرضية جماعة سمت نفسها «شعراء الكتيبة» كان مقرها مكتبة حسن بدري بأم درمان، ولقد كانوا جماعة من المحبطين الذين لم تتحقق آمالهم في الحياة، ورأوا أن يبتعدوا عن عواصف السياسة، ومن ثم وضعوا دستورا للدخول في الكتيبة، كان من ملامحه أن العضو يستحق العضوية إذا هجا أكبر عدد من الشعراء المؤسسين للكتيبة، وأن المسافر والقادم يجب أن يقال فيه شعر، وأن التقرير السنوي لابد أن يكون

شعرا، وأن على أمير الكتيبة-حسن بدري-أن يشغل الشعراء بالوقيعة ليكون هذا دافعا للشعر، وبصفة عامة فقد كانوا كالخطيئة يبحثون عن «موضوع للهجاء»[4] وكانت لهم طريقتهم الخاصة في تناول أدب «الإخوانيات»، ولقد كانت القصيدة التي استحق بها النور إبراهيم دخول الجمعية قصيدة طويلة منها:

أزف بنات الشعر غضا إهابها
حسانا وحولي كل أعجم زنديق
شعارير آفاق بدوا في كتيبة
أرى شعرهم ضربا من التلفيق

ولقد كان هناك صراع على الإمارة بينه وبين حسن بدري، وكان هناك صراع بين حسن بدري وبينهم جميعا، فهو يقول مثلا:

يا عصبة هجرت بنات الشعر عن
كسل يكاد إلى الخمول يعيدها
تهجون من أحيا لدولة شعركم
فغدت ترف على البيان بنودها
لما رأى روح القريض تناثرت
أوراقها ظلما وأذبل عودها
.. فأثرتها شعواء بين صفوفكم
ملأ الفضاء برقها ورعودها

فيكون هناك رد جماعي منهم:

ألا من مبلغ عنا ابن بدري
بأن الشر آخره لشر
جعلت «الدرج» وكرا للأهاجي
فقد أوى إليه شر طير[5]
.. وما عرفت لك الأيام سعيا
حميدا، أو دعيت لفعل خير
أتسعى بالوشاية بين قوم
كرام من بني المجد الأغر

.. فيالك تاجرا في كل فن
يبيع المكرمات وليس يشري
أأوراقا، وبطيخا، وتمرا
وآخر في الزكائب لست أدري
.. أحاول أن أسوق إليك مدحا
ويأبى الله يا حسن بن بدري
وقالوا: الشيخ ذو فضل: فقلنا
وطاسات وكاسات وخمر

ولهم شعر كثير في الولائم، فهذا محمد المهدي مجذوب يقول في «وليمة» لم يف بها النور إبراهيم في رأيه:

طارت بها العنقاء فما بكوا لها
وليمة أقرب منها السها
يغرر «النور» بكم ساخرا
وزوره في هجوكم ما انتهى
لو أطعم «النور» أخا واصلا
لأطعمكم «سدرة المنتهى»
يبخل إلا بالوعود التي
يأكل منها «كرف»[6] ما اشتهى

ويصف الشاعر الخزرجي الطريق إلى الوليمة، والوليمة فيقول من قصيدة طويلة:

فلكم لقينا في الطريق من المشقة والعنا
حتى تراءت دارك السوداء واهنة البنا
وهي التي جدرانها من عهد آدم جدنا
سكن الذباب بجوفها الخاوي وراح مطنطنا
.. وهناك طار«جنابه» لما رآنا كلنا
وبنوه حفوا بالضيوف فهم ضيوف بيننا!
وأتى الغداء فلم يكن مستمرا مستحسنا

ويرد النور بشعر كثير يستنطق فيه خروفه الذي أكل، وهناك شعر كثير بين النور والشاعر كرف، تدور حول أن الأول كان ناظرا على الثاني، ولقد

كانوا يتفاخرون بالأنساب، وكانوا كثيرا ما يسخرون من الشاعر أمام دوليب لأنه كان أسود اللون، وحين عزم على السفر إلى مصر لتلقي العلم قيل فيه شعر كثير منها هذه القصيدة للنور إبراهيم:

أعــــزز عـــلـــيـــنـــا أن نـــودع فـــاضـــلا
كـــان الإمــــام إذا الــــبـــــلاء تـــــراءى
والـــنـــاس مـــن خـــلـــف الإمـــام وكـــلـــهـــم
يــــرجـــو الإمــــام لــــوقـــــفـــــة ســــوداء
أنـــا أن مـــدحـــتـــك يـــا إمـــام فـــصـــادق
ولـــئـــن هـــجـــوتـــك فـــالـــقـــريـــض أســـاء
والـــلـــه أســـأل أن نـــراك بـــغـــبـــطـــة
يـــوم الإيـــاب، ولحـــيـــة بـــيـــضـــاء
وابـــدأ بـــنـــفـــســـك واعـــظـــا أن شـــئـــت أن
تحـــيـــا وحـــســـبـــك بـــالـــتـــعـــجـــرف داء
شـــذ الأمـــام بـــلـــون وجـــه كـــالـــح
فـــتـــخـــالـــه بـــين المـــلا إقـــواء
عـــجـــبـــا لمـــصـــر وكـــم بـــهـــا مـــن مـــضـــحـــك
حـــتـــى مـــتـــى تـــســـتـــجـــلـــب الأدواء
يـــا مـــصـــر أن تـــرمـــي بـــأســـود نـــابـــه
فـــلـــكـــم رمـــيـــت بـــحـــيـــة رقـــطـــاء
هـــذا كـــويـــفـــيـــر أتـــاك مـــعـــمـــمـــا
أرض الـــكـــنـــانـــة احـــذري الأزيـــاء

وقد اطلعت لهم على شعر في هذا «الدرج» لا يروى، فهو من الأدب المكشوف الذي قيل لمجرد المرح بين بعضهم(7).

.. ولعل مما يتصل بهذا الجانب العدمي هذا الإكثار من الحديث عن الخمر، ومع أن البعض حاول أن ينسحب بوساطتها ليرى قدرا أكبر وأعمق في الكون وفي النفس، إلا أن هذا البعض لم ينجح في الارتفاع بها، ذلك لأن الأكثرية فضلت أن تجرع الحباب الذي «يسقسق في الأفواه كالطير» وفضل شرب الخمور الرخيصة بلا طقوس جمالية كقول محمد المهدي مجذوب:

واجترع «المريسة» في الحواني
وأهذر لا ألام ولا ألوم
طليق لا تقيدني قريش
بأحساب الكرام ولا تميم
وأصرع في الطريق وفي عيوني
ضباب السكر والطرب الغشوم
ولي شرف.. وما جدوى صياحي
بفخر ليس يشربه النديم(8)

وقد عاد فطور هذه الصورة في قصيدة «راية الحانة» فقال:

«مريستنا» ملأت برمة
على فمها يستدير القمر
تلوح رايتها فوقنا
شراعا يعود بنا من سفر
يوشوش متكئا دلق
عليه جلال النهي والخطر
تقعده بيننا كاعب
لها عرق كالجمان انتثر
تشد إزارا على صخرة
وما ألصقت شعرا بالشعر
تناولني فأسيغ الشرا
ب وأجرع من قرع معتبر
وتطعمني من قديد الشوا
ء وتطرقني بعجيب السير
حفظت لها ودها شاكرا
وتحفظ ودي «ست النفر»
طليق ولا خير في معشر
صحبتهم فصبحت الضجر
عجلت إلى ودهم جاهلا
ومالي في جهلتي معتذر

لــهــم ضــحــك خــلــتــه صــادقــا
وطــرقــع مــثــل كــرات «الــعــشــر»
نــقــيــق«الــدلالــيــك» تحــت المــســاء
تــضــارب مــســتــعــرا واشــتــجــر[9]
خــشــيــت الــصــبــاح وراء الــظــلام
يــؤامــر فــي بــنــات الــقــدر
وحــيــد وان كــنــت فــي ســامــر
ولــي وطــن ضــائــع مــنــتــظــر

وبصفة عامة فقد أسرف الشعراء السودانيون في هذا الجانب، فإذا كان المتصوفة قد اعتبروها راحلة ومعراجا للأسرار العليا، فان كثيرا من الشعراء قد هربوا بها إلى عوالم بعيدة عن واقعهم البائس والحزين، بل لقد قاتلوا بها أشياء كثيرة.

شــربــت فــفــي رأســي دوي مــجــنــح
وفــي بــصــري أشــبــاحــه والمجــاهــل
.. نــقــاتــل أحــزانــا، وحــبــا، ومــوطــنــا
تــقــاتــلــنــا فــيــه الــقــيــود الــقــواتــل[10]

إذا كان المجتمع السوداني قد عبر مرحلة الثبات والنظر إلى الوراء التي تتفق والمرحلة التقليدية، فان الملاحظ أنه في هذه الفترة كان في مرحلة عبور قلق من القديم إلى الجديد، ولهذا كان دخوله الكبير في ساحة المرحلة الوجدانية التي اصطلح على تسميتها بالرومانسية، والتي كان فيها الشاعر مشدودا بين القديم والجديد، وممزقا في الوقت نفسه من مرحلة الجذب هذه، وان كان يعطي أكثر نفسه للجديد فحاله هنا كحال المجتمع الذي يعيش فيه، وبصفة عامة فانه بمرور الوقت يشعر بالتناقض بين عدد من الثنائيات كالقديم والجديد، والواقع والمثل الأعلى، والإرادة والقدر «لذلك تكثر المقابلة في أشعار هؤلاء الوجدانيين فتكون محورا لكثير من صورهم الشعرية، وتعبيرا عن إحساسهم الحاد، وقد تكون تلك المقابلات عميقة مركبة، وقد يكتفي الشاعر منها بمقابلات يسيرة لفظية [11]» لهذا نرى التجاني يوسف بشير يغرق نفسه-بفرح وشفافية-في النور الإلهي في قصيدته التي عنوانها «الله»، ويبدو متأثرا بابن عربي، وبقضية «وحدة الوجود»

وبطريقة التصور الإسلامي للإله حيث يقول مثلا:

نحن مجلى علاه في كل دان
من مرائي الوجود أو كل ناء
ظن أدنى الظنون في قربه منك
وأقصى ما شئت من علياء
وادن بالجانح المشط وصعد
بالخيال المسوم العداء
وتوغل بين الظنون ونفر
ها خيالا، واقعد على الجوزاء
تلقه في الحياه أدنى إلى نفس.. .
ـك منها إليك في الإصغاء
قلت: زدني! فقال: يسمع ما في
الأرض من همسة ومن إيماء
خطرات من هاجس، أو مطيفا
من خيال، أو غامضا من دعاء
قلت: زدني! فقال: يعلم كم عن.. .
ـد نديف مصعد من هباء
كل شيء لديه في مستقر العلم
عدا، ورقعة الإحصاء
قلت: زدني ! فقال: أجهل إلا
صورا أوغلت علا في الخفاء
فتفلت من يدي وسبحت
بديئا لأول الأشياء
أين مرقى سمائه ؟ أين ملقى
قدسي الصفات والأسماء؟
قال: في رقة الصوامع، أو لو
عة بيض المساجد الغراء
لم تشدها يد الفنون ولا صا
غت محاريبها يد البناء

كـلـمــات مــبــثــوثــة فــي الــفــضــاء الــر
حـــب مــــن ســـاجـــد ومــــن صــــلاء[12]

... بينما نرى التجاني يوسف بشير قد «تواجد» كالصوفية على الآية التي صدر بها قصيدته وهي «الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة» نراه يكتب قصيدة بعنوان «يؤلمني شكي» ونراه يكتب قصيدة «المعهد العلمي» على نحو ما مر بنا سابقا، وبينما نراه ثائرا في قصيدة «ثورة» نراه هامدا ومشتتا في قصائد «نفسي» و«الصوفي المعذب» و«نفسي» وبينما نرى له قصائد كثيرة تتحدث عن الموت وترغب في لقائه[13]، نرى له بعض قصائد تتحدث عن الحياة، وبينما نراه غامضا في بعض شعره نراه واضحا في البعض الآخر، وبينما نراه معجبا بالجمال المحلي على نحو ما نعرف مثلا من قصيدة المصير التي جاء فيها:

فــــيــــا وادعــــا حــــالمــــا كــــالمــــلا
ئــــك تــــهــــبــــط مــــن حــــجــــرات الأبــــد
يــــرف عــــلــــيــــه شــــبــــاب الــــفــــنــــون
وتــــبــــرق فــــي وجــــنــــتــــيــــه «الــــفــــصــــد»[14]

نراه معجبا بالعديد من القصائد «بالجمال الأجنبي» [15].. وبصفة عامة فقد كان التجاني خير من مثل التيار الوجداني في السودان، خاصة حين نعرف أنه اعتمد على الحدس، وأخذ نفسه بالإبداع الرائع، وبالتحليق على أجنحة الخيال في سماء الحرية، وبهذا النوع من عشق الكآبة والألم، وبالتغني بالبراءة، والطبيعة.. . الخ، وبوقوفه على معجم منتقى خاص به، بالإضافة إلى جيشانه الشديد.

وعلى كل فإذا كان شعر المناسبات قد ضعف صوته في هذه الفترة، وأصبحت الكفة راجحة في أيدي هؤلاء الوجدانيين، الذين أصبح لهم أكثر من منبر، وبخاصة منبر مجلة الفجر[16] التي كانت تعويضا عن مجلة أبولو التي كانت قد كفت عن الصدور في مصر.. فان هذا التيار قد وجد استجابة عند الكثير من الشعراء، ووجد استجابة عند العديد من النقاد، ولقد كان ديوان «الطبيعة»، لحمزة الملك طنبل من البواكير الطيبة في هذا المجال فقد قدم لوحات متتابعة للطبيعة في السودان، وتكلم عن الأشواق، والذكريات، والألوان، وثورة النفس وسكونها، وهكذا غادر مناطق الجهارة

إلى مناطق الهمس، وتجاوز محاجر اللغة، إلى ظلال اللغة وإيحاءاتها، وقفز من العالم الخارجي إلى عالم النفس، ولم ينس أن يمزق نفسه بين الشيء ونقيضه على حد ما نعرف من قصيدته بين الأباء والأذغان، وقصيدته ثورة النفس في سكونها، وقصيدته بين الله والطبيعة، وقصيدة عبرة-بفتح العين-وعبرة-بكسر العين-وما أكثر هذه الثنائيات التي يتأرجح بينها الشاعر.. . ويتعذب ! على أن الذي عشق الطبيعة إلى حد «الحلول» فيها كان التجاني يوسف بشير، فقد كان يأخذ منها صوره، وموسيقاه، والكثير من أدواته الشعرية، ثم انه كان يحتفظ في داخله بصورة نقية للطبيعة، تتمثل أساسا في البراءة والجمال والجلال على نحو ما نعرف من قصيدته «توتي في الصباح»[17] وقصيدته «في محراب النيل» وحتى قصيدة «الخرطوم»-وهي مدينة كبيرة-تتحول في شعره إلى زهرة، وحلم، ولحن مازال يوقعه العازف، وهي تلك القصيدة التي تبدأ بقوله:

مدينة كالزهرة المونقة
تنفح بالطيب على قطرها
ضفافها السحرية المورقة
يخفق قلب النيل في صدرها
تحسبها أغنية مطرقة
نغمها الحسن على نهرها
مبهمة ألحانها مطلقة
رجعها الصيدح من طيرها
وشمسها الخمرية المشرقة
تفرغ كأس الضوء في بدرها

ومع أن النبرة الصوفية لا تتخلف في شعر التجاني، وكثيرا ما تغرقه بالجلال إلا أنه حين يمزج الطبيعة بالحب نرى الجمال يصدح بمرح وحيوية، ونرى الجلال في الوقت نفسه حين يمزج و«يوحد» بين الظواهر والعناصر، على نحو ما نعرف من قصيدته التي عنوانها «أنت أم النيل ؟» والتي يقول فيها:

غننا يا جميل أغنية الني...
ل وبارك بسحر عينيك فيه

وانــحــدر مــوجــة عــلــى الــشــط غــرقــى
غــيــر مــســتــرفــد ولا مــعــتــفــيــه
أن فـــي حـــســـنـــك الـــعـــمـــيـــق لأنـــهـــا
را عـــذابـــا تـــغـــص مـــن آذيـــه
إن فـــي وجـــهـــك الـــوضـــيء وعـــيـــ...
ـــنـــيـــك يـــنـــابـــيـــع مـــن دلال وتـــيـــه
أنـــت يـــا فـــاتـــنـــي ؟ أم الـــنـــيـــل زخـــا
ربـــنـــفـــســـي كـــلـــيـــكـــمـــا مـــن شـــبـــيـــه؟

وبصفة عامة يمكن القول بأن الشاعر السوداني مفتون بطبيعة بلاده- مع قسوتها وجهامتها-ومن النادر أن نجد شاعرا في هذه الفترة لم يحول طبيعة بلاده إلى لوحات مشرقة، وأنغام مترعة، هذا بالإضافة إلى أن الطبيعة من عناصر الخلق في شعرهم، ومن وسائل تحمل الحياة، على حد ما نجد عند الناصر قريب الله، الذي نجد أن الحديث عن الطبيعة هو الغالب في ديوانه، على حد ما نعرف مثلا من قصائد مثل: توتي الباسمة، التي مطلعها:

هـــي فـــي المـــاء مـــن صـــمـــيـــم الـــشـــعـــاع
جـــنـــة لـــلـــنـــهـــي ودنـــيـــا مـــتـــاع

ومن قصائد بعنوان «دوحة بين موسمين» و«رشاد» و«أم بادر» و«رحلة إلى أربعات» و«حنين إلى الأبيض» (18) ونحن نرى الحديث عن المدن-باعتبارها قرى صغيرة-والقرى بهذا المعنى موجودة عند الكثيرين كجعفر حامد البشير الذي تحدث عن الدامر وإحدى قرى الناشر، و يوسف مصطفى التني الذي تحدث عن جبيت والأبيض، والدكتور كامل الباقر الذي تحدث عن كردفان، وتوفيق صالح جبريل الذي تحدث عن كسلا، والهادي آدم الذي تحدث عن حنتوب، وتوريت، ومبارك المغربي وطراف النمبري وآخرين تحدثوا عن سواكن، ولإدريس جماع لوحة عن حياة الرعي في البلاد، وكثيرا ما كان يمزج-على غير عادة الشعراء-بين الطبيعة وحالته النفسية، كقوله مثلا:

كـــانـــت حـــيـــاتـــي كـــالـــربـــا
فـــي الـــصـــيـــف قـــاحـــلـــة وحـــرى
والـــيـــوم صـــرت خـــريـــفـــهـــا

فـــاخـــضـــر مـــنـــهـــا مـــا تـــعـــرى[19]

ومن الملاحظ أن من الأشياء التي كانت تبرهم من الطبيعة الماء والجبل، على نحو ما نعرف من شعر محمد أحمد محجوب، ومحمد المهدي مجذوب، والدكتور محيي الدين صابر، وحمزة الملك طنبل، ومحمد محمد علي، وأبو القاسم عثمان-.. الخ وامتدادا لظاهرة الأطلال العربية وقفوا كثيرا عند الأطلال، كما وقفوا عند السحب [20]، والمطر، والغابة، والخريف، والعاصفة، والنيل[21].. وبصفة عامة فقد كانوا مخلصين مع طبيعتهم، فلم يزينوها أكثر مما تطيق، ولم يحولوها إلى فراديس، وفراشات، وجداول، وأن كان البعض قد فعل هذا كنوع من التعويض، إلا أن أكثر هذا الشعر قد حمل الملامح السودانية المجهدة، فمع أن عرق الشعر حي نابض في قلب كل سوداني-كما يقول محمد أحمد محجوب-إلا أنه يقرر حقيقة الناس والبيئة في بلاده[22]، وعلى كل فقد يحلق الشاعر في آفاق عالية كما في فعل حمزة الملك طنبل في قصيدة «بين الله والطبيعة» إذا كان هناك من يعين جناحيه على التحليق، ففي هذه القصيدة توجد المفارقة بمعنى أن الشاعر وهو يصور إعجابه بجمال جنينة قصرا لملا نحس في الوقت نفسه بضجره من هذا المكان الجميل «وهذا الموقف رومانتيكي خالص، فالجنينة إنشاء البشر، والنفس الرومانتيكية تحن إلى الجمال البكر، جمال الطبيعة بكل فوضاها وكليتها وأجزائها لأنها تمثل البقاء والخلود، أما صنع البشر فهو إلى فناء»[23] ونحن لا ننسى هنا التعليق الذي كتب أسفل هذه القصيدة وهو «لخص الشاعر في هذه القصيدة ما كتبه الأستاذ العقاد عن هذا الموضوع في كتابه مطالعات في الكتب والحياة ص 187 لأنه شريك له في شعوره بجمال هذه البقعة المباركة»[24] على أن هذه القوة الدافعة تذكرنا بقوة دافعة أخرى كانت وراء تجربة التجاني حينما كان هناك من رأى أنه ربما يكون قد قرأ ترجمة نظمي خليل لقصيدة «وليم ورد زورث» إيماءات الأبدية من ذكريات الطفولة الأولى المنشورة في مجلة أبولو عام 1933[25].

على أنه مما يرتبط بهذا قضية حنين الشاعر السوداني إلى الوطن ممثلا أكثر ما يتمثل في طبيعته، والشاعر السوداني يألف المكان الذي يعيش فيه، ويحزن أعمق الحزن على فراقه على نحو ما مر بنا، والملاحظ أنه يعرف «الغربة» ولا يعرف «الاغتراب» وأنه يحس بالمكان أكثر من الزمان

وهذا دليل على ارتباطه الأصيل بالوطن، ومما يدل على ذلك تدفقه بالحنين تدفقا حين يسافر إلى بلد غربي، وحين يصدم لونه الناس هناك، وحين يريد الاندماج مع هذا المجتمع عن طريق الزواج منه على حد تلك التجارب التي قصها الدكتور عبد الله الطيب في شعره، وقد تعرض يوسف التني لهذا الصدام فقال فيما قال:

انه ينكر من أحوالهم
عجمة اللفظ وتقديس الصليب
وخلاقا غير ما يعهده
وجمودا باردا جد عجيب
مثلما أنكروا من لونه
سمرة كالخال في خد حبيب
فارحموا غربته عودوا به
قد كفاه ما يلاقي من لغوب[26]

ومن الشعراء الذين تدفقوا بالحنين إلى الوطن من لندن الشاعر مصطفى عوض الكريم لقد كان من الذين التقطوا له-على البعد-أكثر من صورة ذكية، وكان أقصى ما يعذبه أن يموت بعيدا عن الطبيعة في وطنه، على نحو قوله مثلا متذكرا قريته المسماة «كرمة»:

رعى الله قومي النازحين بكرمة
وحياهم عني النسيم المعطر
فهيهات واد لندني أحله
وواد بأدنى «كرمة» أتذكر
لقد كان لي واد ظليل ومرتع
جميل.. وواد دون نعماه عبقر
فهل أجلسن تحت النخيل يظلني
من السعف المسحور فينان أخضر؟
وهل أملأ الكفين من ماء جدول
به من زلال النيل شهد مكوثر
وهل اسمعن صوت القماري موهنا

لها في غصون الطلح والسنط منبر
لقد ضاع مني كل هذا.. وإنما
عزائي أن الآدمي مسير
وما شغلتني عن جآذر كرمة
من البيض عين ناهدات وضمر
.. لعمري لقبر بالسليم يحفه
من العشر الظمآن أقتم أغبر
أحب إلى قلبي من الأفق الذي
نزلت به يخضل فيه الصنوبر
فلو كنت في عليا الجنان منعما
تنادمني حور كواعب ضمر
يقدم لي الغلمان خمرا عتيقة
يمازجها ماء الغمام المقطر
وزادى تدنيه الملائك يانع
من العنب المسحور بالخمر يقطر
ويقرأ لي الأشعار جبريل منشدا
بصوت رخيم، والنبيون حضر
لقلت: أرب العرش عدبي لكرمة
منى النفس فيها والنعيم المقدر

وقد فعل الدكتور عبد الله الطيب هذا وكثيرون ما كادوا يبتعدون عن الوطن حتى صرخوا ذاكرين ملتقى النيلين، والسواقي، والنخل، والنيم.. وحتى شوك «السيال»، ومن الملاحظ بصفة عامة أن حنينهم كان طاغيا في المجتمعات التي تؤكد على التفرقة العنصرية كالمجتمع الإنجليزي والمجتمع الأمريكي، بعكس الذين سافروا -كالدكتور محيي الدين صابر- إلى فرنسا، فهم يتعاطفون مع المجتمع الفرنسي، وإذا حنوا إلى بلادهم يكون حنينهم معقولا، أما حنينهم في مصر إلى بلادهم فهو في كثير منه شعر صور وتقرير واقع ليس وراءه الحزن الضاغط والألم الممض.. بل ما أكثر ما حنوا إلى مصر وهم في السودان، على نحو ما فعله مثلا التجاني يوسف بشير في قصيدته التي عنوانها «ثقافة مصر» والتي تبدأ بقوله:

عـادنـي الـيـوم مـن حـديـثـك يـا مـصـ
ـــــر رئـي وطـوفـت بـي ذكـرى
وهـفـا بـاسـمـك الـفـؤاد ولجـت
بـسـمـات عـلـى الخـواطـر سـكـري

.. أما حنين محمد الفيتوري فلم يكن للسودان، وإنما كان للقارة الأفريقية ككل، باعتبارها قد أصبحت رؤيا تحررية له، يحاول أن يخلع عليها صراعه النفسي، وأن يتخلص في الوقت نفسه من أزماته الباطنية(27)، وقد يراها بعض الشعراء دعوة إلى الانطلاق من قيود العالم الحديث، وقد عزف على هذا الوتر كثيرا محمد المهدي مجذوب في شعره الذي كتبه في الجنوب على حد قوله:

وأرضـانـي الجـنـوب فـمـا أبـالـي
بمـن يـصـم الـعـراة ومـن يـلـوم
هـم عـشـقـوا الحـيـاة فـعـاشـرتـهـم
كـمـا تـبـغـي المـشـاعـر لا الحـلـوم
فـلـيـتـى فـي الـزنـوج ولـي ربـاب
تمـيـل بـه خـطـاي وتـسـتـقـيـم
وفـي حـقـوي مـن خـرز حـزام
وفـي صـدغـي مـن ودع نـظـيـم(*)
واجـتـرع المـريـسـة فـي الحـوانـي
وأهـــذر لا ألام ولا ألـــوم
طـلـيـق لا تـقـيـدنـي قـريـش
بـأحـسـاب الـكـرام ولا تمـيـم
وأصـرع فـي الـطـريـق وفـي عـيـونـي
ضـبـاب الـسـكـر والـطـرب الـغـشـوم
ولـي شـرف.. ومـا جـدوى صـيـاحـي
بـفـخـر لـيـس يـشـربـه الـنـديـم (28*)

.. وفي الوقت نفسه لا نعدم روح الحنين المشبوب إلى عالم عربي نقي، والى الصورة المثلى التي كان بعض الشعراء يحبون أن يروا عليها هذا العالم.

.. فإذا جئنا إلى ساحة الحب-وهي ساحة عريضة عندهم-وجدنا أن بعض الشعراء يسيرون في الدروب القديمة التي تتحدث-في تجريد-عن اللوعة والأسى، والهيام بالجمال، والحب من أول نظرة، وقد تفلت بعض الصور العصرية كقول محمد محمد علي:

ألا هــاتــهــا يــا عــيــون الــهــوى
فــآخــر كــأســي الــتــي فــي يــديــك
لآلــيــت ألا أذوق الــطــلا
ولا أرفــع الــكــأس إلا إلــيــك
ومــن ذا يــرد تحــيــة كــأس
بمــثــل ابــتــســام عــلــى شــفــتــيــك
وحــقــك مــا ذقــتــهــا خــمــرة
تــثــيــر المــفــارح إلا لــديــك !

على أنهم قد أسرفوا حين مزجوا حبهم بالشهوة، وحين حولوا الجسم عندهم إلى مائدة للطعام والشراب كقول محيي الدين صابر في مجموعة لم تنشر:

فــلــقــد شــربــتــك كــالــســلافــة مــرة
ووردت راعــشــة دمــي فــســقــاك
وطــعــمــت كــالمجــنــون جــســمــك جــائــعــا
ونــهــبــتــنــي.. يــا نجــوتــي وهــلاكــي
يــا نــبــعــة عــريــانــة، يــا غــابــة
عــذراء فــي الأحــراش والأشــواك

وقد يخرج شاعر عن المألوف كقول حمزة الملك طنبل:

ذاب قــلــبــي عــلــيــه حــين تــدانــى
بــين عــطــفــي مــســلــمــا لــي عــرضــه
فــاعــتــنــقــنــا حــتــى إذا غــلــب الــشــو
ق عــلــى الجــســم كــاد يــفــقــد نــبــضــه

على أنهم لم ينسوا تقديم صور محلية لبعض صور العشق كبعض الطقوس التي تأخذ بها المرأة نفسها قبل النوم، كما في قصيدة «غمائم الطلح» التي منها:

وحـفـرة بـدخـان الـطـلـح فـاغـمـة
تـنـدى الـروادف تـلـويـنـا وتـعـطـيـرا
لمحـت فـيـه-ومـا أمـعـنـت-عـاريـة
تـخـفـي وتـظـهـر مـثـل الـنـجـم مـذعـورا
مـدت بـنـانـا بـه الحـنـاء يـانـعـة
تـرد ثـوبـا إلـى الـنـهـديـن مـحـسـورا
قـد لـفـهـا الـعـطـر لـف الـغـيـم مـنـتـشـرا
بـدر الـدجـى، وروى عـن نـورهـا نـورا
يـزيـد صـفـرتـهـا لمـعـا، وجـدتـهـا
صـقـلا، ونـاهـدهـا المـشـدود تـدويـرا
أرخـى الـدخـان لـهـا سـتـرا فـبـعـدهـا
كـدرة فـي ضـمـيـر الـبـحـر مـسـجـورا
حـتـى إذا ضـاق كـن عـنـه أنـفـذه
هـين الـصـعـود خـصـاص الـبـاب مـكـسـورا[29]

وقد برعوا في تقديم أنموذج للجمال السوداني، فبعضهم قد أحب المرأة «المشلخة» فهذا يوسف التني يقول:

فـيـنـوس.. مـن سـاق الجـمـال
مـصـورا فـي زي غـاده
يـضـوي عـلـى قـسـمـاتـهـا
نـور المـلاحـة «والـفـصـاده»

وهذا الشاعر باخريبة يقول:

لا حبيب القلب لا تشفيك من حبي أراده
لا ولا يشفي المحب الطب أو تجدي العياده
الشفاء الحق أن حاولت أن تلقى مراده
لثمة في خدك الناعم ما بين الفصاده

وللتجاني حب للتشخيص أظهر بعضه وأخفى بعضه كقوله مثلا:

فـيـا وادعـا حـالمـا كـالمـلا
ك تـهـبـط مـن حـجـرات الأبـد
يـرف عـلـيـه شـبـاب الـفـنـون

وتـبـرق فـي وجـنـتـيـه «الـفـصـد»[30]

والشاعر الناصر قريب الله تعرض للطريقة الخاصة لتضفير الشعر للبدويات في الأبيض:

باديات النهود غير وشاح صان نهدا وخان آخر مسا

توجت رأسها ضفائر سود تلاقي لديه ضفرا وعكسا

كما أنه صور السودانية في «وادي كيل» وصور الدكتور كامل الباقر الفتاة الكردفانية، وأعطى احمد محمد صالح ملامح فتاة «الجزيرة».. وقد تظل الفتاة السودانية شغله الشاغل في الغربة، على نحو ما نعرف من تلك القصيدة التي كتبها مصطفى عوض الكريم، والتي تدور حول أنه حين رأى في «مدر يد» الناس يتوافدون في إحدى المناسبات الدينية، رأى نفسه-وهو المسلم-يدخل كنيسة، و يطلب من الله أن يرزقه بفتاته «ز ينب» التي تقيم في السودان:

لست أنسى ليلة العبد في عهد بعيد

حينما نادى المنادى لصلاة يوم عيد

والنصارى يملئون الأرض من حلو النشيد

كل شيء ظاهر للعين في ثوب جديد!

وبدا الرهبان مذهولين في صمت رهيب

وعلت رائحة العطر لنا من كل طيب

أوقدوا النار، وطافوا، وأطفنا بالصليب

وتمشت كهرباء الحب في كل القلوب

ثم قام الناس كل يتمنى، وينادي

يسألون الله أشتات الأماني في اجتهاد

وتمنيتك يا «زينب»من كل فؤادي

ثم لم أسأل الهي غير هذا من مراد!

.. على أن هذا لا يمنع من أن نرى طائفة من الشعراء يتهللون للأجنبيات، و يسخرون-كمحمد الزبير شعير-من لابسة «التوب»[31]، وقد رأينا منهم من ينبهر بتحرر المرأة الإنجليزية على نحو ما هو معروف من إعجاب مدثر علي البوشي الذي كتب قصيدة في إنجليزية تلعب التنس أنهاها بقوله:

كذلك تحكم الحسناء فينا

مــتــى لاحــت ولــوح مــعــصــمــاهـــا

ونجد عددا من الشقراوات في ديوان يوسف التني، على نحو قوله في سويسرية:

أشــتــهــي عــجــمــة الــرطــانــة فــيــه
كــتــشــهــي الــفــطــيــم حــلــو الــرضــاع
أن فـــي شـــعـــرك المـــذهـــب مـــعـــنـــى
عـــســجــديــا، وفـــيـــه ذوب شـــعـــاع
قـــلـــت: مـــن أبـــدع المـــفـــاتـــن هـــذى
فـــأجـــابـــت فـــي ضــحــكــة وتـــداعـــي
أبـــدعـــتـــهـــا أم الجـــمـــال ســـويـــســـرا
وســـويـــســـرا عـــظـــيـــمـــة الإبـــداع

ولحسن عزت شعر في ألمانية، ومحمد سعيد النور في يونانية، وباخريبة في أسبانية.. الخ. ولقد كان أكثر ما يفتنهم منهن الشعر الأصفر[32]. وقد يعبث الشاعر بالقيم الدينية والقومية على نحو ما رأيناه من الشاعر محمد عبد المطلب والشاعر التيجاني يوسف بشير.

وأخيرا فقد تنبهوا إلى بعض الظواهر الاجتماعية التي حدثت في المجتمع، من خلال تدفق وجداني متفجر، على أن الظاهرة التي شغلت الكثير كانت ظاهرة الفقر، وكان الحديث عنها يدور حول المرارة والسخرية. بل وعشق هذا الفقر، فالهادي آدم مثلا تعرض لظاهرة استجداء الطعام من ركاب القطارات، وهي ظاهرة معروفة هناك، كقوله:

كـــم طـــويـــت الأرض مـــا بـــين صـــبـــاح وأصـــيـــل
وحــمــلــت الــنــاس فــي ظــهــرك جــيــلا بــعــد جــيــل
جــمــعــت فــيــك الــبــرايــا مـــن أصــيــل ودخــيــل
قــد جــرى أبــى خــلــفــك فــي المــاضــي الــطــويــل
وأنــا خــلــفــك أعــدو أبــتــغــي «بــعــض الــرغــيــف!»
قــيــل: أطــفــال، ولــكــن أيــن أطــفــالــك مــنــي ؟
لــم اعــد مــنــهــم وان قــاربــهــم عــمــري وســنــي
هــم دمــي تــرفــل فــي الــنــعــمــى فــتــشــدو وتــغــنــي
وأنــا خــلــفــك أعــدو ابــتــغــي «بــعــض الــرغــيــف !»

على أن ما يلفت النظر هنا هو الدعوى إلى تمجيد الفقر، وخير من يمثل هذا الاتجاه التجاني يوسف بشير[33]، مع انه كان من الطبيعي أن يتمرد على الفقر فهو مثلا في قصيدة «دنيا الفقير» يحسن الفقر ويزينه للناس، على نحو قوله:

وما يبتغي فقراء الحياة
خزائنها خشية أن تضيع
ولا تزدهيهم ملاهي الوجود
ولا يطبيهم خداع الصنيع
ولابطر المخصبين الغلاة
ولا دعة العيش ربحا وريع
وما بهم عوز للطنا
فس أو حاجة للأثاث الرفيع
بحبسهم مسكة في الحيا
ة ماء نمير، وعيش مريع
وخص على جانبيه الغلا
ل ممزقة مشمسات الصدوع
.. فيا آهة ملء دنيا الفقير
ويا أنة ملء دنيا الوجيع
لأنت لدى الله أسمى وأنبل في
الأرض من بسمات الخليع!

وهو حين يقدم نماذج عليا للرسل والفلاسفة يقدمها خارجة من أحضان كوخ وفي ذراعي فقير كما في قصيدة الزاهد، ويقدمها مكدودة المحيا عارية المناكب كما في قصيدة قلب الفيلسوف، بل انه يرى أن الفقر يسمو بالهوى كما في قصيدته هوى وفقر، ومثل هذه النبرة نجدها عند كثيرين يجيء في مقدمتهم محمد المهدي المجذوب، ومحمد محمد علي، وجعفر حامد البشير، وإدريس جماع.. الخ. ولعل وراء ذلك بعض مفاهيم الصوفية- كالزهد-التي تدخل في صميم العملية الشعرية للشعراء السودانيين. وكالدعوة إلى الاعتصام بالفقر خوفا من مفاسد الدنيا.

لقد كانت الظروف في السودان هي التي قذفت بصفوة من المثقفين

إلى عالم التأثير في الحياة وكانت وراء الثورة على كثير من التقاليد في الحياة وفي الأدب وفي الفن، فقد كانت رغبة الناس في الحرية عارمة، وكانت عندهم الرغبة في إظهار «تميزهم» على الآخرين، وأن من حقهم أن يعاملوا معاملة خاصة بعيدا عن النفوذ الفعلي للإنجليز، والنفوذ الاسمي للمصريين، ولأمر ما نراهم في هذه الفترة يلحون في الالتفات إلى ما حولهم، وفي نقل كل ما له عبير سوداني إلى دائرة الشعر، والخروج بقدر الإمكان من القضايا العامة والمجردة إلى قضايا معاشة، وهكذا يمكن القول بأنهم إلى حد ما أمسكوا بجناحي البيئة.. وبأجنحة كثيرة في العديد من القضايا، لهذا كان من الطبيعي أن يهتدوا إلى قاموس شعري جمالي، والى تراكيب تختلف بقدر الإمكان عن صرامة التراكيب القديمة، والى صور جديدة، ووحدة موضوعية-ولا أقول وحدة عضوية لأنها لا تتحقق تمام التحقق إلا في الشعر الموضوعي لا الشعر الذاتي المتفجر العواطف-وانطلاق مع الخيال، ولواذ بالطبيعة، وخلط للمشاعر بالصور، ومزج للأفكار بالموسيقا.. ومن الطبيعي أن هذا سيغير وحدة الشكل عما كانت عليه من قبل، وسيساعد عليه هذا العالم السحري-المخطوف البصر إلى السماء والى داخل النفس-المسمى التصوف، والذي يجد له-أبدا-موئلا ومستقرا في الذات السودانية.. ما يهمنا حقا هو التأكيد على أن الزمن في هذه الفترة كان-أن صح التعبير-زمنا وجدانيا، وبخاصة في الفترة التي تلت فشل ثورة عام 1924.

ثم انه كانت هناك التفاتة عميقة إلى الأدب المصري، فقد كانت كتابات د. طه حسين، وعباس محمود العقاد، ومحمد حسين هيكل، وإبراهيم عبد القادر المازني، وأحمد حسن الزيات.. الخ تدخل في النسيج الثقافي للشخصية السودانية، كما أنه كانت هناك التفاتة أقل عمقا لما كان يصلهم من أدب المهجر، وفي الوقت نفسه كانت هناك جماعة صغيرة استطاعت أن تصل نفسها بالأدب الغربي.

على أن هناك ملمحين لا يمكن أن نغفلهما في هذه الفترة، وهو دور الجمعيات الثقافية التي نشأت عقب فشل الثورة، والتي برز منها دور جمعية القراءة التي تكونت في حي «أبو روف» بأم درمان، والتي كانت تقوم أساسا على تلخيص كتاب عربي أو إنجليزي ثم مناقشته، أما الملمح الثاني فهو

الذي تحددت قسماته بصدور مجلة الفجر عام 1934 [34]، فقد حركت هذه المجلة حركة الشعر ونقده، وتألقت فيها جماعة من الذين أثروا تأثيرا عميقا في الأدب، كالتجاني يوسف بشير، ومحمد أحمد محجوب، ويوسف التني، وحسن نجيلة، وعرفات محمد عبد الله، وعبد الله عشري ومحمد عشري، وعبد الحليم محمد.. الخ وكل هؤلاء قد تمكنوا من التعبير عن الحياة الوجدانية للسودانيين، واستطاعوا أن يزلزلوا الصروح التقليدية في العديد من المجالات، وفي الوقت نفسه كانوا يجدون السعادة في الهرب من الواقع المرير، وكانوا يدقون على باب الشعر ليفتح قسرا، وليظهروا في مظهر الحالم والمتمارض، والنشوان.. والمدافع عن أحلام الطبقة الوسطى، والمتفق مع المرحلة التي تنتقل فيها البلاد-والنفوس-من حال إلى حال.

١٤ الأساليب الواقعية

لما كانوا قد تخطوا مرحلة البحث عن الجذور، ومرحلة تحقيق الذات، كان من الضروري أن ينظروا إلى أشياء كثيرة خلفهم في غضب، وكان من الطبيعي أن يتجاوزوا مرحلة «الوطن العاطفي» إلى مرحلة «الوطن الواقعي» فالأحداث كانت تلاحقهم، والزمن من حولهم كان يعدو عدوا سريعا، ومن ثم رأينا البعض يقوم بهجوم مكثف على الأدب التقليدي باعتباره أدب استرزاق ومناسبات وجهارة، ومماثلة- فقد كان لهذا الأدب ممثلوه-وفي الوقت نفسه سخروا من هذا «التماوت الرومانسي» والإسراف العاطفي الذي صبغ العديد من جوانب الحياة، ولقد كانوا في هذا واقعيين مع أنفسهم، فلقد كان الوطن ممزقا، والسياسيون يتلاعبون بمصائر الناس، والأدباء إما راضون عن الواقع، أو هاربون منه !

ثم انه يجب ألا ننسى أن جماعة من الذين خاطبوا الوجدان قد انصرفوا عنه أما لارتطامهم بالواقع، وأما لارتفاع سنهم بحيث لم يصبح من المعقول وقوفهم عند هذا العالم المموه بالعديد من الألوان الزاهية.. فقد كان هناك لون واحد يصرخ بالناس، و يذكرهم بالواقع التعيس من حولهم، وبأنه لا مناص من الوقوف تحت رايات اجتماعية تحفظ

على الناس كرامتهم وحياتهم، ولقد نمى هذا الإحساس ظهور الأساليب الواقعية في مصر بصفة خاصة، وكيف أن بعض الكتاب قد بدءوا يغمسون أقلامهم في هذا المداد الجديد، ومن وراء مصر كان العالم يدوي بالحديث عن الاتجاهات الاشتراكية، وعن الاتجاهات الموضوعية، وكان ازدهار العلم يساعد على هذا كله، هذا بالإضافة إلى أن انتهاء الحرب العالمية الثانية، ورغبةالشعوب والطبقات في التحرر وتداعي بعض الأنظمة القديمة، وظهور دور الكتلة الشرقية قد ساعد على دخول دنيا الواقع والمعقول، ولعل مما ساعد على ذلك أن السودان لم يمر بالأطوار الاجتماعية التي تتعرض لها الكثير من المجتمعات، وأن الفصل لم يكن حادا بين الطبقات هناك.. ربما كان وراء ذلك دور الإسلام، و بساطة الشخصية السودانية، وتداخل الفقر مع الغنى.. المهم أن الفقر كان سيد الحياة، ومن ثم كان من الطبيعي أن يبرز دور الطبقة العاملة الفقيرة الكادحة، وأن ينبثق عنها بالضرورة من يعبر عنها.

لقد بدأ الشعر أولا بما يذكر بالواقعية الطبيعية، ذلك لأنه كانت هناك موجات نقد طفحت على شعر الكثيرين، وقد كانت حلقة الوصل بين الاتجاه الإبداعي والاتجاه الواقعي تتمثل-أكثر ما تتمثل-في الشاعر حسين منصور الذي أهمله الكثيرون «انه لا يهتم بالشكل اهتمام الرومانتيكيين، ولكنه يجنح فيه إلى بساطة مطلقة تكاد تقربه من روح الشعب وأحاديثه، وذلك ليتحد هذا الشكل مع المضمون في إحساس القارئ لشعره بالصدق وعدم تزييف الواقع، و يكاد يكون شعره من ناحية المضمون «هادفا» إذ نحس فيه التزاما قويا بمشكلات الحياة والمجتمع الذي يعيش فيه.. فهو دائما يشرع القلم ليشرح عيوبه، محاولا الوصول إلى وسيلة لإصلاحها[1]» وهو قد يضحي بالجانب الجمالي ولكنه يعرف كيف يصل إلى ما يريد ببساطة-قد تكون مسفة-و بوضوح-قد يكون مبهرا-على نحو ما هو معروف من قصيدته «ابتعاث البواعث» التي نقد فيها الإنجليز عام 1927، وحين هدده مفتش أم درمان الإنجليزي تفجر في غضب في قصيدته التي عنوانها «توعد» والتي يقول فيها:

تأكد يا بن وافدة البحار
بأني ثابت ثبت اليقين

وان سلت على رأسي سيوفا
جنودكم المزأبقة العيون
وسددت البنادق نحو صدري
وشدت لي الرباط على عيوني
وان هددت بالإعدام شنقا
وان علقت بالحبل الوتين
إذا هموا بتعذيبي وقتلي
صبرت على مقاضاة الديون
فأترك للكلاب دما ولحما
وأحفظ سالما رأيي وديني

وعلى كل فهذا الروح الواقعي موجود بغزارة في ديوانه «الشاطئ الصخري»، وان كنا نميل إلى القول بأن الأسلوب الواقعي لم يكن غائبا في الاتجاهين التقليدي والإبداعي، بل يمكن القول بأن هذا الأسلوب لم يغب أبدا في مسيرة الشعر السوداني، ذلك لأن التيار التقليدي لم يكن محكما كل الإحكام، لأنه لم يكن هناك استيعاب عميق للتراث العريق المتماسك بسبب عزلة السودان عن العالم العربي من جهة، وللقرب الزماني لحركة التعريب الصحيح فيه، ثم أن الحركة الوجدانية كانت تتطلب نوعا من الترف النفسي والحياتي، ولقد كان هذا الترف يمس طائفة بعينها ولا يمس كل الناس، ومن ثم يمكن القول بأن الأساليب الواقعية كانت في صميم الحركة الشعرية السودانية في كل المراحل[2]، وان كانت عملية «التميز» الواضح قد ظهرت في الفترة الأخيرة.

والأسلوب الواقعي يظهر بوضوح عند عدد كبير من الشعراء يجيء في مقدمتهم محمد المهدي مجذوب الذي عرف كيف يمد ظله على كل التيارات، والذي عرف الوقوف بتؤدة عند الواقعية، وأول ما يقابلنا عنده هو الحديث عن الفقر لا من منظور تمجيده-كما فعل التجاني يوسف بشير-ولكن من منظور الضيق به، وأدانته في بعض الأحيان.. ومن قبل هذا تصوير الواقع، فهو مأخوذ بما بين الحيين المعروفين في الخرطوم «الحي العربي» و«الحي الإفرنجي» من مفارقة، في قصيدة مشوار:

سـهـرت و«الـديم» طـبـل
إذا تـهـادى يـقـوم
رايـاتـه لـيـس تـخـشـى
لـومـا.. ومـن ذا يـلـوم
جـهـل وفـقـر وسـكـر
فـيـه الـغـنـى الـعـديم
فـقـر لـزيم وحـب
وأيـن مـنـي الحـبـيـب!
ولاحـت الخـرطـوم
وجـاء مـنـهـا الـنـسـيـم
أفـوز مـنـه بـود
عـلـي حـيـنـا يـحـوم
يـرفـع الأفـق مـنـهـا
نـخـل رشـيـق وسـيـم
«حـتـى الـفـرنجـة» حـي
وكـم تمـوت «الـديـوم»(*)
وأجـنـبـي مـقـيـم
وفـي قـيـد مـقـيـم(3)

و يلح عليه هذا التناقض الذي يلاقيه في المدينة كما في قصيدة «في الخرطوم»:

حـيـيـت بـنـتـا مـن الإفـرنج فـارحـة
مـع الـصـبـاح ومـرت لا تحـيـيـنـي
.. أنـي مـن «الـدامـر» الـسـمـحـاء دوخـنـي
هـذا الـتـرام حـمـارا غـيـر مـأمـون
فـيـه ارتـدفـنـا وقـوفـا ثـم جـمـدنـا
ذاك الـتـألـه مـن سـواقـه الـدون
وكـم أروح إلـى الـطـبـاخ يـخـدعـنـي
صـيـاحـه بـطـبـيـخ غـيـر مـسـمـون

مـن لـي «بـكـسـرة» خـالاتـي ومـا يـبـسـت
فـيـهـا الـقـواديـس فـي أحـجـار طـاحـون
كـنـزى قـلادة تمـر عـدهـا مـائـة
مـعـسـولـة كـعـيـون الخـرد الـعـين
وقـرعـة حـلـبـوا فـيـهـا وأعـجـبـهـا
رغـويـفـور عـلـى زهـو يـنـاديـنـي
.. أبـغـضـت حـذلـقـة الخـرطـوم سـوف تـرى
يـومـا يـجـيء بـجـزار وسـكـين[4]

وهو يقرر شيوع ظاهرة الفقر:

خـسـرت ومـا أسـفـت مـعـي رفـاق
عـلـى فـقـر نـكـابـده مـشـاع

وإذا كان محمد المهدي مجذوب قد ركز في شعره على ظاهرة «الجرادل» قبل إدخال مشروع المجاري[5]، فان الناصر قريب الله ركز على براميل القمامة التي كانت تلقى في إهمال:

أقـمـت بـحـيـي بـين قـومـي إقـامـة
أشـاهـد فـيـهـا كـل يـوم مـصـارعـي
أشـاهـد سـكـانـا وحـول عـيـوبـهـا
مـعـائـب أعـيـا فـتـقـهـا جـهـد راقـع
وأسـود كـالـلـيـل الـبـهـيـم تـذيـلـت
بـه وهـو مـبـتـور جـنـوب الـشـوارع
يـسـمـونـه «الـبـرمـيـل» مـا فـيـه رحـمـة
سـوى أنـه بـالحـي ركـن الـفـظـائـع
تمـثـل كـالـشـرطـي بـالـلـيـل لائـذا
بـركـن جـدار مـن أذى الـبـرد مـانـع
لـكـل مـتـاع فـي حـشـاه بـقـيـة
تـلـقـفـهـا مـن جـسـمـه بـطـن جـائـع!
.. كـذلـك يـحـيـا الـشـعـب أن كـان دافـعـا
ضـرائـب أو مـن فـقـره غـيـر دافـع

فـكـيـف تـراه تـسـتـقـيـم عـقـولـه
وهـيـكـلـه فـي الأرض أضـيـع ضـائـع؟

وعلى كل فالحديث عن الفقر يغطي أكثر الدواوين، وقريب من هذا يقال عن المرضى[6]، وعن نماذج جديدة يقال فيها الشعر كضاربة الودع، وأم الأحاجي، والحلاق، والشيخ برغوث، وماسح الأحذية، و بائعة الفول، وما أكثر ما نجد قصائد تحمل عناوين مثل: الفقر الأبله، بستان فقير، والبيوت والمقابر، إلى أطفال المساكين. الخ وإذا كانوا قد ركزوا بصفة خاصة على الفقر في «الجنوب» فانهم ركزوا كذلك على «الشوارع الخلفية» في المدينة حيث توجد بائعات الهوى، وحيث تسمى الواحدة «كتكوتة»، وقد قدم محمد المكي إبراهيم ترجمة باطنية لمدينة الخرطوم في تلك القصيدة التي عنوانها «أصيح للخرطوم في أذنها».

منذ اللقاء الأول
غرزت في لفات شعرها المهدل
أصابعي وقلت: أنت لي
عشيقة أم
وحين فاتني الصبا
أسميتها بوهيميا المهذبة
وأصبحت تبوح لي
بسر عينيها الكبيرتين
.. سيدتي هأنذا أريح رأسي
فوق فخذيك القويتين
أخلع نعلي لكي أنام
أغمض جفني-معا-لكي أنام
فلتطعميني لحمك الطيب في الأحلام
ولتمنحيني عفة البكر-وليس عفة الكلام-
ولتحرسيني من عواء الباعة المحومين.. واللصوص
.. صغيرة لا تملأ الكف.. ولكن متعبة
ريفية ما نصل الخضاب.. من أقدامها المخضبة
خائنة وطيبة

ومثل عاهرات الريف لا تبسط كفا للثمن
- تتركه يندس في الصدر وتحت المرتبه-
.. الله للشاعر والمفلس والصعلوك حينما
تضمهم دروبها في آخر الليل.. مشردين
تعبس في وجوههم مآذن الله
ومهرجان الكذب المثقل بالنيون
تصيح أبواب البنوك: اقبضوا عليهمو
تصيح أبواب الحوانيت: إلى الوراء
وتركل العمارات البديعة الرواء
ضلوع أحبابي المشردين
.. وفي العشيات.. وإذ أسير دون أصدقاء
تخرج لي لسانها الطوابق العليا.. ويرقص البناء.. كيدا وسخرية
.. حدثني الكهان والمخنثون.. أن وراء صمتك الحرون
تغرغر الأنهار موسيقا وتنبع العيون
وأن عالما من الروعة لا تدركه الظنون
تخبئه أعماقك النذلة للمقربين
للتافهين من عشاقك المقربين
تحدثوا حتى أثاروا حسدي
وتعرفين أنني وراء لحظة من النعمة فوق جسد
أبيع للمضاربين.. مسبحتي وولدي
.. ماذا تخبئين لي خلف السدوف المطبقه ؟
وبعد هذه اللفحة من سمائك المحترقه
ماذا تخبئين لي ؟
وما الذي تخبئين عني ؟(7)

في ضوء هذا يمكن القول بأن الشعراء الواقعيين قد أدانوا المدينة، وخافوا منها، وقدموا شرائح ساخنة من الحياة داخلها، مع ملاحظة أن أحدا لم يتعاطف مع الجانب الطيب منها، فالخرطوم لم تصبح وردة وحلما كما كانت عند شعراء العاطفة، وإنما تحولت إلى عالم من الرعب والخوف

والقسوة ! وكعادة السودانيين حين يتركون الوطن يذوبون وجدا وهياما، وينخرطون في حالة من حالات الوجد الصوفي-الكامن في الأعماق-مع ملاحظة أنهم لا يزيفون صورة المدنية، ولكنهم يهيجون عواطفهم بطريقة مثيرة، على نحو ما فعل محمد المكي إبراهيم حين صور الزمن الذي تقطعه الطائرة إلى الخرطوم بعد غربة.

في جميع المطارات.. بين الحقائب والنوم والانتظار
عبر تلك الدهاليز والمكرفونات.. عبر وجوه المضيفات
.. كان قلبي يذكرني أننا منك ندنو.. وتدنين منا مع كل ثانية تستطار
كان قلبي يذكرني أن بعض المسافة بيني وبينك يلغى
وأن مساحات من زمن الوجد تسقط خارجة من شقوق النهار
وأن المواعيد بيني وعينيك تزداد قربا فأزداد حبا، وأحتمل
.. ثم فكرت–للمرة الألف–فكرت، من بعد أن نصل القاهرة
لا يعود سوى ساعتين من الوجد، ألقاك بعدهما في المطار
هل أقبل كفيك ؟ أم أتمرغ في رمل نهديك ؟ أم أكتفي بالتحية والانبهار؟
هل أعانق فيك رجال الجوازات ؟ أخبرهم أنني منذ أعوام، لم أتنفس بعض هواء الوطن
وأني حلمت بخضرة ألوانهم في جميع المطارات، بين الحقائب والنوم والانتظار
أم أخلي لتلك العيون المدربة العارفة أن تخمن أسباب عودتنا للوطن ؟
ساعتان وتنزل أرض المطار
ساعتان من الموت والبعث والانهيار
ساعتان من البطء يمكن وضعهما في إطار!
.. طول ليلتنا في أزيز المحرك والطائرة كان محياك يبدو لعيني
فيختلج النوم بين الحقائب والانتظار
ويفتح بابا من الوصل، كالجذب عند صغار الدراويش، أو كالتواصل بين الكبار
فأبعد أشجارك الجاثمه
وأسمع أنفاسك النائمة
ولغو الأحباء في كل دار

وأشعر أن يدي تغوصان بين جدائلك المرسلة
وعيني تمتلئان بألوانك المستهيجة والذابلة
كم أرجع ألقاك واقفة في المطار
طفلة في المدائن، سيدة في القرى، يغضب الصيف فيها
وتجلدها الشمس كالزاجره
كم تأتي الأماسي ساعية بالنسيم الخفيف تطيب خاطرها
وتمسح عن وجنتيها الغبار!
.. قل لتلك العيون المليئة بالوجد تنتظر القادمين
أن هذا المطار المخبأ في قلب أفريقيا من جميع المطارات يعرفني جيدا
من جميع المدارج يؤلمني البعد عنه ويسكرني المشي فيه
إلى صالة العابرين، وعبر رجال الجوازات، نحو أحباء مستقبلين
وعبر زهول الوصول
لخرطوم تنهض من نومها.. تستفيق
أحس بأن العيون الكبيرة سوف تزاحمنا من جميع النواحي
وتأخذنا في الطريق
وأن إسارا من الحب
يبدأ من حيث لم ينته[8]

فالشاعر هنا لم يزيف صورة الخرطوم، وإنما عبر عنها ببساطة، وبحس محلي، وبصور بصرية سارة، ومزج بين عدد من المكونات التي قد تكون في الأصل متنافرة، ولكنها في القصيدة تدور حول قطب جاذب مثير هو مدينة الخرطوم، وقد وفق حين حول الكلمة-باعتبارها صوتا-إلى حركة، وقد كرر هذا في قصيدة بعنوان «قطار الغرب».. المهم أن الأدب الواقعي لم يزيف صورة المدينة، وأن مدينة الخرطوم مدينة لها شخصية متفردة رغم فقرها، واختلاف الأجناس فيها، ورغم الحزن الذي يفشى-كالغبار-بعض ملامحها التي لا تبتسم إلا بقدر!.. ومع أنهم لم يغفلوا الكتابة عن العالم خارج المدن، ومع إعجابهم بشخصية الفتى «المهجاري» الذي يذكر بصعاليك العرب[9]، إلا أن الملاحظ أن الذي أثرى هذا الجانب كان صلاح أحمد إبراهيم، فقد التفت إلى العذاب الذي يعانيه الفلاحون، وبخاصة حين حاول بعض مزارعي مشروع «جودة» التأكد من أن ما يعطونه من أثمان القطن صحيح، فكان أن

زجت السلطة بمائتين منهم في مكان ضيق، بحيث لم يصبح عليهم الصباح إلا وهم موتى.. وكان أن صرخ الشاعر في قصيدة منها:

لو أنهم.. حزمة جرجير يعد كي يباع
لخدم الإفرنج في المدينة الكبيرة
ما سلخت بشرتهم أشعة الظهيرة
وبان فيها الاصفرار والذبول
بل وضعوا بحذر في الظل في حصيرة
وبللت شفاههم رشاشة صغيرة
وقبلت خدودهم رطوبة الأنداء
والبهجة النضيره!
لو أنهم فراخ
تصنع من أوراكها الحساء
لنزلاء الفندق الكبير
لوضعوا في قفص لا يمنع الهواء
وقدم الحب لهم والماء
لو أنهم..
لكنهم رعاع
من الزريقات
من الحسينات
من المساليت(15)
نعم رعاع
من الحثالات التي في القاع
من الذين انغرست في قلوبهم براثن الإقطاع
وسملت عيونهم مراود الخداع
.. وفي المساء
بينما كان الحكام في القصف وفي السكر
وفي برود بين غانيات البيض ينعمون بالسمر
كانت هناك
عشرون دستة من البشر

تموت بالإرهاق

تموت باختناق.

وقد نجح صلاح أحمد إبراهيم في تقديم نماذج من البسطاء في السودان، وهي غالبا نماذج فقيرة مجهدة، وقد يتعرض لكتلة بشرية كقوله:

كل فتى كالحبشي الحي في انطوائه، حتى إذا ثار طغى فأغرقا

وكالبشارى يقوده الصغير بالمعروف، إما اغتاظ دق العنقا

أعرفهم الضامرين كالسياط، الناشفين من شقا

اللازمين حدهم، الوعرين مرتقى

أعرفهم كأهل بدر شدة، ونجدة، وطلعة، وخلقا

وقد يتعمق في واحد من قبيلة الهدندوة بشرق السودان اسمه «أوشيك»، بحيث يجعلنا نتعاطف معه، ونلعن الظروف التي ولغت في دمائه، وفي عرض ابنته، ونعجب في الوقت نفسه لأنه حول كل هذا الحزن إلى «دراما صغيرة».

«أوشيك» دون أن يكل يرصد الآفاق

من دغش الصبح إلى انحباس الضوء في السماء

مفتشا عن غيمة فيها سلام الماء

يرفع ساقا ويحط ساق

كوقفة الكركي في المياه

مرتكز الظهر على عصاه

أهلكت المجاعة الشياه

دبايوا(11)

يفتل من ساعاته الطوال

حبال صمت تافه حبال

ويرقب السماء

لو أنها تعصر في لسان أرضه قطرة من ماء

لو أنها تبلل الرجاء

أهلكت المجاعة الشياه

لو يرحم الإله

زوجته ذات الزمام الضخم والملاءة الحمراء
قضى عليها الداء
فزفرت أحشاؤها دماء
وفوق صدرها «أوهاج»[12] مثل هرة صغيرة عمياء
يمد في غرغرة الذماء
يدين كالمحارتين للأثداء
.. وابنته «شريفة»
جاءت إلى المدينة القاسية المخيفة
تقدم التفاح للرجال
لكل من جاء من الرجال
رائعة رائعة.. يقول لي صديق
يانهدها استقل، كاد أن يطل من ثيابها الرهيفة
وهي تضوع بالشذا، تموج كالقطيفة
تموء بالحروف مثل قطة أليفة
«يا سمسم القدارف»[13]
تقدم البيرة واللفائف
والطشت والإبريق
ترفع أو تخفض المذياع
حتى إذا أنهكها الإمتاع
أطفأت مصباحها بعد انتصاف الليل
مر على خيالها «أوشيك»
وشعره الوديك
كأنه شجرة الزقوم[14]

ولأمر ما أكثر الشعراء من الحديث عن «الاستسقاء» وكيف يعتصر الجدب الناس، ويهلك مواشيهم وزرعهم، فيفزعون إلى «صلاة الاستسقاء» المعروفة إسلاميا، بل قد تكتب عن عمد في لهجة وثنية[15].

وعلى كل فقد تعمد البعض تقديم جوانب «تسجيلية» للحياة السودانية من غير تزويق، ولعله يجيء في مقدمة هؤلاء الذين اهتموا بهذا الجانب جعفر حامد البشير ومحمد المكي إبراهيم، ومحمد المهدي مجذوب، فنحن

نرى لوحة واقعية بعنوان قرية قمراء:

«دلوكة» في الليل ترتعد
بكت، وأرسل شجوه الكمد
مجنونة نفضت أضالعها
وتكاد في أجلادها تقد !
.. ويغص من آهاتها «الشتم»
شحج الرنين يكاد ينقصم
متربص بالرقص يصرعه
ويدق فيه كأنه قدم...
.. في ليلة تختال في القمر
وظلالها يبرقن كالحور
تسري عذارى الحي في نسق
ريذ الخطى متشوف الخفر
.. ساروا وللصبيان تصفيق
والآنسات لهن تحديق
نظر ولا نظر نلوذ به
في كل ومض منه تشويق
.. ومن البخور علت حويات
في أعيني منهن آهات
في دارة لا البؤس يشغلها
درجت عليه ولا المنيات
.. رقصت مع الأحلام عذراء
وبرقصها للحب أنباء
تكني، ونعلم كل خافية
وقلوبنا لهف وإيماء
.. ويهيج بالفتيان «شبال»
والى حنان عبيره مالوا
والسوط يأكل ظهر مبتدر
وجراحه وجد وتسأل

وتعارضوا كل بعكاز..
يهوى به ويطير كالبازي
«طمبورهم» في الليل ذو رهج
كالخيل هاج صهيلها غازي

.. وسها ومال بأفقه القمر
وكأنه قد شفه السهر
وتنادت الأوتار في لهف
متعجل والحي منبهر
.. وتفرق السمار أحادا
كل إلى أشواقه عادا
مد المنام بعاد هاجره
والشوق يحمل طيفه زادا
.. والحي بين رماله رقدا
والنخل أخضر سعفه وقدا
يتوسد الأطلال نائمة
غفلى تخال سكونها الأبدا
.. والماء دون الجرف نعسان
شادوفه المعروق سهران
عبد يوتر جسمه حذرا
يحنيه فوق الجرف إذعان
.. والقرية القمراء كالخبر
ومكانها غبراء في المدر
بدوية مسحورة رقيت
لتفيق من أحلامها الأخر[16].

وتأمل قول محمد المكي إبراهيم من قصيدة طويلة قدمها على صورة «سيناريو سينمائي» مليء بالصور المتتابعة، والمتناغمة:

ريحاكم ماسخة عجوز
في بلدي تعطر الهواء بالمديح

روائح الطعام والضيوف من بيوتنا تفوح
والجارة التي يرف بالشباب وجهها الصبوح
... الآن أستطيع أن أراه
قصعة من الحليب، زهرة تعيش موسم اللقاح
تموت إذا يدركها الصباح[17]

على أن من الواضح أن هذا الأسلوب قد ركز على المفاسد الاجتماعية، ووقف طويلا عند الفروق الطبقية وبعض القضايا الغيبية، والاصطدام بالسلطة، والتبشير بالفجر القادم وبصفة عامة فقد عبر صلاح أحمد إبراهيم عن طريقتهم في الكتابة-من خلال كلامه عن نفسه-على حد ما نعرف من قوله في غضبة الهبباي:

أركب الموقف من لا شيء، أولج المعقول في المجهول، أجمل الحياة بالرمز
أضيف بوم الليل بالأصداء.
مملكتي، صولجاني الكلمة، مقعدي الحكمة، جيشي الإصغاء،
غابي الأقلام، طبلى الطروس، أقنعتي الأفعال والحروف والأسماء.
الشعر-شغلي-فكرة وألم وعمل منظم لا حلم،
خطة لا صرعة،
لا هاتف يهتف في إغماء
.. من قال أني مزين للغانيات-كنزار-إصبعي يسيل بالدهان والعطر
أعد قصة الوسم باعتناء
أرزح بالقصيدة مثل من ينشل من أعمق بئر في «السباغ» دلو ماء
أفلق هام الصخر كي أنحت فيه سلما يطلع للروعة في بتراء
أنا صلاح الشاعر.. في تواضع جم، وفي حب، وبانحناء

وبصفة عامة فقد سار في هذا الطريق عدد من الشعراء يجيء في مقدمتهم محمد المكي إبراهيم، وكجراي، وحسن عباس صبحي، وعبد الله شابو.

والملاحظ بصفة عامة أن هذا الجيل لم يتغن بحرارة للعروبة كما تغنى بها التقليديون والوجدانيون، فقد كانت أحاسيسهم تكاد تكون وقفا على

الشعوب التي تناضل بشراسة من أجل حقها، ومن ثم كانت لفتة صلاح أحمد إبراهيم إلى الجزائر، وكانت لفتة كجراي إلى الجزائر وفلسطين[18] ومحمد المهدي مجذوب إلى دير ياسين، وقدموا أكثر من التفاتة إلى مصر، وفي ضوء هذا كان اهتمام بالدول التي تقاتل بعض ممثلي الرأسمالية كفيتنام، وكان هناك زعيق يجرح الشعر.

ليسقط الحديد
والطائرات السافله
لتنتثر على ثرى الفيتنام
أمام نارها المقاتله
وليصنع الأعزاء من الحطام
أساورا وحلية لفيتنام[19]

وبالطبع كان هناك تعاطف مع الشعراء الثوريين، ومع كل الذين يقفون إلى جانب الإنسان، على نحو ما فعلوا مع الشاعر «لوركا» والمناضلة «شيري أسكوت»[20].. على أن الوقفة العميقة التي شكلت بعمق هذا التيار كانت الوقفة مع أفريقية، ولقد عبر هذا الطريق من قبل-مبتدئا بالجنوب السوداني- محمد المهدي مجذوب، وقد وجد نفسه متعاطفا مع الزنج عل العرب، فمع أنه في ديوانه الأول كان يكتفي بعشق الفطرة عند الزنوج، وكان يقول:

ومللت من شعر الأعارب ما به
إلا مهانة شاعر يتقرب
طبل أدق به وما في رجعه
شيء سوى أني أصيح وأصخب
وركبت في صبح الطفولة ناقة
عمر على شرفاتها يترقب
وأناخها فتحطمت مقهورة
فوثبت أحذر مرجلا يتلهب
.. عرب وما سمعوا بسيرة أحمد
وسألت آدم هل أبوهم يعرب
وقفوا على وجه الحضارة زاهيا
وتعوذوا من حسنها وتهيبوا

جـعـلـوا الـقـصـور أثـافـيـا وأراحـهـم
طـلـل، وتـسـأل عـلـيـه مـخـيـب
فـطـروا عـلـى الجـدل الـعـقـيـم سـيـوفـهـم
بـكـلامـهـم فـي مـسـجـد تـتـوثـب
وسـلاسـل الأنـسـاب حـول رقـابـهـم
تـروي كـمـا يـروي الـقـصـيـد وتـكـتـب
دقـوا شـفـاه بـنـاتـهـم لـم يـشـفـهـم
وسـم الـشـلـوخ ولا الخـفـاض المـرعـب
.. كـتـبـي تـنـام عـلـى الـرفـوف جـلـودهـا
عـربـيـة وبـهـا الـقـديم الأجـرب
الـسـوق يـوم الـسـبـت فـاسـع لـبـيـعـهـا
وصـديـقـك الحـذاء فـيـهـا يـرغـب! [21]

وقد كان من الطبيعي أن يلتفتوا إلى أفريقية فهي داخلة في صميم وجودهم، وهي تعاني مما يعانون، ولقد كانت قضية «اللون» تعذب الكثير منهم حين يحتكون بالعالم الخارجي، لهذا رأينا ما يمكن أن يسمى عند بعضهم «بالرؤيا الأفريقية»

الليلة أفريقيا فتحت دغلا
فتحت دربا
أخذتني بالأحضان
هذا مجد الإنسان
أن يأكل قبل المدخنة
ويصفر قبل القاطرة
وينام على قلب أخيه الإنسان
أتلمس في الأدغال وفي صحراء البهو معالمها
أتلمس لا ألقي الأحبات مسابحكم
.. سبحان الحكم الطيب فوق مداخل أفريقيا !

وأفريقية عند الكثير فردوس مفقود وعالم من البراءة والنقاء يجب أن ترفع عنه الأحزان والمآسي، ولهذا تختلط عند البعض بالشعر، وبالحلم، وبالفرح القديم، والسعادة المولية، ولهذا فغناؤهم الحار يكون لما يسمى

«أفريقية الأولى» أما أفريقية الآن، فهم من خلال نظرتهم الواقعية لا يغفلون عن تأخرها، وفساد بعض أنظمتها، وقصورها عن اللحاق بالآخرين، وأكثر ما تظهر هذه الصورة في تلك القصائد التي كتبها محمد المكي إبراهيم بعنوان «زنزباريات»، وانظر مثلا إلى جزء من قصيدة طويلة بهذا العنوان:

.. ثم تسلق النهار

ربوتنا والدار

خذنا إذن لزنزبار

حيث يظلل البهار

مراقد المحبين، وحيث ننتشي

برغوة البحر وبالعنف، وبالأشجار

الجذوة الأولى

خذنا إلى الرغوة والعقيق

حيث يغرد البحر ويسكن الخليج

وحيث تستفيق

تحت غلائل السحب-المعبأة بأنعم الرحيق-

أفريقيا الأولى

.. أيتها العواميد من النعومة السمراء

أيها القباب المصلتات للريح وللأنواء

أيتها الحقول المرضعة

أي القوافي، أيما مشيئة مروعه

تخرج من أثدائكن يا نساء

أفريقيا السوداء

يا أمهاتي. يا حبيباتي، وأيما شتاء

لم نطلب الدفء على صدوركن(22)

وإذا كان محمد المكي إبراهيم قد ذوب السودان في أفريقية في عدد من قصائده، فان صلاح أحمد إبراهيم قد حاول تذويب أفريقية في السودان، فهو على حد تعبيره يضع على خدي أفريقيا .. الشلوخ السودانية، وهو يرى أن حرية بلاده حرية لكل السود:

المارد حين تحرر.. حرر من قهر

فاطمة البنت السمحة
وأخاها البله-كاليبار-أخاها المضطهد الأسود
وهو يمد يده فيغترف من الأدب الشعبي هنا وهناك:
أواه.. يا أفريقيا من ليلك المديد
تأخر الفجر وكنا على ميعاد
تأخرت فرحتنا بالعيد
لو أننا قذفنا الرب في الدأماء
حل علينا الخصب في موسمه الجديد
لكنه-الرب المسيخ-عاد
من قبل أن تبلعه الدأماء(23)

وبصفة عامة فقد كانت أفريقية عند الكثيرين حلما من أحلام البراءة والنقاء على حد ما مر بنا بصفة خاصة من شعر محمد المكي إبراهيم وصلاح أحمد إبراهيم ومحمد المهدي مجذوب، وفي الوقت نفسه كانت عند البعض طبولا وعنقا على حد قول مصطفى سند.

الطبل حمى الطبل في رأسي
شرايين تفح بلا انقطاع
.. غنيت للسود الغلاظ، وللعبيد، وللرعاع.

وبصفة عامة فقد مزجوا «مشكلة الجنوب» بمشكلات أفريقية، وطرحوا عليها أصواتهم الهامسة والغليظة، وأكثروا من الأحاديث حول أبطالها-وما أكثر القصائد التي دارت حول لوممبا-وأفراحها-وهي قليلة-وأحزانها-وهي كثيرة-وبخاصة حين كانت مشكلة اللون تمس بعضهم، فقد كانوا يتفجرون بالغضب وبالهياج

إذا كنا قد وقفنا عند الأساليب الواقعية التي تفجرت أساسا من الداخل، فان الصورة لن تكتمل إلا إذا تعرضنا لهؤلاء الشعراء السودانيين الذين تركوا وطنهم وعاشوا في القاهرة على وجه الخصوص، فقد نجح عدد من الشعراء في تحديد قسمات خاصة بهم من خلال التيارات الواقعية التي نضجت أساسا على نيران مصرية، ولم تنس في الوقت نفسه الالتفاتة إلى السودان، ولعله يجيء في مقدمة الذين شكلوا هذا الاتجاه الشاعر حسين منصور فهو لم يركز على الشكل تركيز الوجدانيين، ذلك لأن تركيزه الواضح

كان على الاقتراب من روح الشعب ومن لغته، وعلى ما هو في صالح هذا الشعب، ولهذا حارب أعداء الشعب البارزين كالإنجليز، وأعداء الشعب من هؤلاء المعوقين لمسيرته، ولهذا اتسعت دوائر نقده، ولم يقف أمره على السودان وإنما نراه قد لمس أشياء كثيرة في مصر، على نحو ما هو معروف مثلا من حملته على جماعة أبولو الذين وصف أغلبهم بالغثاثة، وعلي احمد زكي أبو شادي الذي وصفه بالسماجة، وهو صاحب القصيدة المشهورة التي عارض بها قصيدة شوقي التي قال فيها:

أبولو مرحبا بك يا أبولو
فانك من عكاظ الشعر ظل

لقد قال حسين منصور:

ألا لا مرحبا بك يا أبولو
فقد بدأت بك الفصحى تشل
أضاف بك المحرر فضل سخف
يضاعف سخفه طول ممل
وكان يقال إيجاز مخل
فصار يقال إسهاب مخل
به قلبت حقيقة كل لفظ
وأضحى الشعر لغزا لا يحل

ويبدو أنه كان وراء هذا كراهيته للوجدانية ومن يمثلها على نحو ما نرى من هجومه على أحد أركان هذه الجماعة، فقد قال في شعر إبراهيم ناجي:

يزهدني في شعر ناجي وفنه
تعابير للدكتور ملتويات
وآهاته اللائى ملئن أنوثة
تسيل وفي آثارها العبرات
قصائده في الحق عندي هياكل
ممددة تمشي بها العجلات
به اصبح الديوان شر عيادة
تضيق عن المرضى بها الصفحات[24]

ولم يسلم من شعره الشاعر أحمد شوقي، بل لم تسلم منه حتى العمارة في مصر:

نـــاطــحـــات تــهـــامـــســـت فـــي انـــفـــراد
فـــي فـــضـــاء يـــطـــل فـــوق الـــفـــضـــاء
يـــبـــصـــر المـــرء أصـــلـــهـــا لـــم يـــنـــســـى
لارتـــقـــاء الـــعـــيـــون بـــعـــد ارتـــقـــاء
ســـاءنـــي أن اقـــرأ أســـمـــاء بـــهـــلـــيـــر،
ودوبـــريـــه..فـــي زوايـــا الـــبـــنـــاء

وبصفة عامة فقد كان يرى الأشياء على حقيقتها في السودان وفي مصر، بل لقد وسع نظرته إلى الواقع الحزين الذي كانت تعيشه كذلك في هذه الفترة-كما في قصيدة كذبة-العراق، والشام، والحجاز، وقد كانت له وقفة ذكية عند لغة الضاد، على نحو ما نعرف من قصيدة له جاء فيها:

قـــيـــامـــا قـــيـــامـــا مـــع الـــقـــائـــم
فـــلا عـــيـــش لـــلـــنـــائـــم الحـــالـــم
وهـــبـــوا لـــهـــا إنـــهـــا فـــتـــنـــة
أثـــيـــرت ســـفـــاهـــا عـــلـــى الـــعـــالـــم
ولـــســـت بمـــشـــن عـــلـــى احـــمـــد
ومـــفـــتـــي الـــديـــار، ولا الجـــارم[25]
إلـــــى أن أرى ثـــــورة حـــــقـــــة
تـــــرد الأصـــــول إلـــــى آدم
وتجـــمـــع فـــي الـــقـــطـــر أجـــنـــاســـه
عـــلـــى لـــغـــة الـــضـــاد.. لا الحـــاكـــم

وما يهمني منه هنا هو تصويره حياته في مصر في أسلوب مباشر مبتسم:

قـــد أراد الـــلـــه شـــيـــئـــا لـــم أرده
فـــرمـــانـــي فـــي الـــذي زعـــزع أمـــنـــي
فـــي بـــنـــســـيـــون لـــيـــونـــانـــيـــة
أرمـــلـــة قـــد مـــات عـــنـــهـــا «خـــرتمـــنـــي»

نــــصــــف خــــيـــاطـــة تمــــلأ أذنــــي
كــــل يــــوم بــــحــــديـــث صـــم أذنــــي
كــلــه شــكــوى، وتــكــلــيــف بــه تــلــزمــنــي
مـــن غـــيـــران تـــلـــزم حـــضـــنـــي
تطلب الخرقاء أن أبحث مهما لها عن ساكن رضى بخن
حجرة مرطوبة مظلمة يملؤها الناموس أفواجا يغنى
حسبي الله أماني عمل غير اصطفاقي بيدي صفقة غبن
لم أزل اذكرها قائلة تبعث عطفي «يا حبيبي أنت ابني !»

ويبدو أنه عاشر في مصر تلك الحركات الحاسمة للتجديد في الشعر، بل لقد قفز على بعض هذه الاتجاهات فقد كتب في عام 1934 قصيدة يمكن أن ينطبق عليها مصطلح «قصيدة النثر» كما أن له محاولة في الشعر الحر عام 1934 «والحقيقة التي ينبغي أن تسجل لحسين منصور باعتباره رائدا من الرواد الأوائل لحركة الشعر الحر، أنه كان يفهمها حق الفهم، ذلك لأننا لو رجعنا إلى «سطوره» ولا أقول «أبياته» في القصيدتين لوجدناه مدركا لحقيقة ارتباط الجملة الشعرية بالمعنى، وبالأداء النفسي ارتباطا وثيقا، دون اعتبار لطول بعض الفقرات وقصر بعضها الآخر، فهناك مماثلة للإيقاع مع الفكرة بمعنى أن الإيقاعات الموسيقية تساير الانفعالات في الأبيات فتعلو نغمتها حين تشتد هذه الانفعالات، وتخفت حينا حين تهدأ، كذلك استخدم الأسلوب الرمزي الذي يعتمد إلى حد كبير على التعبير الأسطوري ببراعة في قصيدته الثانية «هأنذا» التي كتبها بعد وصوله إلى مصر»[26] وما نريد أن نؤكده هو أنه عاش المناخ الشعري الذي كان سائدا في مصر، وأنه جرب-مع من جرب في هذه الفترة-ولكن تجاربه في هذا المجال قاصرة، وضحلة، فهو يخلط بين البحور، ولم تهده فطرته إلى البحور ذات التفاعيل الموحدة، و يتعامل بغزارة مع الزحافات والعلل مما يخرجه تماما عن قضية الإيقاع، بل لقد كان يتجاوز هذا كله إلى نثرية دميمة، ولنتأمل قصيدة «تشييع» التي لا نراها محاولة رائدة في الشعر الحر، وإنما هي شيء خارج تماما عن دائرة الشعر:

إليها
إلى النار

ولا تخش أو تفرق
فمه بعد أن تحرق
وما هي أقسى من حياة قضيتها
تعالج في أصفادها وتئن
أنين الثكالى أفردت من عميدها
ومن كل ذي قلب لهن يحن
أيها الأخ
كل صحبك
كلهم سروا للخبر
فهو حقا نعمى تسر
وتمنوا أن يلحقوك سراعا
والى النار أو إلى غيرها
وتنادوا أن لا عذاب على الناس كمر الحياة أو مرها

ما نريد أن نؤكده أنه اقترب بصفة خاصة من الناس ومن الحياة في القاهرة ومن حركات التجديد.. [27]، ثم بعد ذلك تعرف مصر خطوات عدد من الشبان يجيء في مقدمتهم جيلي عبد الرحمن، وتاج السر الحسن، ومحيى الدين فارس، وحسن صبحي-بالإضافة إلى محمد الفيتوري-الذي كان يقيم في مصر وقد عاشوا جميعا في الخمسينات، وتعاطفوا مع الواقعية الاشتراكية بحكم ظروف الفقر التي كانت تحكم حياتهم، وانبهارا بهذا الاتجاه الذي كان يستهوي الشباب بعد توقف الحرب، فقد كان هؤلاء الشبان راغبين في تغيير حياتهم، وفي تغيير ظروف الحياة من حولهم، ومن ثم رأيناهم يوغلون في هذا الاتجاه على مستويات، فهم جميعا قد أسهموا في تقديم الواقع الكريه الذي كان يحيط بهم، وهم جميعا قد تغنوا بالعدالة الاجتماعية، وبانتصارات الشعوب تحت رايات الثورات، وبالأمل في التغيير، وقد وقف وراءهم بعض النقاد الذين يمثلون هذا الاتجاه [28] مشجعين ومبشرين بشعر جديد يولد من معاناتهم الحقيقية، فتحملهم لمسئولية الشعر الجديد هو في الوقت نفسه تحمل لأوضاع اجتماعية جديدة، ومعاناتهم التي لا تنتهي ستؤدي بهم إلى استحداث أشكال فنية جديدة، ولهذا رأيناهم ينحازون إلى الشكل الجديد بلا تردد، ورأيناهم يبتعدون عن ذاتهم ليلتحموا

بالناس وبمشكلاتهم، ومن ثم توالت أعمالهم في زمن موحد تقريبا، وهي بصفة عامة كانت تغني للكادحين في كل أنحاء الأرض وتتحدث عن سوء توزيع الثروة، وتتعاطف مع الشعوب المظلومة وبخاصة الشعوب الأفريقية، وتقدم الواقع الكريه الذي كان يسيطر على الناس من حولهم.. لقد كانت نبرتهم عالية في أول الأمر على نحو قول تاج السر في قصيدة ثورة:

وكأني والشعب في ثورة النصر دماء تسقي الربى المقهوره
وكأن الدماء تكتب للتاريخ حرية القوى المأسوره
وكأن الثوار قد ظللتهم نفحة من حياة أمس المريره
حين نادى فتى من الشعب: هيا أن نمت نبعث الحياة الكبيره
حين مات الجدود تحت حذاء الظلم تحت الحوافر المغروره

وكقول محيى الدين فارس:

أني كسرت قواقعي
فالويل للقرصان.. قد سرقت طواياه البعاد مسامعي
وغدا سأطلق للرياح زوابعي
وسأسترد مرابعي
وستستحم جزائري بالنور. بالنغم الشفيف الساطع
فهنا صدى ناعورة تبكي بغير مدامع
وهنا.. هنا سرب الكراكي الجميل الوادع
يختال بين منابعي
ويعوم في برك المياه. يحوم حول مزارعي
الأرض لي.. أني ضمدت جراحها بمباضعي

وإذا كان هؤلاء الشعراء السودانيون في الخمسينات قد حركوا ركود القصيدة العربية، وملئوها بالغضب والنار والتمرد، مبتدئين ثورتهم من واقعهم الحزين، فان هذه الموجات قد صبت في الغالب في نهر كبير اسمه أفريقيا[29] صحيح أنهم قدموا لنا الشوارع الخلفية في القاهرة، وأنهم قدموا جوانب من الريف والمدينة السودانية، وأنهم توعدوا القراصنة ومصاصي الدماء، ورجال الخرافة والكهنوتية باسم المظلومين الفقراء، إلا أن هذه الروافد سرعان ما صبت في نهر كبير اسمه أفريقية، فقد أصبحت أفريقية رمزا لتمزقهم وضياعهم وغليانهم، فقد أصبحت عند الفيتوري

معادلا لمعاناته، وقناعا يستطيع من ورائه أن يصرخ، وأن يثور، بل وأن يحقد، وأن يتحدى، فقد وصل به التهيج إلى قوله:

لــتــنــتــفــض جــثــة تــاريــخــنـــا
ولــيــنــتــصــب تمــثــال أحــقــادنـــا
آن لـــهـــذا الأســـود المـــنـــزوي
المــتــوارى عـــن عـــيـــون الـــســـنـــا
آن لـــه أن يـــتـــحـــدى الـــورى
آن لـــه أن يـــتـــحـــدى الـــفـــنـــا
فــلــتــنــحــن الــشــمــس لــهــامــاتــنـــا
ولــتــخــشــع الأرض لأصــواتـــنـــا
أنـــا ســـنـــكـــســـوهـــا بـــأفـــراحـــنـــا
كـــمـــا كـــســـونـــاهـــا بـــأحـــزانـــنـــا
أجـــل فـــأنـــا قـــد أتـــى دورنـــا
أفـــريـــقـــيـــا .. أنـــا أتـــى دورنـــا

بينما «يعقل» محي الدين فارس هذا الطوفان من الأحقاد، فيقول::

أفريقيا المضيئة المظلمه
أفريقيا يا آخر الملحمه
يا ثورة مجنونة في الدجى
تأهبت للجولة القادمه
لم أكره الأبيض لكنني
كرهت منه الصفحة المعتمه
فلونه.. كلون قلبي. وفي كفيه كفى
غنوة ناغمه.

وبعد فترة رأينا الرؤيا الشعرية تفيض عن القارة بحيث تشمل بلادا اشتراكية أخرى، وبحيث ضمت إلى أفريقية آسيا، ومزجت بين السود في أفريقية والسود في أمريكا، وبخاصة عند هؤلاء الذين أتيحت لهم فرصة التعليم في الاتحاد السوفيتي كجيلي وتاج السر.

يلاحظ بصفة عامة أن الواقعيين قد التزموا بالشكل الجديد، وأنهم شققوا هذا الشكل، وأحدثوا داخله ضجة كبيرة، فهم ابتداء قد ركزوا على

المضامين الاجتماعية والسياسية، واتصلوا شعوريا بالأحداث التي كانت تدور داخل الوطن، وخارج الوطن في عدة دوائر، وفي ضوء هذا يصدق عليهم القول بأن القصيدة ذاكرة الشعب لا ذاكرة الشاعر، وأن الشاعر يتأثر أكثر مما يؤثر، ولكن القصيدة حين كانت تكتب لم يكن يكتب تاريخها العربي معها، ذلك لأنه كانت هناك فجوات ثقافية، ولأن هذا التاريخ لم يكن ضاربا بعمق في الأعماق العربية، ولعلهم استعاضوا عن هذا بالتركيز على السلاسة والإيقاع، والوزن، وقد ساعدهم هذا على التكرار-وهو ظاهرة بارزة في الشعر السوداني-، وعدم فصل الصوت عن المعنى على نحو ما نعرف من القافية مثلا عندهم فهي معنى وصوت معا [30]، وقد يمزجون بين الشعر وبين ما يغنى[31]، ويكثرون من أسماء الأصوات [32]، ونحن نراهم يستجيبون جسميا ونفسيا لظاهرة الإيقاع، وعندهم القدرة على تحويلها إلى ظاهرة لغوية-لعل وراء هذا الإيقاع الأفريقي والصوفي-ذلك لأن الإيقاع ينتظم عندهم الحياة كلها، فهناك إيقاع للعمل، والطبيعة، ولظروف تكوين الجسم وخفته وصلته بالرقص والغناء.. وبالإضافة إلى إيقاع الحياة من حولهم هناك إيقاع الفنون التشكيلية والتعبيرية، مما يتصور الإنسان معه أحيانا أن الوجود من حولهم يتحول إلى «نوتة موسيقية» وأن مهمتهم الحقيقية هي «العزف» الذي لا يهدأ[33]، وبصفة عامة قد أخذوا من الحياة كثيرا، فقد أخذوا مفردات، - وجملا، وحكما، وأمثالا، وإيقاعا، لا لأنها تحتوي على قيم جمالية، ولكن لأنها قبل كل شيء تقدم نبضا حيا، وموجات قصيرة ترتطم غالبا بالفقر، والحزن، والغربة، والتشوق، والموت، والأمل.. وجمالها في الغالب لا يؤخذ من التراث البلاغي المعروف، ولكنه يؤخذ من إيقاع الحركة وسلاستها، وما أكثر القصائد التي تتحول إلى رقصة الحمامة، أو قفزة راقصة الباليه، أو ضارب الطبل[34].. فإذا جئنا إلى الصورة في هذا الشعر الذي يتسم بالواقعية وجدناها تزدهر عن ذي قبل، ذلك لأنهم آمنوا بالحس الذي يترتب عليه إدراك المرئيات، والمسموعات، والمذوقات، والمشمومات، والملموسات.. . بل أن الأمر يتعدى هذا كله إلى إدراك الثقل والضغط والاتجاه مثلا، وقد كان من وراء هذا الإحساس المفرط بالذات في مواجهة الذين يعملون على إهانة هذه الذات، فإذا كان فقدان الذات وراء ضعف الفنون التجسيمية والتجائها إلى ما يسمى «بالأرابسك» عند

الإنسان العربي بصفة عامة، فان الإنسان السوداني نظرا لأنه واجه بالإضافة إلى الضغوط المعروفة ضغوطا أخرى تتصل بقضية اللون، وجدناه يزهر داخله الحس التشكيلي، ووجدناه لا يقف عند خلق المشهد وإنما يحركه، ويحدث فيه ضجة، وهكذا رأيناه في هذه الفترة ذا حس بنائي واضح، فهولا يعتمد على الزخرفة وإنما على العناصر الأصلية في المشاهد، وإذا كان كالرسم العربي لا يهتم بالجسد البشري، فانه ركز بصفة خاصة على كل ما يتحرك في هذا الجسد كالعين والفم واليد، فهو مع القائلين بأن الجمال هو الحركة.. ولما كانت الحركة غزيرة عند الإنسان السوداني فقد كان لهذا تأثيره على الشعر عنده، والصورة عنده تبدأ من الصورة البسيطة-كالتشبيه وتمر بالتجسيم، وتنتهي إلى التشخيص ورسم الأنموذج [35]، وهي عادة تغص بالألوان الساخنة على نحو ما نرى عند الفيتوري، بل أن الأشياء قد تتحول إلى ألوان على حد ما نعرف مثلا من شعر محمد المهدي مجذوب[36]، كما أن مفرداتها بسيطة وشائعة وبعيدة عن الحذلقة وفي الوقت نفسه جريئة وموحية، ومحلقة بجناحين على الجديد والقديم[37]، ولعل مما يتصل بهذا اهتمامهم بالدلالة الحركية للألفاظ في الشعر، وإذا كان قد انبثق عن علم اللغة الحديث علم أصبح يعرف باسم علم الكينات أو علم الحركة الجسمية، أو لغة الجسم-وهو ما يعرف قديما باسم الإشارة-وأنهم قد حددوا حركات الجسم، بحركة تصدر للتأكيد على الكلام-ومن ثم فهي دائما مصاحبة له-وحركة بيانية إيضاحية ترسم الشيء المراد وصفه أو توضيحه-ومن ثم فقد تحدث وحدها أو تصاحب الكلام-وحركة ذات دلالة-كضرب كف بكف-وهي الأخرى تحدث وحدها أو تصاحب الكلام ويفهمها أفراد الشعب الواحد لأنها ترتبط بثقافته.. إذا كان الأمر كذلك فان هذا يوجد بغزارة في الشعر السوداني[38].

وأخيرا فكما قلنا أن صورهم في الغالب لم تكن للزينة، وإنما كانت لحم القصيدة ودمها، ولما كانت الحياة من حولهم خشنة، وكانوا لا يضعون أنفسهم في دائرة الوسامة، فإننا نرى هذه الصور تمثل واقعهم من الداخل ومن الخارج، بل انه يمكن القول بأنهم كانوا يحسنون تقديم صور الدمامة أكثر من صور الوسامة، وصور الفقر أكثر من صور الغنى[39]، ولعله كان وراء ذلك الانفصال بين العالم الواقعي وبين الجمال، بالإضافة إلى أن طغيان

هذا النوع من الصور يعتبر من خصائص الشعوب المنطوية على نفسها[40]، وبصفة عامة فالقبح مقبول في الأدب، ذلك لأنه لا يثير عنصر الاشمئزاز، بقدر ما يقوي عنصر الهزل أو عنصر الرعب، بل أن من الملاحظ أن الشيء الدميم قد يتحول إلى وسامة مطلقة حين تتم معالجته بصدق وبواقعية، وهذا ما حدث عند الشعراء السودانيين. ولعل هذا كان وراء روح السخرية-وهي تتبع أساسا من الحيوية-في الشعر السوداني[41].

وبصفة عامة فان هذا الشعر-موسيقا وصورا-قد أصبحت له خصوصية داخل الشعر العربي يتكامل بها هذا الشعر، وعلى كل فهذاالشعر-من منطلق الواقعية الاشتراكية-يتعاطف مع الطبقات الفقيرة، و يعصف بمن وراء هذه الطبقة، و يعطي أملا دائما للإنسان، و يأخذ أدواته من عالم الناس البسطاء، ومع أنه لم يغفل التعبير بالرمز وبالأسطورة وبالقناع إلا أنه ينعطف عن الرموز والأساطير والأقنعة المتداولة عالميا إلى رموز وأساطير وأقنعة خاصة به، صحيح أنه لم يغفل الرموز والأساطير العالمية على نحو ما فعل صلاح أحمد إبراهيم، ولكن عالمه الحقيقي كان في التراث القومي الخاص به[42]، بل أننا كثيرا ما نراه يتعامل مع قيم إسلامية كبيرة كقوله:

أعرفهم كأهل بدر شدة، ونجدة، وطلعة، وخلقا

أورث مثل بردة النبي في العرين

العربي حامل السوط، المثل للجمال

حل على بادية السودان كالخريف

بالسنة والكتاب

وهو يستخدم كلمة «دبايو» بمعنى السلام عليكم في لغة الهدندوة وفي الوقت نفسه يرفض استغلال الدين باسم أية مقولة:

واعترت الدين قشعريرة، استيقظ الضمير من سباته

ورقص الدين على مزمار رأس المال.

.. وأخيرا فهناك النماذج الكثيرة التي حفلت بالنثرية، وبالخروج على الأنساق الموسيقية، وصرخت في الوقت نفسه بأنواع مذهبية لم تستطع أن تصهرها صهرا في العملية الشعرية.. ولكن الذي يطمئن إليه الإنسان أن الواقعية هي أشبه الأشياء بالإنسان السوداني، فهو لا يستطيع أن يتماسك تماسك التقليديين، وليس مهيئا لهذا العالم الوجداني العذب، كما أن وضوحه

وتلقيه الأشياء تلقيا واضحا يصرفه إلى حد كبير عن الرمزية، والسريالية.. الخ، فهناك اتجاهات أشبه بالشعوب، وهناك شعوب أشبه ما تكون بالاتجاهات..

في ضوء هذا يمكن القول بأن للشعب السوداني تركيبة عقلية ووجدانية خاصة به، وقد كان وراء هذا أن الإنسان فيه «منعزل» إلى حد ما، وأنه يضع في العروبة رجلا ويضع في الزنوجة رجلا، وأنه مرغم على تأصيل ذاته، وعلى الإحساس بهذه الذات إحساسا مضاعفا ومزدوجا في الوقت نفسه، وفي ضوء هذا كانت له شخصية تاريخية وجغرافية مميزة ومن ثم كان من الطبيعي أن تكون لتجربته نوع من الخصوصية والتفرد، فهناك الشمال العربي، وهناك الجنوب الزنجي، وهناك العديد من اللغات واللهجات، وهناك المناطق الفقيرة التي تشكو القحط وقلة الماء، وهناك الهجرة إلى الشمال بصفة خاصة لتحسين أسباب الرزق.. وقد أعطى هذا وغيره تجارب واقعية جديدة على الأدب العربي[43] والواضح هنا أن الشاعر السوداني مع أن شعره تفوح منه «نكهة سودانية» إلا أنه نجح في صهر عناصر تجربته الإقليمية وخرج بها من نطاقها المحدود «وذلك يعني وعي الشاعر الدقيق لقيمة الموضوع الذي يعالجه، ووعيه لطريقة تميزه عن سواه في المعالجة[44]»..

.. وأخيرا فما نريد أن نؤكده هو أن الشعراء السودانيين قد أسهموا إسهاما واضحا في تأكيد ما يمكن أن يسمى بالواقعية العربية، فإذا كان من المعروف أن الواقعية النقدية تعترف بالواقع الموضوعي وتصفه بفن، وأنها في الوقت نفسه موقف في الأدب والفن، وان الواقعية الاشتراكية تمثل أولا الانعكاس الموضوعي للواقع، و يلتحم فيها ثانيا العنصر النضالي بالعنصر الشخصي، فان الواقعية العربية يمكن تلمسها أولا عند بعض النقاد العرب الذين يجيء في مقدمتهم الآمدي الذي يرى أنها الطريقة التي يخبر فيها بالشيء «على ما هو عليه»، ويمكن تلمسها عند كثير من المبدعين من الشعراء الذين يجيء في مقدمتهم الشعراء السودانيون.

المؤلف في سطور:

د.عبده بدوي

* حصل على الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى في اللغة العربية وآدابها من جامعة القاهرة عام 1969.

* عمل في المجلات التي تصدر عن وزارة الثقافة سكرتير تحرير، ومدير تحرير، ورئيس تحرير، وكانت له أبواب ثابتة في العديد من المجلات مثل: نهضة أفريقية، والرسالة، والثقافة، والشعر.

* عمل بالتدريس في جامعة أم درمان بجمهورية السودان، ثم عين في جامعة عين شمس، ثم أعير منها عام 1977 لقسم اللغة العربية بكلية الآداب والتربية بجامعة الكويت.. وفي الوقت نفسه يرأس تحرير مجلة الشعر التي تصدر منذ ست سنوات.

* له عشرة أعمال شعرية توجت بالحصول على جائزة الدولة في الشعر، وبالحصول عل وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى.. كما أن له سبعة عشر مؤلف نال آخرها جائزة البحث العلمي لأعضاء هيئة التدريس بجامعة عين شمس.

* عضو من أربعة عشر عاما في المجلس الأعلى للفنون والآداب، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وجمعية الأدباء بجمهورية مصر العربية.

* مثل بلاده في العديد من مهرجانات الشعر ومؤتمرات الأدباء داخل العالم العربي وخارجه.

* من دواوينه: شعبي المنتصر، باقة نور، لا مكان للقمر، الحب والموت، كلمات



دور المشروعات العامة

في

التنمية الاقتصادية

تأليف:

د. علي خليفة الكواري

تغضبني، السيف والوردة، دقات فوق الليل، محمد.

* من مؤلفاته: الشعراء السود وخصائصهم الشعرية، السود والحضارة العربية، أبو تمام وقضية التجديد في الشعر، في الشعر والشعراء، دراسات في النص الشعري.